

هولو كوست

الوجه الآخر لكل شيء

فريق
متميزون



E-BOOK



رواية

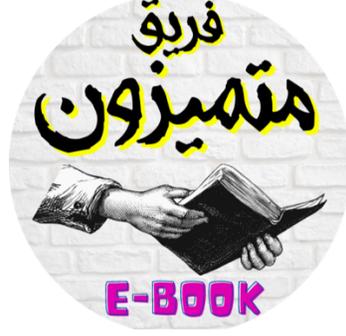
ألبرت يعقوب



مكتبة فريق (متميزون).

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمة مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

هولوكوست
الوجه الآخر لكل شيء

رواية..

ألبرت يعقوب

إهداء

أهدي روايتي الأولى لروح كل من د. أحمد خالد توفيق، والحاج أحمد عبد المقصود. أكثر الشخصيات إلهاماً لي.

كنت أتمنى أن تشاركاني هذا النجاح؛ والذي لكما منه نصيب الأسد.

لن أنساكما.

ألبرت يعقوب



«قد يعتري العجائز النسيان إذا تخلفوا عن الحرب، أما المحارب، فسيذكر ما أتاه في ذلك اليوم من جليل الأعمال».

مسرحية هنري الخامس- وليم شكسبير

ليس كل ما يراه المرء بعينه حقيقة مُسلّم بها؛ فالصورة في بعض الأحيان تكون معكوسة من داخل مرآة، والكثير من المرايا تعكس الصورة مُضيفة لها الكثير من التشوهات، لتصبح الصورة مجرد إسقاط لما يود المرء أن يراه ويصدق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



توطئة

كمعارض لنظام الحكم؛ تم وضع الأصفاد في يديه من بعد ما نطق القاضي بالحكم النهائي عليه، كئثار على حكم الملك لويس السادس عشر يقوده الحرس إلى الباستيل للعقاب.

أهو السجن مدى الحياة؟! أسياخذونه إلى ميدان الجريف ليربطوا أطرافه و يشدونها ليتم تفسیخه كما حدث مع الراهب (چاك كليمان) إثر قتله للملك هنري الثالث؟! ولكننا الآن في القرن العشرين، وفي مصر.. فأی نوع من العقاب سيصيبه هذا ما يقرره القضاء عادة..

أتمت تبرئته؟! أحم عليه حكماً مخففاً حين الاعتراف بالجريمة؟! ولكنه لم يعترف ولم ينفِ التهمة أيضاً، فقد قرر الصمت منذ لحظة القبض عليه.. أحم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لنراه فيما بعد حاملاً معولاً ويقوم بتكسير جلاميد الصخور وحملها لتقع منه ويعيد الكرة مرة أخرى كسيزيف؟!!

مهلاً مهلاً.. فلماذا التعجل والتعطش لمعرفة ما سيناله هذا الآثم والذي لولا أننا في القرن العشرين لظننت أنه أحد المعلمين الروحانيين لكاليجولا.. لا لا.. لا تتشبث بالاحتمال الأخير فهو ليس من المسافرين عبر الزمن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(1)

روسيا.. 2014

الرابعة صباحًا..

على بداية بولفار تفيرسكوي وُضع تمثال العالم الروسي (كليمنت تيميريازيف) صاحب اللحية المخروطية والشارب، القطنيين الكثرين، وعلى مقربة منهما العقار رقم خمسة المكوّن من ثلاثة طوابق والشبيه بأحد قُصور ترانسلفانيا، فهو أقرب إلى القلاع من كونه منزلًا، يقطن به شخص يترنح على أسوار الموت.

(غلوشكو كاسيرسكي) المُعمر صاحب المائة والسبعة أعوام الذي قام من سريره وانتعل خُفيه ليغوص بهما بين أوبار ذلك البساط الأيراني أبيض اللون الذي أهداه إليه أحد أصدقائه خفيفي الظل كهدية زواجه من الجميلة (بروسكولياكوفيا الينوف) والتي توفت منذ ما يزيد عن النصف قرن، أخذ يجر قدميه كطفل ترك الحبو لتوه، متخذًا الرواق المزين بلوحات «سلفادور دالي» و«فان جوخ» وغيرهما من الأسماء التي تقدر صناعات يديها بالملايين طريقًا له.. وكأي كهل اختل توازنه لينجم عن ذلك خسارته لإحدى المزهريات، والتي يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر؛ فاهتز بتوتر الكرسي الهزاز المصنوع من الماهوجني والذي يزينه الأبنوس والقرو، الذي تقضي عليه (كارول) لياليها في امتطائه، تتركه فيسقط عنها كتاب كانت تقرأه قبل أن يغلبها النعاس، متوجهة إلى مصدر الصوت ممسكة بذراعي (غلوش) بعد أن تخلى عنه عكازه وقبل أن يسقط، لتتجنب بذلك عناء جمع عظامه المتهشمة، واضعة ذراعه الأيمن على كتفها، ثم قالت له بروسية لا تشوبها شائبة، وبنبرة لوم كأم تؤنب طفلها:

- كان يجب أن توقظني.. بدلًا من أن تقوم وتعرّض نفسك لخطر السقوط.

فأجابها بصوت طغت عليه بحة التقدم في السن قائلاً:

- مخاطر!! أيُّ مخاطر يا عزيزتي.. فأنا كالمومياء التي نُبشت مقبرتها منذ ما يقرب قرنًا من الزمان قضتها باحثة عن مقبرة أخرى لتسعد براحتها في انتظار البعث.

- أراك تتحدث عن الموت كما لو كان هو الحياة الحقّة.

- وما الموت إلا مرحلة من مراحل الحياة!؟!

- يجب أن تستريح في سريرك كما أمر الأطباء.

- فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم...

قالها بنبرة عصبية كاد بها أن يبصق حنجرته ثم أكمل:

- فليذهبوا بأوامرهم التي يظنون أنها شرائع أنزلت.. فلو لهم سلطان عليّ وعلى غيري ممّن على طريق الموت لأبعدونا عن ذلك الطريق بالفعل، وليس بالشرائع العقيمة.

وأخذ يسعل..

- أرجوك أن تهدأ..

قالت جملتها الأخيرة في الحين الذي ترقرت فيه عيناها بالدموع إشفافاً على هذه المومياء، أجلسته على كرسيه المتحرك بعد أن رفض العودة إلى سريره، وطلبت منه السماح لها بتلبية طلباته:

- في غرفة المكتب ستجدين كتاباً في حجم يزيد قليلاً عن كف يدك على المنضدة التي أمام المكتب... أرجو أن تحضره مع قلم.

قالها وهو يلهث، فأجابته بإيماءة من رأسها ثم ذهبت بخطواتها الرتيبة إلى حجرة المكتب، حجرة ذات مساحة شاسعة تغلفها أرفف الكتب من الداخل في مشهد يبعث الحياة في قلوب محبي القراءة والبحث، تعلق الأرفف كتب ومراجع في شتى المجالات، وبالعديد من اللغات؛ كتب في الطب، الفلسفة، السياسة، علوم النفس والأدب. في مواجهة باب الغرفة نافذة بعرض الحائط تبعث نور السماء الوليد داخل الحجرة من خلال الستائر الحريرية بيضاء اللون، يتقدمها مكتب ضخم يفصله عن النافذة كرسيّ كلاسيكي الطراز مصنوع من خشب الصندل زكي الرائحة اكتست قاعدته ومسنداه الجانبيين بقماش الكشمير وبطن بريش النعام، وأمام المكتب وضع كرسيان صنعا بواسطة فنان في النحت وضع لهم نقوشاً من ذهب ونحاس تتوسطهما منضدة صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن نصف متر، موضوع على سطحها كتاب صغير الحجم مكسو بجلد بني اللون لم تتم دباغته بشكل سليم.

فتحته فانتابها شيء من الغرابة بسبب اللغة التي كتبت بها، فالحروف المكتوبة قريبة إلى الحروف الإنجليزية ولا تمت للروسية بأي صلة، ناهيك عن وجود جمل حوارية اعتقدت بسببها أن ما بالدفتر مسودة لرواية، ولكنها أغلقته احتراماً لخصوصيته، وفي الحال استلت قلماً لتعود إلى (غلوش) البائس، وأثناء عودتها خاطرها شيء ما بفتح الكتاب مرة أخرى وإلقاء نظرة، فتحته وتراجعت بالصفحات إلى الصفحات الأولى، وفي الصفحة الثالثة التي ألصقت إليها صورة باللونين الأسود والأبيض الذي أضافت إليه العقود الزمنية اصفراراً، لشخص يبدو أنه دوق إنجليزي أو ماركيز فرنسي، ذو شعر رأس وشارب شديداً السواد داكنان لامعان، كما لو كانا نُحتا من حجر البازلت، وامرأة أرستقراطية المظهر والملبس وثلاثة أطفال.. بنت تبدو في الثانية عشرة من العمر تقريباً، وولدان كبيرهما يبدو في العاشرة والأصغر في السابعة.. وفي مربع مزخرف في الفراغ أسفل الصورة كتبت بخط هو أقرب إلى خطوط ماكينات الطباعة تلك العبارة: «الأرشيدوق فرانز فرديناند وزوجته صوفي، وأبناؤهما أباجيل، آدم، أوريل».

كانت قد ميزت اللغة التي استخدمت في الكتابة.. اللغة الألمانية.



(2)

في العاشر من مارس عام ألف تسعمائة وأربعة وثمانون تصدّر هذا الخبر الصفحة الأولى في أغلب الصحف اليومية الموجودة في ذلك الحين والذي كان فحواه:

«إنه في صباح أمس التاسع من مارس كانت آخر جلسة في قضية العصر؛ الجلسة التي ترأسها السيد المستشار (فلان الفلاني) بالنطق بالحكم على المتهم (عزيز عيسى الطحان) بالإعدام شنقاً بسبب قتل زوجته، ومن الواضح أن المتهم قد تجرّد تماماً ونهائياً من ضميره وإنسانيته معاً ليقوم بتلك الجريمة البشعة، فقد قام بتقييد زوجته بأحد الكراسي وقام بحز عنقها حتى انفصلت الرأس عن الجسد لتفارق المجني عليها الحياة. ومن الجدير بالذكر أن طفلهما الوحيدة ذات الأربعة أعوام متغيبه منذ صباح يوم الجريمة، وذلك بشهادة كل من السيد (إبراهيم سعيد الفرماوي) -جار المتهم وشريكه في تجارته- وشهرته (إبراهيم النوبي)، وزوجته؛ وقد رجحاً بأن ذلك المخبول - المتهم- قد يكون فعل بها مكروهاً، ومن الجدير بالذكر أيضاً أن (النوبي) قد زاره في محبسه في أمس الأول وهي الزيارة التي انتهت بصفع المتهم للنوبي على وجهه، وقد كيّل له أيضاً العديد من اللكمات والركلات التي نتج عنها تمزيق جلبابه في الوقت الذي تمكن فيه رجال الأمن من الفص بينهما وإنقاذ (النوبي) وتحويله إلى مستشفى (.....) لفحصه ومعرفة إذا كان ما حدث يستلزم أكثر من واحد وعشرين يوماً للعلاج أم لا..

نهاية..

يحيا العدل الذي يقضي ويعاقب هؤلاء المخابيل اللذين تجردوا من إنسانيتهم...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مصر.. خريف 2019

ها هو العقيد (رفعت سعيد) يبدأ يوم عمله الأول من بعد عودته من فح الزوجية، كعداء يجتاز الردهات والأروقة متلقياً التحيات العسكرية الممزوجة بعبارات المباركة من كل من يقابله إلى أن وصل أخيراً لمكتب رئيسه ومعلمه اللواء (سيف الزيني)، ودخل مكتبه بعد قرع الباب والسماح له بالدخول.

- أهلاً يا رفعت.. اجلس.

قالها (سيف) دون أن ينظر إلى (رفعت)، منهمكاً في متابعة تقريراً أمامه لينتهي بعد ما يقارب النصف ساعة التي قضاها (رفعت) صامتاً، فخلع نظارته الطبية حين الانتهاء وقال:

- الحمد لله على السلامة يا رفعت.

-الله يسلم حضرتك يا افندم... والله زمان، أفنقد العمل كثيرًا.

- ويا هل ترى افتقارك للعمل بسبب حبك له أم بسبب سلبيات الزواج؟!!

فانفجر الاثنان ضاحكين لتقاطعهما طرقات الباب قبل دخول العم (فرج) الساعي متوجهاً إلى اللواء (سيف)، حيّاه التحية العسكرية ثم (رفعت) أيضاً ليبدأ حديثه:

-حضرتك يا سعادة الباشا.. حضرتك يا سعادة الباشا يوجد شخصٌ منتظر بالخارج اسمه.. اسمه الرائد شاهر عبد المجيد.. ويقول.. يقول.. إنه نُقلَ للإدارة هنا مؤخرًا مع سعادتك.. تود.. تود السماح له بالدخول أم «أطعه» بالخارج بُرْهة إلى أن... إلى أن تنهي حديثك مع رفعت بك؟!!

-أولاً.. أنا لم أقاطعك وأنت تتحدث حتى لا تغضب مثل قبل.. ثانيًا أنت هنا الساعي وتقول على رائد «أطعه»؟! فماذا تفعل بنا حين تصبح وزيرًا للخارجية؟ اذهب يا فرج الله يرضى عنك.

- أولاً لا يجوز أن أصبح.. أصبح وزير.. بسبب.. بسبب عدم المؤاخذه هذه البلد لا تسير.. لا تسير إلا «بالكوسة».. ثانيًا..

- وهل هناك ثانيًا!!!.. اخرج يا فرج الله يرضى عنك.

- طيب هل أسمح له بالدخول أم «أزعطه»؟

- اخرج.. اخرج يا فرج واجعله يدخل.

خرج معالي الوزير المستقبلي العم (فرج) ليدعو (شاهر) للدخول، حين قال (رفعت) مستهزئًا وقد عزم على الذهاب إلى مكتبه:

- جديده كلمة بُرْهة هذه في قاموس كلمات فرج.. اسمح لي بالذهاب حتى تنهي مقابلة الضيف.

- لا لا، اجلس.. هناك الكثير من الأمور أود مناقشتها معك.

وفي تلك اللحظة دخل (شاهر) متأنقًا في أول يوم عمل له بالملابس المدنية فألقى التحية على رئيسيه، وهم بالجلوس بعد أن رحب به (سيف)، ومد يده لمصافحة (رفعت) الذي رجع بذاكرته ليوم لقائه الأول من أجل العمل مع (سيف).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس (رفعت) في بزته الأنيقة بشعره القصير الذي لا يتجاوز الملليمترين من الطول وبشرته البنية وجسده ذي البنية العضلية الخالية من الترهلات، كان أمام العميد (سيف الزيني) كحديثي التخرج.. فقد تخرج في كلية الشرطة منذ ما يقرب الخمسة أعوام.. قضاها في العمل ضابطًا نوباتجيًا إلى أن ارتقى إلى رتبة مأمور القسم ذاته في قرية «كوم أمبو» بمحافظة أسوان، مسقط رأسه والأرض التي عُرفت فيها عائلته من سنين عديدة، ومركز تجارة والده.. تاجر الفحم والذي تعاون مع رجال الداخلية منذ ما يزيد عن الثلاثين عامًا للإيقاع بشريكه الذي كان يستخدم تجارتهما كستار لتجارة الآثار، والذي انتهت حياته بالإعدام شنقًا في جريمة قتل.

- أهلاً وسهلاً سيادة الرائد.. والله زمان.

قالها (سيف) بحفاوة في استقباله، فردَّ (رفعت) التحية وأعقب قائلاً:

- أهلاً بحضرتك يا افندم.. شرف كبير لي أن أكون أحد تلامذتك.

- إن كنت ترى أنني في الوقت الحالي لدي المؤهلات التي تجعلني معلمًا.. وطالما كنت تحب عملك فسوف يأتي يوم قريب تصبح أنت فيه المعلم.. ومن الممكن بعد مرور السنوات المتبقية لي قبل الوصول لسن المعاش أن تكون مؤهلاً بالقدر الكافي للجلوس على كرسي.

- العفو.

- لا تكبح طموحك يا رفعت.. هذا وإن كنت تود وبجدية أن تتجح وتكبر.. أنا عن نفسي كنت أتمنى أن أنهى فترتي وأنا على كرسي الوزارة.

- ليس بالصعب عليك يا افندم.

- ولا عليك أنت أيضًا.. وهانحنذا نحاول.. فاحلم.

وبعد لحظات من الصمت همّ (سيف) بعدها بإذابة الجليد بينه وبين ضيفه:

- ما أخبار الحاجة والدتك يا رفعت؟

- البقاء لله، توفاه الله من ثلاث سنوات..

ففغر فاه وهو يشعر بشيء من الخجل على سؤاله الذي خجل من قوله بعد رد (رفعت) فردّ قائلاً:

- يا الله، البقاء لله يا بُني.. أنا آسف.

رد (رفعت) بابتسامة بشوشة أظهرت جزءاً ضئيلاً من أسنانه ناصعة البياض قائلاً:

- العفو يا افندم، علام تأسف!!، صدقتي بمجرد أن تأتي سيرتها أو أبي أكون مسروراً للغاية، لأنهما والحمد لله لا تأتي سيرتهما إلا بالخير، ومن أشخاص لهم كل احترام وتقدير كسعادتك.

- العمل..

قالها (سيف) ثم أكمل:

- عمل الإنسان هو ما يتسبب فيما يُحكى عنه من سيرة عطرة بعدما يقابل ربه الكريم، أبوك رحمه الله على سبيل المثال..

حينئذ انقبض قلب (رفعت) ولكن ملامحه لم تتغير ليستمع إلى رئيسه الذي أكمل:

- وقف بجواري حينما كنت حديث العهد كضابط شرطة، وكان السبب في رد اعتباري، أتعلم يا رفعت؟

نظر له (رفعت) متسائلاً ليكمل:

- ما جعلني أنقل إلى أسوان بلاغ كيدي كان قد قُدم ضدي أثناء فترة قصيرة من العمل في مكتب مباحث الجيزة، الرؤساء صدقوا على الخطأ المزعوم، وبينني وبينك معهم كل الحق وأنا لا ألومهم، من فعل ذلك قام بفبركة الأدلة وسبك الطبخة.. معلم بكل صدق، وقوف أبيك إلى جواري كان بعد

نقلني إلى أسوان، ساعدني في قضية ضد شريكه، فلم يعبأ بخسارة التجارة بنسبة شريكه، أو أن يخسر تجارته بأكملها، المهم عنده كان الحق وبفضل مساعدته أصبحت ما أنا عليه الآن..

حينئذٍ سبح (رفعت) في بحر ذكرياته مع والده التي اندفعت كشرائط معكوس الدوران، رأى جثمان والده الملفوف بالأكفان والأربطة تستقبله الأرض مرحبة، رأى دمعته الفرحه حين رؤيته لابنه وهو يقرأ القسم لحظة تخرجه، رأى وقفة أبيه بالشارع لحظة نجاحه في اختبارات اللياقة وقبوله في كلية الشرطة متهلل الأسارير فرحاً وهو يقوم بملء الأكواب بالشربات وتوزيعها بنفسه على المارة... تذكر لحظة نجاحه في الثانوية العامة وفرحة أبيه التي كادت تجعله يطير كالطائر الفرح بحريته.. تذكر لحظة انتهائه من أول اختراع له وهو في سن السابعة عشرة، والذي كان نموذجاً مصغراً لمسلاط ضوئي في حجم قطعة الصابون يعكس صورة ساطعة حتى تحت تأثير الإضاءة العالية، الشيء السلبي الوحيد به هو تقطع الصورة.

- رفعت.. يا رفعت..

قالها (سيف) مُخرجاً إياه من شروده ليرى (شاهر) الذي مدَّ يده بالسلام، وأكمل قائلاً:

- إلى أين ذهبت؟!!!

- أنا اااااا.. أنا آسف يا افندم.. تذكرت أمراً ما.

قالها وقد مدَّ يده بدوره مصافحاً.

- رفعت سعيد..

- شاهر عبد المجيد برهام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(3)

عادت مرة أخرى إلى الحجرة وفي يدها الكتاب والقلم؛ فوجدته جالساً على كرسيه المتحرك في مواجهة النافذة متأملاً المباني إلى أن انتبه على صوتها..

- سيد غلوش..

قالتها (كارول) فحرك رأسه تجاهها ثم عاد إلى النافذة مرة أخرى؛ فأكملت قائلة:

- ها أنا قد أحضرت القلم والكتاب.. ماذا تريدني أن أكتب؟

نظر إليها بابتسامة حنونة بعينين لامعتين وقام بضغط بعض الأزرار في كرسيه ليلتفت إليها بسهولة، ثم قال:

- الكتابة لم يأت وقتها بعد، هلمّي بالقراءة فالكاتبه لن تتم وأنا ما زلت بعد أشهق وأزفر.

أجابته بنظرة بلهاء تتم على عدم الفهم، فأكمل كلامه بوضع المزيد من الطلاسم لتزداد معالم البلاهة على وجهها؛ فأكمل:

- عزيزتي، إلى الآن لا يوجد جديد ليكتب.. الجديد سيأتي حينما يُبلى القديم، اقرئي أرجوك وأنا أؤكد لك بأنه ما من أحد سيضع النهاية سواك.

فأخذت تقرأ ما كتب بالألمانية:

- في الثامن عشر من شهر ديسمبر عام (ألف ثمانمائة وثلاثة وستون)، وُلِدَ الابن الأكبر للدوق (كارل لودفيغ) دوق مودينا الخاضعة لمملكة إيطاليا؛ ليكون وريث العرش وولي العهد النمساوي والذي لم يكن محبوباً على الصعيد السياسي، والذي زعم الكثير بأنه مجنون بسبب فظاظته وسلطة لسانه، ولكن هذا المجنون قد تولى الحكم من بعد ابن عمه (فرانسيس الخامس) وهو في الثانية عشرة من عُمره؛ ليصبح من أغنى رجال النمسا،⁽¹⁾ رغم حداثة سنه، ثم تسبّب فرانز بزواجه من الفنانة التشكيلية التشيكية (صوفي شوتيك) في منع أولادهما فيما بعد من الترقى إلى عرش الإمبراطورية، وذلك لأنها - زوجته - من خارج طبقة النبلاء؛ فكانت تلك المرة الوحيدة من كسر قواعد السلوك في البلاط الإمبراطوري بمثابة مسمار دُق في نعش هذه العائلة، كان يود أن يصبح فناناً من أجل من فازت بلقب أسرة قلبه، من أجل جوهرته الفريدة (صوفي)... من أجلها فقط، بدأ في دراسة الفنون، الفلسفة، رغم ذلك لم ينسَ أو يتناسى مكانته السياسية مما جعله في سن الخمسين يتقلد منصب المفتش العام للجيش؛ فتلك الخطوة التي تنبأ أعداؤه من خلالها بأنه سيمتلك القوة والسلطة التي ستكون كمنجل في يده يحصد به رؤوس المصلحين ويبتز أقدامهم لجعلهم غير قادرين على اتخاذ أي خطوة نحو الرخاء، كان يرى الديمقراطية مسخاً، رسالته تدمير الإمبراطورية النمساوية المجرية فتحوّلت هواجسه تلك من وحش الديمقراطية إلى غضبٍ عارم في أوساط الصرب الذين كانوا يعيشون تحت راية الإمبراطورية الذين حلموا بالانضمام إلى دولة صربيا المستقلة آنذاك.

حينها توقفت عن القراءة متسائلة:

- عفواً سيد غلوشكو كاسبرسكي، لقد فهمت منك أن هذا الكتاب ما هو إلا مذكراتك الشخصية، فما دخلها بالأرشيديوق والإمبراطورية النمساوية ودولة صربيا!؟

- ستفهمين في النهاية العلاقة بين كل تلك الأمور وأيضاً سبب كتابتي لها بصورة أدبية كنوفيلاً..
أكملي من فضلك..

فأكملت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(4)

حينما يكافح المرء لاستحضار ذكرياته، يصبح الواقع جحيماً.. هي.. الرقة الممزوجة بالنعومة والصفاء، وجودها يُشعره بلذة أقوى من لذة العسل في فم دُبِّ شره، وجودها يُريحه، يطمئنه أن الجمال لم يكن أسطورة في يوم ما؛ بل إن الجمال متجسداً، جالساً بجواره، حينما ينفردان يودُّ أن يعجز عن سماع أي شيء يعيقه عن سماع صوت أنفاسها، يتمنى لو أن يتلاشى الفراغ الكائن بينهما، تصبح كتلة الماديات مُهمّلة في وجودها.. لأنها تمثل له الكون كله، لو تمكّن هو يوماً ما أن يكون شهريار أو هارون الرشيد، لاكتفى بها أبداً حتى لا يتدنس بمعاشرته للأخريات، أصبح راهباً في حبها، وهي غايته التي يأبى سواها.. فالحبُّ عنده هو الحفاظ على النفس من أجل النفس.

دائماً كان يودُّ (رفعت) الهروب من واقعه بالغوص في بحر ذكرياته والتنقيب عن مسرّاته المخفية، حبه لـ (ليلي) التي تصغره في العمر بعام، وكانت هي كل حياته الذي انتهى بجملة واحدة «لا يجوز أن تتزوجها.. لأنكم إخوة بالرضاعة»، الفُشة التي قضمت ظهر البعير، تبعها في السقوط شجرة هائلة الحجم ليسقط البعير ولا تقم له قومة مرة أخرى.. الشجرة هي غياب (ليلي) الذي حدث سريعاً.. فدائماً ما يأتي مارد الرحيل سريعاً ليحرمننا ممن نحب، ذلك الضيف الثقيل الذي دائماً ما يأتي بلا سابق ميعاد، يفتح الأبواب ويدخل بدون استئذان وينهب الحياة من مالكيها، ينهبها من مستحقيها، فلم لا يرحل هذا المارد بغير رجعة!!

خواطر (رفعت) التي لم يتخلَّ عنها رغم مُضي سنين عديدة، ورغم أنه قد سلّم بحقيقة أن حبيبته هي أخته ولن يقدر أن يعتبرها حبيبته بعد ذلك، حتى بينه وبين نفسه.

جالساً في مكتبه يحتسي كأساً في حجم البرميل امتلاً بالقهوة المصنوعة على الطريقة الأمريكية، يقرأ كتاباً في علم الجريمة حين دق (شاهر) باب مكتبه ليسمح له بالدخول؛ فبدأ (شاهر) بالحوار قائلاً:

- صباح الخير يا باشا..

- صباح النور يا شاهر، هناك أيّ جديد؟!

- إلى حدِّ ما، تقرير المعمل الجنائي يُفيد أنه من الصعب أن يحدث للجثة ما حدث...

قام رفعت بحكِّ ذقنه بسبب ابته مستقهماً:

- بمعنى؟!!

- يفيد المحضر وملف القضية أن الجثة اكتُشفت مدفونة بقلب عمودٍ خرساني مما يجعلها محاطة بالخرسانة من كل اتجاه، واحتمالية دخول هواء إلى الجثة ليحفز عملية التعفن مستحيلة.

فأكمل (رفعت):

- مما يعني أن القاتل يجهل كيفية إخفاء الجثة، لأنه لو كان ترك الجثة على حالها لأصبحت جريمة كاملة، أو أننا أمام قاتل متسلسل ذكي يحب أن يضع توقيعه..

- حلاوتك يا باشا.

- نعم!!

- آسف، أقصد أن تفكير سيادتك منطقي.

أوماً (رفعت) برأسه متقهماً فأكمل الآخر:

- وماذا تقترح لأن تكون الخطوة القادمة؟

- استمر في العمل على القضية، وأصدر أمرًا بمراقبة صاحب العقار ومقاول البناء ومستأجر الشقة ووضعهم تحت الإقامة الجبرية إذا لزم الأمر، وعن نفسي سأعود قراءة الملف ودراسته أملاً في الوصول لأي خيط قد يرشدنا.

- تمام يا باشا..

- شاهر، زمن البشوات انتهى.. توكل على الله.

- تمام سعادتك، بعد إذنك.

فمضى تاركًا إياه لينهي أعماله ويقوم بالرجوع إلى منزله وزوجته.

وقفت سيارة (رفعت) في موضعها اليومي في أحد شوارع المعادي ليخرج بجسده متوجهًا بخطوات سريعة إلى العمارة التي تحوي شقته بالطابق السابع. فتوجه إلى شقته، وما إن أولج المفتاح في الباب إلا وفاجأته حركة داخلية فتحت الباب بقوة، وقام ذراعٌ يجذبه إلى الداخل ليقوم ذراعٌ آخر بغلق الباب ويلصقاه بالحائط ويلتقا حول جسده، لتقوم صاحبة الذراعين بتقبيله قبلاً حارة وهو لا حول له إلا رد تلك القبلات بأضعافٍ مضاعفة مرورًا بالوجنتين والرقبة، صعودًا إلى الشفتين اللتين كادا أن يتبادلاها سويًا؛ فامتزجت تأوهاتهما لتصنع سيمفونية يعجز كيوبيد عن عزفها، ليزدادا حرارة ويكرران ما فعلاه ألف مرة ومرة، إلى أن يحدث ما يقوم بإطفاء لهيب نشوتها فجأة، ليصبحا مثل كوب من اللبن حين بسترتته.. إنه جرس الباب.

تهم (هبة) في جمع ما تبقى من أشلائها التي تناثرت أثناء هذه المناورة، لتتحرك بجسدٍ مترنح مترجرج ناصع البياض، معبقة أرجاء الشقة بعبيرها الأخاذ، متوجهة إلى الغرفة التي أغلقت بابها وهي واقفة خلفه تراقب من خلال فرجته لترى من الطارق، وعلى الجانب الآخر يقف (رفعت) منتظرًا دخولها؛ ففتح الباب بعد أن أصلح هندام ملابسه المتهربة وقام بتأكيد غلق سحاب بنطاله، ليرى العم (رزق) حارس العقار.

- أشكرك يا عم رزق..

قالها (رفعت) وهو ينقد الحارس ورقة مالية ويأخذ منه بضعة أكياس ليرد الأخير وهو يضعها في جيب جلبابه:

- تأمرني يا سعادة البية.. خدمة ثانية؟

- كتر خيرك، سيارتي فقط تحتاج الغسيل.

- سأقوم بغسلها بنفسي يا باشا.

- تسلم يا عم رزق.

- لا لن أسلم أنا.. سأظل على ديني ليوم مماتي.. وإن تصورت أنني من الممكن أن أترك ديني لأي سبب ستكون مخطئاً.

فرداً (رفعت) متعجباً:

- وهل تطرّق أحد لسيرة الدين!!

- لستُ في حاجة الى التطرق لسيرة الدين، المهم هو النية، وطالما وصلت الأمور لذلك سأحزم أشياءي وأرجع لبلدي، أنا لن أتحمّل أن يقوم أحد معارفك بإغواء ابنتي و «يغرغر» بها لتضغطوا عليّ.

- ما نوع العقل الذي تفكر به؟! إنها مجرد كلمة ولم أقصد بها أي...

فقاطعه (رزق) في مشهد ميلودرامي:

- يا باشا ارحمني أنا وزوجتي وأبنائي.

- يالعقلك الغريب!، بالطبع لم أقصد ما فهمته.

- ارحمني... ارحمني يا باشا و اتركني أعيش مرفوع الرأس ما تبقى من عمري... أقبل يديك.

فانحنى (رزق) عازماً على تقبيل يد (رفعت) الذي امتنع قائلاً:

- أستغفر الله، ماذا بك يا عم رزق!! صلّ على النبي..

- عليه الصلاة والسلام، لا مؤاخذه يا بيه، إن ما نراه من أحداث كل يوم جعلنا غير قادرين على التمييز بين ما هو صحيح وما هو خطأ ((وأولاد الحرام مسابوش لولاد الحلال حاجة)).. بالإذن يا بيه.

أغلق (رفعت) الباب من بعد رحيل العم (رزق) وهو يضرب كفاً على الآخر ويقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، الرجل طار عقله، يظن أنني أريده أن يقوم بإشهار إسلامه ويخشى أن أذفع أحدهم ليتودد لابنته ثم...

قال كلمته الأخيرة وكررها ثانية كمن تذكر شيئاً ما كان غافلاً عنه.

- ابنته!! يا ابن اللئيمة يا عم رزق.

ثم قام بفتح الباب مرة أخرى وخرج ثم نزل بضع درجات على السلم ثم صاح قائلاً:

- تستغفني يا عم رزق!!! حسناً... اثنان واحد، تستغفني وأنت وزوجتك المتوفاة لم تتجبا بنات! وأنا صدقت وتصلي على النبي!.. «ده أنا هالبسك قضية ازدرء»... سأسجلك يا عم رزق.

ثم عاد إلى شقته وأغلق الباب ثم همهم أثناء دخوله إلى الحجرة:

- يا ابن المجنونة يا عم رزق.. «صاااااايع».

فوجد زوجته في ثوبها الأسود الذي يشرح مكونات جسدها ويكشف أكثر مما يستر وعلى وجهها ابتسامة عريضة.

- هههههههه لقد تابعت الحوار بأكمله ولم أتمالك نفسي من الضحك.

- تتركينه يستغفني وأنتِ جالسة هنا تضحكي!؟

- أكان من الأفضل أن أخرج لكم بقميص النوم!! ثم إنني غاضبة منك.

فردّ متسائلاً:

- وما ذنبي؟ هل أنا من جعلته يطرق الباب!؟

قالها وهو يقترب منها أكثر فبادرته بالقول:

- غضبي وليلد الصباح، فقد ذهبت إلى العمل من دون أن تعطني قبلة كل يوم، أنا غاضبة عليك مصالحتي.

قالتها مُتغنجة مميّلة رأسها جهة اليسار ناظرة إليه، وقد حالت ملامحها حالة من التعجب نظراً إلى ملامح (رفعت) الذي بدا عليه القلق وكأنه تذكر أمراً ما فجأة:

- ماذا بك يا حبيبي!؟

سألته وهي تمسح على وجنتيه بكفيها وتقترب من فمه؛ فأجاب:

- لا شيء، فقط قضية جديدة.

- وما المشكلة؟ أنت لها.. احك لي.

قالتها وجلست بكامل جسدها على السرير وهي تقوم بعقد رجليها، فقصّ عليها تفاصيل الحادث، ليس بسبب طلبها لذلك أو لأنها زوجته فقط، ولكن لإيمانه بأن مشاركة التفاصيل تعطي رؤية أوسع وأشمل... ثم صمت هنيهة وأكمل متسائلاً:

- بالحق.. مَنْ مَنَّا كان الراح في مباراة الأمس!؟

- ههههههه.. لا أحد، لقد انتهينا بالتعادل.

- إذاً يجب أن نقوم بضربات الترجيح.

قالها وهو يغمز بعينه اليمنى لترد عليه ضاحكة:

- وهل نفعل قبل أن نأكل؟!
ثم مُحيت الأضواء.



(5)

مر من الوقت ما يقارب الساعتين ومازالت (كارول) مكملة القراءة فيما تراه بعيداً عن أن يكون مجرد مذكرات لما به من فقراتٍ تقريرية كالمثال الآتي بينما الكهل جالساً يستمع إليها كطفل أمام أمه التي تقص عليه قصة شيقة ليستغرق في النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عام ألف وتسعمائة وأحد عشر نشأت العديد من الجمعيات السرية التخريبية تضم السلاف الجنوبيين، (2) منها جماعة سرية من الصرب تسمى مجموعة القبضة السوداء أنشئت خصيصاً من أجل سيادة الصرب على الإمبراطورية النمساوية المجرية، وقد كُونُ فريق بقيادة الكولونيل (دراغويتش) ديمتريفيتش) والمعروف داخل عصابة القبضة السوداء باسم «آيبس» بوضع خطة اغتيال ولي عهد النمسا، وكان الفريق يضم ثلاثة آخرين ضمهم «آيبس» من بين طلبة المدارس. تدرّب الفريق في حديقة في بلغراد فترة الأسبوع السابق لزيارة (الأرشيدوق) - ولي عهد النمسا- وزوجته إلى سيراييڤو، وفي الأحد الموافق الثامن والعشرون من شهر يونيو عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر في تمام الساعة العاشرة، مرت السيارة المكشوفة التي نقل الأرشيدوق وزوجته بملابسهم الرسمية بمحاذاة مجموعة التنفيذ، والتي أُلقت قبلة يدوية تدرجت بالخطأ تحت سيارة طقم الحراسة، والتي كانت تتبع السيارة المستهدفة فدوّى الانفجار الذي تسبب في إصابة العديد من مرافقي الموكب الملكي وبعض المتفرجين بجروح بالغة، فخاف الفاعل من وقوعه في قبضة الحكومة فابتلع حبة من الزرنيخ لتستقبل الأرض جثته المسممة.

في ذلك الحين تفرّق الفريق وتوجه أحدهم المدعو (غافريلو برينسيب) إلى مقهى في شارع فرانز جوزيف ليحتسي كوباً من القهوة، في الحين ذاته الذي توقف فيه الموكب بعد اطمئنانهم بأن محاولة الاغتيال قد فشلت ثم أكملت بقية السيارات مسيرتها، بعدما انتهى كل شيء كما كان يبدو..

ثم قرر الأرشيدوق زيارة المشفى العسكري للاطلاع على حالة الجرحى المصابين في محاولة الاغتيال، وكانت المشفى تقع بالقرب من شارع فرانز جوزيف، ولأن المصائب لا تأتي فرادى حدث خلاف بين قائد شرطة سراييڤو والحاكم العسكري للمنطقة ليصبح شارع فرانز جوزيف بدون حراسة ليتوقف الموكب قليلاً أمام المقهى الذي وقف على بابه (غافريلو) بعد انتهائه من احتساء قهوته؛ فرأى على بعد بضعة أمتار سيارة الأرشيدوق، وبدون تردد صوّب مسدسه وأطلق رصاصتين أصابتا صدر الأرشيدوق ومعدة زوجته التي ماتت في الحال ليلحق زوجها بها بعد دقائق.

بعد ذلك تم القبض على المتآمرين سواء من تبقى من أعضاء الفريق الثلاثة، أو من تم اكتشاف انضمامهم لعصابة القبضة السوداء وإيداعهم في السجن وتعذيبهم، مما ترتب عليه فقدان (برينسيب) إحدى ذراعيه.

وفي الخامس من ديسمبر عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر، قضت محكمة سراييڤو علي المتورطين في عملية الاغتيال بالإعدام رمياً بالرصاص؛ بينما حُكِم على (غافريلو) والذي كان يبلغ من العمر

حينذاك تسعة عشر عامًا بالسجن لمدة عشرين عامًا من الأشغال الشاقة، ولكنه لم يكملها.. فقد مات بعد قضاء عامين فقط من فترة العقوبة.

تطورت الأمور بعد ذلك، وطُفَت الشوائب على السطح حين تبين أن الأسلحة التي استخدمت في عملية الاغتيال أخذت من مستودعات الجيش الصربي؛ فقامت الطبيعة البشرية بعادتها السرمدية بنشر الشائعات، ومنها أن رئاسة وزراء الصرب على علم بعملية الاغتيال، مما ترتب عليه تحالف إمبراطور النمسا مع القيصر الألماني (فيلهلم الثاني) والذين طالبا بنزع سلاح عصابة القبضة السوداء، والسماح للشرطة النمساوية بالتحقيق في عملية الاغتيال ولكن لا حياة لمن تنادي؛ حتى قرر التحالف الألماني النمساوي إعلان الحرب على دولة صربيا، والتي كانت قد تحالفت مع بعض دول العرق السلافي وغيرهم مثل بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا.. الحرب التي بدأت في الرابع من شهر أغسطس عام ألف و تسعمائة وأربعة عشر.. الحرب التي لم ينته وبألها حتى يومنا هذا.. الحرب العالمية الأولى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم أكمل (غلوش) بعدما شعر بالإنهاك الذي حلَّ بحنجرة (كارول):

- فكان اغتيال الأرشيدوق على يد الوطنيين الصرب الشرارة التي أشعلت الانفجار، إذ لقي تصميم النمسا على المضي قدمًا نحو الحرب مع صربيا دعمًا وتأييدًا ألمانيًا فتحركت روسيا للدفاع عن صربيا، ووجهت النمسا إنذارًا نهائيًا لمملكة صربيا في الثالث والعشرين من يوليو عام 1914م، وهو الإنذار الذي رأى النمساويين أنه لا يوجد أي سبب يُجبر الصرب على قبوله، فبدأت إعلانات الحرب تتطلق الواحدة تلو الأخرى.. النمسا ضد صربيا في الثامن والعشرين من يوليو، وألمانيا ضد روسيا في الأول من أغسطس، وألمانيا ضد فرنسا في الثالث من أغسطس وبريطانيا ضد ألمانيا في الرابع من أغسطس.

فأكملت (كارول) كما لو كانت تنتظر دورها في القراءة:

- وهكذا قُتل الأرشيدوق وزوجته ليصبح أطفالهم الثلاثة تحت رعاية مربيتهم (تابيئا) والتي عازمت على السفر بهم خارج البلاد لحمايتهم.

حينئذ أكمل (غلوش) ما بالكتاب والذي كان قد حفظه عن ظهر قلب، كمن كتب الكلمات على جدران عقله:

- هربت (تابيئا) بالأطفال إلى ألمانيا.. إلى ميونخ تحديدًا في مملكة بافاريا الاتحادية، ميونخ الجميلة التي أبدعت الهندسة المعمارية من خلالها بمبانيها الفريدة التي تعلوها القباب المدببة فوق أبراجها المبنية بالقرميد المرصوص بعناية بعضه فوق الآخر، بلونه الأزلي غير قابل للتغيير أيًا كانت الظروف البيئية المحيطة به؛ ذلك بجانب طبيعتها الساحرة والتي كانت بمثابة جنة أرضية على ضفتي نهر إيسار، اهتمت (تابيئا) بتعليمهم وبنشاطهم، غير أنها كانت مهووسة تحاول إصلاح الجميع، وتنتشجر مع الكثيرين لأنهم أشرار، وتقول بصراحة ما يعتدل في ذهنها وترشد الجميع إلى طريق الواجب، دائمًا كانت مشغولة بمناقشات حول الأخلاق والتدين، وعندما تجد أناسًا بحاجة إلى

مساعدتها.. تساعدهم لأيام، لأسابيع أو شهور، بالنقود وبالطعام وبالنصائح وحتى القيام بدور القابلة(3) في كثير من الولادات، وبدور الممرضة في الكثير من الحالات، وهي وسيطة للمصالحة في كثير من المعارك العائلية في بلدة لا يتعدى تعدادها الثلاثة آلاف نسمة.

وكانت على دراية ببعض الوصفات الطبية لعلاج بعض الجروح والحروق والدمامل، بجانب كونها طاهية ماهرة تصنع فطيرة التفاح بالزبيب والقرفة التي يعشقها الأبناء، برائحتها الزكية، بجانب خبزها الرائع.

- فكم من المرات تهرع لنجدة عائلات تكاد تُطرد من مسكنها لأنها لا تستطيع دفع أجرته!! فهذا هي تحمل شالها من بيتٍ إلى الآخر تطلب نقودًا، تصعد وتهبط إلى أكثر من مائة بيت، وتقص في كل بيت القصة المحزنة بإثارة جديدة، وتطلب نقودًا لمساعدة العائلة المنكوبة.

وكانت تواظب على اصطحاب الأبناء الثلاثة إلى كنيسة القديس بطرس، الكنيسة ذات النمط الباروكي الرائع، إلى أن كبر (أوريل) بها وتلمذ على يد أكبر القساوسة، وكان لـ (أوريل) مكانة خاصة في قلوب القساوسة جميعًا دونًا عن أخويه اللذين انشغلا في دراستهما؛ بسبب ذاكرته القوية وقدرته الفائقة على حفظ الأناجيل وتطبيق الوصايا في حياته اليومية كالقديسين والنسك. «سيكون ذا مكانة عالية في الكنيسة، وليس من الغريب أن يصبح بطريركًا في يوم ما، فالمسيح كائن بداخله يصد عنه حراب الشرير وسهامه»؛ كانت تلك الجملة تتردد كثيرًا على مسامع (تابيثا) من أحد القساوسة فيكون ردها في كل مرة «أرجوك يا أبت أن لا تقل مثل هذا الكلام للصبي، حتى لا يغريه شيطان المجد الباطل»، وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره رُسم شماسًا، وكان يقوم بتحفيظ المزامير والترانيم للأطفال والكبار، وكان يقود الصلوات دائمًا رغم حداثة سنه، وذات يوم وهو عائد الى منزله مارًا بسوق المؤمن(4) سمع صياح رجلٍ صوته أشبه بخوار تنينٍ يحتضر، يبدو من ملبسه أنه دباحًا، وقد علم بأنه يهودي ومن المؤكد أنه غاضبٌ بسبب خسارةٍ ما لحقت به؛ فقد قام بتعليق طفل صغير من ملبسه في أحد الخطافات وكاد أن ينهال عليه ضربًا بقصبة غليظة في يده التي عُلقَت في الهواء، فنظر الدباح الى يده مستغربًا، من ذا الذي جرؤ على منعه من تأديب الصبي!!... إنه هو.. (أوريل).

فدار الحوار الآتي بينهما:

- لماذا تريد ضربه؟

سأل (أوريل) لحظة تلاقي عينيه بعيني الدباح وقد أخذته الشفقة بالطفل المعلق كالخنزير.

- أتريد أن تُعلق بجواره ليقطع جسدك ويلقى للكلاب؟

- إنني أسألك.. لماذا تريد ضربه؟

- يالكم من مجادلين يا أغنياء الإمبراطورية، إليك أيها الوسيم ما فعل ذلك الغبي؛ فهو يعملُ معي ويقوم ببيع اللحم بوزن إضافي مما يؤدي إلى خسارتي...-

قال جملته تلك وهو يُعزق (أوريل) باللحاح المتطاير من فمه ليرد الأخير مقاطعًا:

- وهل تعتقد أن ضربك له سيعوض خسارتك؟!!

ردّ الرجل وقد نفذ صبره:

- حقاً؟!... لن يعوضني، ولكنه سيطفئ نار غضبي والتي من الممكن أن تخمد بسهولة أكثر عندما أعلقك بجواره أيها الكاثوليكي.

فردّ (أوريل) بابتسامة هادئة:

- من المؤكد أنك مخطئ.. فأنا معي ما سيخمد غضبك أسرع من ضربك لنا.

ثم مد يده ببعض الأوراق النقدية، الأمر الذي زاد الدباح استغراباً لتعلو أمارات البلاهة على وجهه وفمه المفتوح على مصرعيه كاشفاً عن أسنان صدئة؛ فأخذها من (أوريل) الذي أنزل الطفل بدوره وتركه يمضي، ثم أكمل طريق العودة إلى منزله الذي نشب به الحريق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(6)

يخرج (شاهر) أولاً من حجرة مكتبه المقابلة لحجرة مكتب (رفعت) الذي خرج بدوره من مكتبه ليلاقي الأول وهما متخذان ذات الرواق طريقاً لهما ذهاباً إلى رئيسهم الذي تملكته حالة عصبية تنذر بكل ما هو سيئ.

دخلا وجلسا في انتظار بدء رئيسهم بالتحدث بعدما ينتهي من فحص أوراق ما أمامه.

- أهلاً يا سادة، أيمن أحدكم من تفسير هذا؟

قالها (سيف) وهو يلقي ما بيديه من أوراق، متخذة في طريقها فنجاناً من القهوة فارغاً في وجه (رفعت) الذي تملكته حالة من الذهول، في نفس الحين الذي وقف فيه (شاهر) محرّجاً مما يحدث، مُلمّماً ما سقط على الأرض من أوراق ثم قال:

- هذا تقرير المعمل الجنائي الخاص بحادثة شقة المعصرة.

- أنا أجيّد القراءة جيّداً، إني أسأل أين عملكم؟، لقد تمّ تقديم البلاغ بالأمس وصدرَ تقرير من المعمل الجنائي خلال ساعات وكلاكما ذهب إلى منزله ونمتما قريري العين ثم أتيتما بعد أخذ حمام ساخن بينما رجال المعمل الجنائي، وضعا تحت كلمة رجال مائة خط لم يغادر أي منهم مسرح الجريمة.

- يا أفندم..

قالها (رفعت) الذي قاطعه (سيف) قائلاً:

- ماذا؟ هل من مهام عملكما الانتظار حتى يبلغاكما بهوية القاتل، طالما الأمر كذلك أبلغاهما بالقبض على الجاني، وبينما أنتما ذاهبان قولاً لفرج أن يغلّق ويأتي لي بمفاتيح الوكالة إلى المنزل.

- تأمرني.. تأمرني يا باشا.

قالها العم (فرج) الذي دخل دون استئذان فبادره (سيف) بإلقاء الفئان الفارغ تجاهه قائلاً:

- غور.. يجب عليك الاستئذان قبل دخولك يا حيوان.

فخرج مولياً أدباره قبل أن تنزل دمعتان من عينيه بسبب الإهانة التي تلقاها تَوّاً، ولأول مرة في حياته، ولآخر مرة أيضاً.

- يا أفندم ليس هناك لزوم لعصبيتك.. لقد وضعنا المشتبه بهم تحت المراقبة بينما ندرس القضية و..

قالها (رفعت) قبل ان يقاطعه رئيسه قائلاً:

- ما هو الذي ليس له لزوم يا باشا، أستعلّمني كيفية ترويضكم؟ حكم عقلك قبل أن تتفوه بالترهات فأنت في رتبك هذه بسبب الوساطة... يا باشا.

فساد الصمت لمدة دقيقة ثم خرج الضابطان؛ ذهب (رفعت) إلى مكتبه غير مُبالٍ بإهانتته أو بإهانة العم (فرج) الذي طالما كان يعتبره في مكانة أبيه سنّاً ومقاماً؛ بينما ظل (شاهر) بجوار العم (فرج) يحاول

تهدئته والحد من دموعه ومخاطه المتساقطين.

عندما يُحاول شخصٌ ما جاهداً في إدخال البهجة في نفوس الغير، يكون جزاؤه السباب وإلقاءه بأي شيء، وفي بعض الأحيان البُصاق.

- هياً بنا يا (شاهر)..

قالها (رفعت) لحظة خروجه من مكتبه.

- إلى أين؟!!

وقف والتفت إليه وردَّ قائلاً:

- سنباشر عملنا يا حضرة الضابط.

حينها خرج (سيف) من مكتبه ونظر لهما قائلاً:

- أعطوني التمام قبل أن تذهبا إلى منازلكم.

ثم تركهم ورجع إلى مكتبه مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلاب تنبح، أطفال تصرخ وتتقاذف الأحجار، دواب وماشية تتبول وتبرز تحت قيظ شمس الظهيرة، سيارات تخرج عوادم تختلط بالأتربة التي تعصفها رياح سيرها السريع قبل أن تستقر في رئات الضابطان المتوجهان إلى مسرح الجريمة، الذي يبعدهم بضعة أمتار.

مبنى من ثمان طوابق، مسرح الجريمة هو الشقة الوسطى لثلاث شقق بالطابق الخامس، وصلا إلى مسرح الجريمة الذي تم احاطته بالشرائط البلاستيكية الصفراء التي تُنذر بخراب بيت من يجتازها.

الكثير من عبوات الأسمنت الفارغة والممتلئة أيضاً، والعديد من قوالب القرميد المتراسة جوار الحوائط وبضعة أشخاص يهرولون ريحة وجيئة، يرتدون في أكفهم قفازات مطاطية رغم عدم وجود أي شيء من الممكن أن يحمل بصماتهم متجهين للعامود الخرساني الحاوي للجنة، بجواره من تقف بقوامها الممشوق مرتدية معطف أبيض اللون ناصعه، وترتدي أيضاً قفازان مطاطيان، ليبدو أن القفاز زياً رسمياً للعاملين في مكتب البحث الجنائي؛ ولكنها تختلف عن الباقيين بلقافة التبغ بين أصابعها والتي يحمل طرفها اللون الوردي الملمع لشفتيها اللتين تغطيان صفيين من الأسنان ناصعة البياض، تبدو كما لو كانت من مادة ما لا يتأثر لونها بدخان التبغ أو بأي من العوامل الأخرى.

- مَنْ؟!!

قالتها مشيرة بيدها التي تحمل اللقافة تجاه الضابطين اللذين وقفا مشدوهين من طريقتها في السؤال.. فإن كانت بالفعل لا تعلم أنهما ضابطان، فمن المفترض ألا تعاملهما بهذا الأسلوب المهيين الذي قابله (رفعت) بالمزيد من اللامبالاة.

- ألم أمرك بعدم السماح لأي مخلوق بالدخول إلى هنا؟!!

قالتها معقبة بعد إقائها للفاقة التبغ، وفي عينيها نظرة تدل على أن كل الويل ينتظر من سمح لهذين الرجلان بالدخول.

- صدقيني كنت أغلقت الباب بنفسي، ولا أعلم من الذي سمح لهما.

- نحن من فتحنا...

قالها (شاهر) قاطعاً فترة صمته بينما لا يزال (رفعت) غير مبالٍ، ثم أكمل:

- أعتقد أنه ليس من مسؤولياته أن يقف بالباب لمنع الناس من الدخول.

- وأنت أتِ لهنّا لتعرفني بالمهام الوظيفية لمرووسي؟!!

قالتها وهي تنتظر إليه مباشرة.. فسكت هنيهة قبل أن يجيب:

- لم يكن الأمر كذلك بالمرّة، ولكن كان من الأفضل سؤالك عن من نكون بأسلوب مهذب.

- إممممم.. ومن أنتم؟

فردّ (رفعت) كاسراً حاجز صمته معرّفاً إياها بهم، فنظرت لهم بلامحها الناعمة التي علنتها أمارات الخجل.

- آسفة، أنا بالفعل آسفة يا أفندم... اعذرونا... الجميع في شد عسبي شديد بسبب هذا اللغز، والكثيرون لم يذهبوا إلى منازلهم منذ ما يقارب الخمسة أيام بسبب عملهم على قضايا أخرى.

- ليس ما حدث بالأمر الجلل، فالمهم هو الصالح العام.

قالها (رفعت) ثم رجع لحالة صمته، إلى أن حضر بعض الأشخاص لأخذ أقوالهم بصفة ودية، كحارس العقار ومالكه، ومستأجر الشقة، وبعض العاملين الذين تصادف وجودهم لحظة انفجار العامود وبروز الجثة منه، والذين كانت رواياتهم متطابقة رغم اختلاف بدايتها؛ فأحدّم كان يقضي حاجته وغيره يقوم بالوضوء لأداء صلاة العصر، بينما آخر يُجري مكالمة هاتفية من أجل الاطمئنان على زوجته التي وضعت مولودهما الثالث حديثاً، أما الأخير فقد أقسم إن ما كان يُدخنه لفاقة تبغ تخلو من أي نوع من المخدرات، ولكنه يقوم بنفسه لأن هذا النوع من التبغ خالٍ من القطران، بينما بقية أنواع التبغ عبارة عن قطران في صورة تبغ ثم تبع زملاءه بعد وضوئه لأداء الصلاة، ليلاحظوا أثناء الركعة الثالثة صوت تهشيم في مواد البناء ولكن أيهم لم يلتفت، إلى أن ارتفع الصوت ليصبح كصوت انهيار قويّ، ليلتفت الأخيران لا إرادياً بينما الأول يتم صلاته بالسلام، فيلتفت بدوره إلى مشهد الجثة التي برزت من العامود الخرساني كالفراشة التي تجاهد في التحرر من شرنقتها، بينما نزل الآخرون مزعورين لإبلاغ حارس العقار.

الأمر استغرق ما يزيد عن الأربع ساعات حتى انتهى (شاهر) من الاستجواب أو «الدردشة» كما يزعم بينما أخذ (رفعت) عبوة التبغ والورق من العامل وتتحّى جانباً يلفّ ويُدخن، ليفاجأ الضابطان أن الليل أسدل ستاره. فذهبا دون أن يتحدثا لأي من طاقم المعمل الجنائي إلى مديرية الأمن لإعطاء (التمام) لرئيسهما. طرق (شاهر) الباب، ثم دخلا بعد السماح لهما بالدخول، فبادرهما (سيف)

بتعريفهما لضيافته الجالسة واضعة قدمًا على الأخرى، وشعرها المنسدل بمظهره «الكيرلي»، ولفافة التبغ المشتعلة بين سبابة ووسطى يُمناها، فقط كان ينقصها ارتداء قفازها المطاطي ليعرفا أنها:

- د.داليا الطحان.. الطب الشرعي ورئيسة المعمل الجنائي لمحافظة القاهرة.

قالها (سيف) وهو لا يعلم أن ضيفته ستصبح حُبِّ حياته الذي تأخر كثيرًا، فردَّ الضابطان:

- أهلاً وسهلاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(8)

كالملكة الجالسة على عرشها، جلست أمامه لينظر ويتأمل ويدرس ملامحها التي لم ولن ينساها طالما عاش أو حتى بعد موته؛ فجمالها هذا يضعها في منزلة آلهة اليونان القديمة الذين قرأ عن أساطيرهم من قبل، والتي لو كانت أحدهم لنبت شعرها خيوطاً من ذهب، وأظافرها من عاج نفيس، ومن المؤكد أنه حينذاك سيراهما متوجة بين الآلهة في حياته الآخرة رغم عدم إيمانه بهم كآلهة.

دار الحديث بينهما في سؤاله عن حياتها، فحكّت له أنها كمن تركز مسقط رأسهن للدراسة وبدء الحياة العملية في دولة ما، تركت مصر قبل أن تبلغ العاشرة من عمرها من بعد مصرع أبويها في حادثٍ ما، فتكفل بها صديقُ أبيها الوحيد والوصي القانوني عليها حتى مرحلتها الجامعية التي درست فيها الطب في الخارج، في الحين ذاته الذي قررت فيه أن تعمل بوظيفة لا تتناسب مع ما تدرسه لسد احتياجاتها المادية اللازمة لتغطية مصروفاتها الدراسية، والتي كانت تعتبرها عبئاً على صديق والدها هذا، رغم أن ما كان ينفقه لم يكن إلا ربع حصة والدها في تجارتها.

- هذا كل شيء، وكانت قضية فيلا التجمع الخامس أول قضية لي بعد عودتي لمصر، ومن الواضح أن قضية شقة المعصرة هي القضية الأخيرة لي.

- مبدئياً لا يملك أحد القدرة على منعك من مواصلة العمل في القضية حتى وإن كان أنا، شاهر ورفعت ابناي وأنا أكثر العالمين بدواخلهما، وطالما مرّ الموقف مرور الكرام يعني أنهما نسيانه، وكما قلت لم يكن أسلوب حديثك إليهما هكذا لولا الإجهاد العصبي.

- ولو يا سيف، أنا كنت أفنقر للذوق جداً أثناء حديثي، ولذلك يجب أن أعتذر لهما.

- لا اعتذار ولا غيره، الأمر أبسط مما تتخيلين.

ذلك الحوار ما دار بين (داليا) و(سيف)، فأنتهى حوارهما بضغطة (سيف) على زر استدعاء الساعي، والذي علم منه بأن العم (فرج) لم يأت للعمل منذ يومين، أي منذ الحين الذي سبه فيه، فحك ذقنه متفكراً من بعد خروج الساعي وقال:

- حسناً.. بما أن فرج غير متواجد وأنا لا أشرب القهوة وأستمتع بها إلا من صنع يديه، أتودين أن تأخذ قهوتنا في مكان آخر لعل وعسى؟

قالها مبتسماً، فردت بالموافقة ليلفح سترة بذلته على كتفيه ويهما بالانصراف مُفسحاً لها الطريق لتتقدمه. حينها فقط شعر بأنهما سيقترنان للأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقف السيارة الفرنسية الصنع بلونها الأسود وشعار الأسد الذي يكلل مقدمتها، واللذان زادها أناقة، بشارع محمد مندور بمنطقة منيل شريحة، لتصبح محط أنظار المارة، ومرتادي المقاهي، وربات المنازل الواقفات في الشرفات يقمن بنشر الجلابيب والألبسة.

- إذا سمحت.. أين منزل فرج إبراهيم؟

هذا ما سأله (سيف) لأحد المارة في المربع السكني لبيت العم (فرج)؛ فقد قرر الذهاب إليه للاعتذار فور انتهائه من احتساء القهوة سيئة المذاق مع (داليا).

- أبو خالد؟

سأل المار مستفهماً ليجيبه السائل بنعم، ثم أشار بسبابته لأحد المنازل الآيلة للسقوط:

- حضرتك الدور الثاني بعد الأرضي.. الشقة التي بجوار السلم مباشرةً.

فشكره ثم توجه إلى المنزل المشار إليه ليحتويه الفناء التراب، من بعد اجتيازه لبابه الحديدي الذي لا يُقفل أو يُفتح، وقد ثبتت درفتاه بين أكوام من الأتربة والقاذورات التي التصقت به لسنوات وسنوات، صعد السلم ذا الدرابزين الحديدي الذي يعلوه عرق من الخشب، اكتسب على مر العقود شقوقاً وفجواتٍ وتقوياً، إلى أن صعد للطابق الثاني وضغط الجرس الذي أحدث أزيزاً خافتاً، فطرق الباب بينما ليقينه بعدم جدوى ذلك الأزيز، ولكن بلا مُجيب، فعاد إلى حيثما أتى.

بعد فترة تقارب الساعة والنصف من رحيل (سيف) صعد شاب في الثالثة والعشرين من عمره، يرتدي بنطالاً أزرق اللون وقميصاً بلون أبيض تظلمه خطوط متقاطعة باللونين الأحمر والأزرق، أخرج مفتاحه وهو يتأفف ثم يستغفر، فتح باب شفته وخلع قميصه، توجه إلى المطبخ بجذع عارٍ ثم خرج بعد دقائق معدودة، يحمل صينية فوقها كوبان من الشاي وبعض الشطائر من جبن وأصابع من البطاطس تم قلبها سلفاً ودخل إلى غرفة أبيه.

- يا حاج.. أبو خالد العسل.. قم فقد اقترب الغروب.

قال جملته بعدما وضع ما يحمله على كرسي خشبي قديم متهاوٍ، وتوجه ليفتح الشرفة بينما أبوه متمسك بصمته دون رد، فقال وهو يجلس على يساره.

- إن لم تنهض سأرشك بالمياه.

ولم يلاق ردّاً أيضاً.

- ولم تذهب إلى العمل اليوم أيضاً؟!!

-

- يا ليتك تقضي عما بداخلك، لأن من المؤكد أن ما أنت فيه لم يكن بسبب إرهاب أو مرض، بل قرف وغضب.. هل داس أحدهم لك على طرف؟

فأشاح الأب بوجهه جهة اليمين متأففاً كما لو تضايق من تذكرة ابنه له بما حدث بإلحاحه الدائم لمعرفة ما حدث.

- أقسم بالله يا أبي لو كان الأمر هكذا..

فرجع الأب ناظراً لولده الذي أكمل:

- لسوف أكرّس حياتي لأندم الفاعل على فعلته.

ثم ناوله شطيرة جبن بيمناه بينما كوب الشاي في يده اليسرى ورشف وهو ما زال ينظر له، ورجع الأب بذاكرته ليوم الحدث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من بعد إهانة (سيف) للعم (فرج) والضابطان وذهابهما إلى مسرح الجريمة. خرج (سيف) من مكتبه ليجد العم (فرج) ما زال جالسًا على كرسيه بجوار الباب ولم يقف لتحيته.

- فرج..

قالها منادياً دون أن يستقبل ردًا، فقبض بكف يده على فكه وهو يزمجر.

- حين أناديك يجب أن تقوم وتقف للرد عليّ.. ادخل وقم بتنظيف المكتب.

ثم تركه ليزيح العم (فرج) المنشفة الصفراء من على كتفه الأيمن وهو ينظر إلى (سيف) الذي رحل، يزيحها ولا يبالي بسقوطها ولا بموبخه الذي أولاه ظهره راحلاً غير منتبهٍ... رحل (سيف) ثم رحل العم (فرج) في الاتجاه المعاكس متوجّهاً إلى بيته، ركب سيارة الأجرة وأعطى للتباع خمسة جنيهات دون أن ينتظر البقية بينما الصوت الخارج من مسجل السيارة المتهالك يندب حظه قائلاً: «كتاب حياتي يا عين.. ماشفت زيه كتاب»، فنزل من السيارة على مقربة من شارع الذي ذهب إليه متمشياً بخطى بطيئة وبرأس منكسة تكاد تلامس صدره، متجّهاً مباشرة نحو منزله دون أن يلقي تحية أو سلام على أيّ من أصحاب المحلات الجالسين في طريقه، كطفل يصعد السلم وهو يجر قدميه جرّاً، فوصل إلى شقته بعد زمن وأولج مفتاحه بالباب الذي أغلقه بعد عناء من قبل أن يجلس بوهن على الأريكة المرتكزة بإحدى زوايا غرفة الاستقبال - والتي لم يستقبل بها أحدًا منذ فترة من الزمن - وغاب عن الوعي إلى أن رجع نجله من العمل، فكاد يسقط هو الآخر فاقدًا للوعي، فكافح من أجل إفاقة أبيه، مهشماً ثمرة بصل وقربها من منخاره ليفيق وقد تملك ابنه الإرهاق خوفاً على أبيه وحالته المزرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما الأب وابنه جالسان يأكلان، شعر الأخير بصوتٍ خافتٍ يُشبه الأزيز، علم أنه جرس الباب المتهالك، فترك شطيرته وخرج ليفتح الباب بينما تحوّل صوت الأزيز إلى طرقاتٍ على الباب.

- حاضر.. لحظة واحدة.. من؟!!

فتح الباب دون أن يعرف هوية الطارق الذي بادره بالسؤال قائلاً:

- هذا منزل الحاج فرج؟.. مساء الخير أو لا.

- مساء النور أو لا.. نعم هذا هو المنزل بعينه تقضل.

رحّب (خالد) بالضيف وجعلهُ يجلس على ذات الأريكة التي فقد أباه وعيه عليها منذ بضعة أيام.

- هل الحاج فرج موجود أم لا؟

سأله الضيف بعد دقائق من الصمت ليجيبه الآخر :

- موجود.. هو فقط مرهقٌ ونائم في غرفته، اعذرني فلم أسألك عما توَدُّ أن تشرب.

فسأل الضيف مقاطعًا:

- هل من الممكن أن أدخل له!!؟!

فما إن أنهى الضيف سؤاله إلا ووجد العم (فرج) واقفًا أمامه وقد قارب جسده على أن يتحول هيكلًا عظميًا، وتعانقا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(9)

بولندا عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعون.

اجتاح الجنرال النازي بولندا، كبقية الدول التي استحوذ عليها في الفترة الأخيرة، جعلها خرابة خالية من الحياة؛ فقد اقفز الزرع، وجف الضرع، وتوقف تغريد طيورها للأبد، ولكنه قام ببناء كيان ظل تاريخه وسيظل مدى الدهر.

مصنع الموت الذي عُرف باسم «مُعسكر أوشويتز»، الذي كان امتدادًا طبيعيًا لنظام المصنع الحديث حينذاك، فبدلاً من إنتاج البضائع، كان البشر موادها الخام وكان الموت منتجها النهائي، منتجات عديدة يحددها مدير المصنع بدقة كل يوم على جداول الإنتاج، فكانت المداخن وهي أبلغ رمز لنظام المصنع الحديث، تأتي بدخان خانق يتصاعد عند حرق أجساد البشر، بجانب شبكة السكك الحديدية الأوربية الحديثة ذات التنظيم البديع التي نقلت المواد الخام إلى المصانع، وفي غرف الغاز استنشق الضحايا الغاز السام، وصمّم المهندسون المحارق، والمستشفيات التي كانت معامل للتجارب على البشر ليس إلا.

ومن أهم المديرين ذلك الداهية الذي كان يجول كملاك الموت ليختار ويقرر أن هذا قد عاش كفايته، وذلك لم تحن ساعته بعد؛ فيؤخذ إلى حقول التجارب، وتلك تؤخذ للعمل الشاق حتى يضيع جمالها، لأنها لا تستحقه.. لأنها لستُ آرية.

فقد كان هذا الداهية من مواليد ألمانيا لأب رائد في مجال الصناعة ثم انتقل عندما بلغ التاسعة عشرة من العمر إلى ميونخ لدراسة الطب وعلم الإنسان؛ حيث حصل على درجة الدكتوراة في علم الإنسان خلال أربع سنوات، ليحصل أيضاً على درجة الدكتوراة مرة أخرى في مجال الطب بعدها بأربع سنوات أخرى.

في عام ألف وتسعمائة وواحد وثلاثون، انضم إلى منظمة «ستاهايم» التابعة للمعسكر النازي، مما أهّله للانضمام إلى المعسكر بعدها ببضعة أعوام، حتى عام ألف وتسعمائة واثان وأربعون حين أصيب في إحدى المواجهات مع الجيش السوفيتي، ليصبح غير لائق طبيًا كجندي.

بعد ذلك بعام تمت الموافقة على طلبه للانضمام للمعسكر الطبي النازي ببولندا، وفي أغسطس عام ألف وتسعمائة وأربعة وأربعون، تم تصفية مُخيّم العجر حيث كان عمله بمعاونة صديقه الوحيد، والذي كان صديقه حينما كانا يدرسان في جامعة ميونخ.. حيث قاما بنشر غاز الخردل السام في المعسكر، ليموت كل من في المعسكر زملائهما في السكن أيضاً، ليصبح بعد تلك الواقعة القائد الأعلى لمعسكر العجر؛ ولكنه لم يصل إلى رتبة القائد الأعلى لأوشويتز، فكان يعلوه في الرتبة الطبيب (إدوار ويرثس) والذي نجا بأعجوبة من التسمم بالغاز.

كانت تلك الجريمة أقل الجرائم وطأة قام بها هذا الداهية بمعاونة صديقه.. فالأحمال الثقيلة لم يأت حينها بعد.

فها هو ملاك الموت.. ها هو (چوزيف مندل).

يعتبر (چوزيف مندل) واحداً من أهم الأطباء الباحثين في معسكر «أوشويتز»، وكان كثير الظهور في المعسكر لدرجة أن وجهه قد أصبح مألوفاً للسجناء.. اهتم (مندل) على وجه الخصوص بإجراء التجارب على التوائم الذين جد في البحث عنهم في كل أرجاء المعسكر، بل وكانت تُرسل التوائم في الغالب إلى «أوشويتز» تحديداً من أجل تجاربه، وإلى جانب حقه في استخدام العيادة، كانت له ثلاثة مكاتب في معسكرات الرجال والنساء والعجر، استعملها أساساً في أبحاثه عن التوائم، وكونه كبير الأطباء كان له مكان في أحد المعسكرات خاص به محرم على الآخرين دخوله، وهو عبارة عن حجرة تحتوي على «فوتيهات» مريحة وثلاثة مجاهر، ومكتبة عامرة بالكتب والمراجع في شتى المجالات الطبية والعلوم الوراثية والتشريح، بجانب الكثير من الأوعية الزجاجية محكمة الغلق والتي كان بداخلها أعضاء بشرية خاضعة للتجارب، كالأعين والأمعاء والأكباد وغيرها الكثير والكثير رُصت بعناية على أرفف تخضع لدرجة حرارة معينة قد يؤدي الخلل في نسبتها إلى خسائر فادحة؛ فهذه الحجرة كانت بمثابة قدس الأقداس التي كان يجب أن يتم الحفاظ عليه دون تدنيس، فمن كان يدخل القدس كان يدخل مع كبير الكهنة وليس من دونه؛ فهو الوحيد الذي يملك الصولجان.. والصدى أيضاً.

ذاك الصديق الداهية لم يكن صديق (چوزيف مندل) فقط بل صديقاً لغالبية الأطباء ومنهم (كارل كلوبرج) الذي قام بتشجيع من النظام النازي بإجراء تجارب واسعة النطاق لتعقيم وإخضاع المساجين إيماناً بالعرقية، وبصلاحية بعض الأعراق بالحياة، وبعضها الآخر للموت.

ساعد العلم، أو العلماء على وجه الدقة الجناة الذين ارتكبوا جرائم الهولوكوست على نحو مباشر أيضاً، فالعلم الحديث عبارة عن مؤسسات عملاقة ومعقدة، والأبحاث تحتاج إلى تكاليف باهظة لأنها تتطلب مباني ضخمة ومعدات باهظة الثمن وأعداد غفيرة من الخبراء الذين يتقاضون مبالغ طائلة، لذلك يعتمد العلم على التدفق المستمر للأموال والموارد غير النقدية أيضاً، ولا يوفر هذا التدفق ويضمن استمراره سوى المؤسسات الكبرى، رغم ذلك لا يمكن أن نصف العلم بأنه مذهب التجاربيين، أو أن نصف العلماء بأنهم تجار جشعون فالعلم يدور حول الحقيقة والعلماء يسعون إليها، العلماء يقودهم الفضول ويثيرهم المجهول، ولو وضع حب المعرفة في كفة وجميع الأغراض الدنيوية الأخرى بما فيها المال في الكفة الأخرى لرجحت كفة حب المعرفة عندهم، لأن قيمة المعرفة والحقيقة فحسب هي زادهم وغرضهم وأنها مجرد مصادفة، ومصدر إزعاج بسيط، أن الفضول لا يمكن أن يُشبع، وأن الحقيقة لا يمكن أن تُكشَف دون تدفق متزايد لاعتمادات مالية دائمة، ومعامل باهظة التكاليف، وقوائم رواتب ضخمة.

فإن الحكومة التي تبسط يد العون وتوفر هذه الإمكانيات تراهن على تعاون العلماء وعرفانهم لها بالجميل وفي المقابل يصبح أغلب العلماء على أتم استعداد بأن يخضعوا لقوتها القاهرة، وأن ينتازلوا عن قائمة عريضة من المبادئ، ويختزلونها في عددٍ قليلٍ من الوصايا والتعاليم الأخلاقية، ويظهر ذلك في تقبُّل العلماء للاختفاء المفاجئ لبعض زملائهم أصحاب الأنوف الطويلة والأسماء الغريبة، وإذا ما اعترضوا بأي حال من الأحوال فكان اعتراضهم يتلخص في أن إختفاء كل هؤلاء سيضع جدول البحث العلمي في خطر.

لم يكن الأمر مزحة أو ضجة فارغة، بل هو الحال الذي كانت عليه صرخات الأكاديميين وطلبة الطب والمهندسين الألمان، وإن قل ما نعرفه عن نظرائهم السوفيت إبان عمليات التطهير؛ فلقد طار العلماء الألمان من الفرحة، وركبوا قطار النازية نحو العالم الذي تسوده ألمانيا، عالم جديد شجاع يتسم بالنقاء العرقي، فازدادت طموحات المشروعات البحثية، وتدفقت الموارد والدعم المالي للمعاهد البحثية.

وجدير بالذكر أن النازيين حاولوا قبل بناء غرف الغاز أن يبيدوا زملاءهم المعاقين ذهنياً والمشوهين بدنياً عبر ما يُطلق عليه القتل الرحيم، أو ما يسمى تضليلاً «اليوثينيجيا»، وأن يساعدوا على تكاثر الجنس الأفضل باستخدام أفضل الرجال من الناحية العرقية في تلقيح أفضل النساء من الناحية العرقية أيضاً، فكانت إبادة اليهود تماماً مثل هذه المحاولات، فكان الجيش النازي يتبع سياسة تربية الماشية، فكل مربٍ للماشية يعلم أنه إن ذبح أفضل ما عنده من الحيوانات دون أن يتركها تتكاثر، واستمر في تربية الأنواع الرديئة، فإنه خاسر لا محالة فهذا الخطأ لا يرتكبه أيُّ فلاح مع حيواناته وزراعته، قد يسمح به النازيون فيما بينهم إلى حدٍ كبير، فاليهود سلبوا جزءاً من إنسانيتهم ولكي يستعيدوها لا بُدَّ وأن يدركوا أن الأنواع الرديئة من البشر ليس لها أن تتكاثر، فهم ليسوا في حاجة إلى أي شيء سوى عملية بسيطة لا تستغرق دقائق معدودة حتى تجعل هذا الحلم واقعاً دون مضیعة للوقت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



فأصرت على الوقوف وعدم توجيهها إليه، وفي الحين ذاته قالت بالمزيد من المزاح:

- أولاً اسمها ماما.. ثانياً لقد غيرت رأيي.

- وحضني المفتوح هذا ستركينه لمن؟

- لن أتركه بالطبع..

فأخذ الاثنان يقتربان من بعضهما وصوت فيروز يصدح من العدم في أذنها «يا دنياي شتي ياسمين.. ع اللي تلاقوا ومش عارفين.. من مين خايفين» بينما تنهمر الأمطار تحت برق السماء ورعدها وكأنها تمطرهما بالياسمين، ولكن أذناه تصدح بأصوات مختلفة في لحظة أغلقا فيها عيونهما مستشعرين طريقهما بالقلب، صوت محرك سيارة يصحبه صوت متقطع عالٍ لآلة التتبيه، ففتح عينيه مستجيباً وصرخ:

- انتبهيني.

قبض السائق مكابح اليد التي استجابت بعد تأخر المكابح الأساسية في الاستجابة بشيء من الكسل تحت الأمطار، لتدور السيارة بما يزيد عن مائة وثمانين درجة حول محورها لتتصادم مؤخرتها بظهر (هبة) التي طارت بجسدها سابحة تحت الأمطار، فراحت ذكريات كثيرة تغزو عقليهما، لقد تذكرنا كل تفصيلة وكل ظرف عاشاه، بكل الكلمات والبسمات واللمسات ونبرات الأصوات وهدير الأنفاس لحظة العناق.

تسقط كورقة صفصاف تعصف بها ريح الخريف، تغرق في بركة من المياه الموحلة لتزيدها عكارة رغم خفة وزنها، يستغرق عقله زمناً للاستيعاب بينما يُستغرق ذات الزمن في سقوط باقة الورد ليكسوها الوحل، يعدو تجاهها كفهيد صياد، يتسابق مع الزمن لعله يفديها من الصدمة التي حدثت بالفعل، ولكنه يفشل، يحتضنها باكياً والدماء تسيل من رأسها وبعض المناطق في جسدها بغزاة مخلقة دائرة قانية تحتها، أخذ يصرخ وينشج كأه تكلى تودع وحيداً في قبره، تداعت أفكاره وتراحمت كسرب من النمل يجتاح أروقة عقله ويعيث فيها فساداً وخراباً «أستركيني!! أستركيني يا من استقليت قلبي ليكون عرشك الأبدى؟! أستركيني يا دمي وهوائي ونفسي؟»

- ردي علي يا هبة.. ردي علي بالله.

يقولها وهو يخرج من جيبه علبة من القطيفة أرجوانية اللون ويفتحها، فيشع ضوء البرق المنعكس على الدبنتين اللتين بداخلها.

- انظري يا حبيبتي، لقد أحضرت الدبل واشتريت لنفسي دبلة بلاتين مثلما طلبت.. قومي يا هبة بالله.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. يدك معنا يا أستاذ نذهب بها لأقرب مستشفى.

قالها أحد المارة والذي تطوع بمد يده للمساعدة.

محفتان ثقيلتان كالكابوس تتحركان ببطء، تقطعان الرواق، الأولى مسجى عليها جسد (هبة) الشبيهة بالجنّة التي فارقتها الروح، والأخرى يرقد عليها الحبيب والإبرة منغرسه في ذراعه لتسحب ما يقدر

كيس الدم على استيعابه. وهو يشعر بما يحدث له في صورة ومضات متلاحقة.

- الحالة تنزف بشدة.. تحتاج نقل دم على وجه السرعة.

قالها الطبيب، فردَّ بينما عيناه الغائرتان تحاربان للحفاظ على جفونها مفتوحة..

- أنا فصيلتي نفس فصيلتها.. قُم بالأمر سريعًا..

فردَّ الطبيب:

- يجب أن توقع إقرارًا أولاً.. ستحتاج ما يزيد عن اللتر من الدم ومن المؤكد أن تتعب.

- أحضر لي ورقة بيضاء أوقعها ثم اكتب بها ما تشاء، ولكن أسرع.

تدخل المحفة الأولى لغرفة العمليات في محاولة إنقاذ تبدو مستحيلة، وهو مستلقٍ على الثانية يراقب امتلاء كيس الدم.

- ستنتظر هنا.

قالتها إحدى الممرضات بعدما نظر إليها متسائلًا.

يناجي ربه الخالق الرحيم أن يهلكه في التو إن لم يشأ أن ينجي حبيبته؛ فالعالم دونها معدوم من الحياة.

- حضرتك زوجها؟!!

- خطيبها.

- نحتاج قريبًا لها من الدرجة الأولى.

- طمئنِّي يا دكتور..

حينها لم يتمالك أعصابه وأكمل سؤاله باكيًا:

- ستعيش؟!!

- لا أخفيك سرًّا.. لن نتطمئن قبل مرور 24 ساعة.

فذهب إلى مكتب الاستقبال للاتصال بأمرها:

- مرحبًا يا طنط مريم..

هاتفني سقط في المطر وعطّل لذلك أكلّمك من رقم آخر.

- هل أنت بخير؟!!

- سأمر بك لنذهب لمكان ما سويًا.

- ابنتي!!

وبعد مجيئها أكمل الطبيب تقريره لهما غير مطمئن:

- لا أخفيكم سرًا.. صدمة السيارة ثم وقوعها ألحقا الضرر بجسدها بشدة..

منها كسر الحوض الذي من الممكن يؤثر على قدرتها على الإنجاب.

تتابعت الأحداث بومضاتها إلى أن وصلت لنهايتها حين قالت هبة بعدما فاقت:

- اتركني والتفت لحياتك بحب تعيشه مع أخرى تستطيع الإنجاب.

يُقاطعها واضعًا سبابته على شفثيها، وعلى وجهه ابتسامة حزينة:

- أنتِ حياتي..

فستان أبيض كثوب ملكة متأبط بزة سوداء أنيقة، بداخلها عروسان حبيبان، يتبختران أمام المدعوين الفرحين، وأم تبكي لفراق ابنتها..

ليلة حب.. أول ليلة حب لعاشقين تقابلت مصائرهما بواسطة عامل مشترك اسمه الحب.. ليلة حب رغم اليقين بأنهما فرعان في شجرة عاقر.. لن تُثمر يوماً.

(المَالُ وَالْبُنُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

دائمًا ما يتلو سورة الكهف يوميًا من بعد صلاة الفجر متأملًا الآية السادسة والأربعين مكرراً إياها ثلاث مرات، ثم يدعو:

- يا كريم.. أعطيتني المال والجاه والصحة.. وإنني لأطمع في رحمتك أن تمنّ عليّ بالبنون، وإن لم تشأ فكفاني بنعمتك عليّ يا رحمن يا رحيم..

ثم يمسك بمسبحته مرددًا:

- سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم.

ثم تطرق زوجته الباب ثلاث مرات ثم تدخل وعلى وجهها ابتسامة بدر..

- رفعت.. الإفطار جاهز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(11)

خرج (غلوش) عن صمته بقوله:

- ولكن لم يكن جوزيف شريراً بقدر ما كان صديقه؛ فصديقه هو صاحب فكرة التجارب على البشر.

- سمعت الكثير عن جوزيف ولكني غير قادرة على فهم ما تريد أن تقول لي.

- هذا لأنك لا تعلمين بقدرائك.. أكملني يا عزيزتي.

- قبل أن أكمل... لماذا كان جوزيف مندل وصديقه الشيطان هذا مسؤولين عن المعسكر، أو بمعنى

آخر لماذا تم تفويضهما لفعل هذا وهما لم يكونا أصحاب أي رتبة عسكرية في ذلك الوقت؟

تتهد (غلوش) قبل أن يجيب:

- لم يكن الجناة الألمان نوعاً خاصاً من الألمان، فطبيعة التخطيط الإداري وهيكله السُلطة ونظام

الميزانية أمورٌ تمنع الانتقاء والتدريب الخاص للموظفين، فأني عنصر من عناصر شرطة النظام كان

يمكن أن يعمل حارساً في أحد الأحياء أو أحد القطارات، وأيُّ محامٍ في المكتب الرئيسي لأمن دولة

الرايخ كان يُفترض بأنه يصلح للقيادة في وحدات القتل المتنقلة، وأيُّ خبير مالي في المكتب الرئيسي

للإدارة والاقتصاد كان يصلح للخدمة في أحد معسكرات الموت. بعبارة أخرى، كان بإمكان أي من

الموظفين الموجودين تنفيذ كافة العمليات الإجرائية المطلوبة.

- معنى ذلك أن هتلر كان يشترط السادية ولا يعبأ بالخبرة القتالية بالنسبة للمحاربين!

- كان يشترط الولاء.. فهو قادر على إدارة العالم بذاته.

- أتعبت من دفاعك عنه والإشادة بشخصه في حين أنه العدو للود لروسيا وجميع دول الاتحاد

السوفييتي.

- أرجوك لا تتعجلي في المعرفة فلكل شيء وقته، وأعدك بأنك سوف تفهمين كل شيء حتى تتأهلين

لكتابة نهاية هذا الكتاب.

فأكملت القراءة:

- استغل (مندل) منصبه كرئيس للأطباء في إجراء تجاربه العلمية على الغجر أولاً، ثم امتدت

التجارب إلى كل من لا ينتمي للعرق الآري سواء يهود أو سلافيين أو سوفيت أو أي بشري ينتمي

للدول المعادية لألمانيا، لا سيما دراسة مرض النوما⁽⁵⁾ وعمل الأبحاث على التوائم، وقد توصل إلى

علاج لبعض الحالات ولكنه بنظر الكثيرين مجرم نازي جعل الإنسان مادة بشرية مستهدفة، ولكن لو

اتضح الرؤية لأي شخص ما، لوكل نفسه للدفاع عن (مندل)، لأن من كان يصنع القرارات ويدفعه

لتنفيذها هو الصديق، ولكن من بمقدوره أن يُدينه!! وهو باستطاعته أن يُعيد إبليس عن مبتغاه إن

أمكن.

ثم وجهت تساؤلها الى (غلوش):

- ولكن مَنْ يكون الصديق هذا، ولماذا رغم قراءاتي في تاريخ الحربين العالميتين ومعسكرات الأعتقال لم أجد أيّ إشارة عن وجوده؟

- لأنه يمقت التاريخ والتاريخ، وما كانت أفعاله سوى أهداف وغايات قضى حياته في تحقيقها.

ثم أخذ يسرد ويقص عليها تقاليد معتقلات النازية وطقوسها:

- بمجرد دخول السجين إلى المعسكر، يُنزع عنه كل ممتلكاته بحيث لا تُعرَف هويته، ثم حلاقة شعر جسمه بالكامل.. ثم وشم رقمًا مسلسلًا على الذراع الأيسر للسجين حيث أنه لا قيمة للأسماء في «أوشويتز»، وفي حالة أن المسجون يهودي يُوشم على يده مثلث صغير بجانب رقمه المسلسل، وعندما يهجع أحدهم في المساء إلى فراشه، يجد في انتظاره سريرًا أشبه في مساحته إلى التابوت ذا مرتبة من القش يعلوه سريران آخران.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان السجناء في المعسكر يرتدون زيًا موحدًا مصنوعًا من قماشٍ مخطط خشن، يزيده العرق والقدارته خشونة، بدون ملابس داخلية، وأحذية خشبية بدون جوارب، وقد وضع على كل قطعة ملابس رقعة صغيرة من القماش تحمل رقم السجين وتصنيفه، أما في حالة المساجين السياسيين يتم وضع رقعة مثلثة الشكل حمراء اللون، أو مثلث أخضر اللون في حالة المجرمين العاديين، أو مثلث أسود لتمييز معاديين المجتمع، بجانب شاراتٍ خاصة تميّز شواذ الجنس، وشارات أخرى تميز المتدينون، أما السجناء اليهود فكانوا جميعًا يرتدون نجمة داوود مكوّنة من مثلثين متقاطعين باللونين الأحمر والأصفر.

يبدأ السجناء في الاستيقاظ من الساعة الرابعة والنصف صباحًا، وتُترك لهم نصف ساعة للاغتسال وقضاء حاجتهم، ثم يقفون في صفوفٍ مستقيمة في حالة انتباه استعدادًا للنداء على أرقامهم للتأكد من مطابقتها للكشوف، ثم تقوم قيادة فرق العمل بتحديد المهام المُكلّف بها السجناء، الذين كانوا يقفون صفوفًا يتكون كل منها من خمسة أشخاص، ويسيروا عبر بوابة عُلق عليها لافتة تقول: «العمل حرية»، في حين وجود فرقة جوار البوابة تصدح بالموسيقى التي يسير عليها المساجين، كانت ساعات العمل في الصيف اثنتي عشرة ساعة، وأقل بقليل في الشتاء متواصلة بدون فترة راحة، وكانت جميع الأعمال تتم تحت مراقبة رؤساء العمل وتحت إشراف رجال قوة البوليس الخاصة، والذين لهم سلطان على كل المساجين ورؤساء العمال.

كان السجين المُكلّف بالإشراف على المراحيض يحدد الوقت الذي يأخذه السجين لقضاء حاجته، وكان السجناء المحظوظون هم الذين يُسند إليهم العمل في قطاع الخدمات مثل المغسلة أو المطبخ الذي كان بمثابة جنة عدن بالنسبة إليهم؛ لأن هذا الأخير أتاح لهم فرصة لسرقة بعض الطعام.

السُرقة بوجه عام هي الجريمة الوحيدة التي حدثت داخل أسوار «أوشويتز» كانت سببًا لخروج ذاك الصديق عن صمته حين قام بها بروميثيوس القرن العشرين.

بعد انتهاء المساجين من أداء أعمالهم والعودة إلى المعسكر، ينادي الحُرّاس على أرقام المساجين مرة أخرى للتأكد من عدم هروب أحدهم فكان غيابُ أي سجين طامة كبرى على زملائه، فقد تعين عليهم

البقاء في أماكنهم في حالة انتباه بغض النظر عن فظاعة الطقس، وأحياناً كان يفوق وقوفهم العديد من الساعات حتى يظهر السجين الغائب، وفي معظم الأحيان كان يعقب طابور المساء عقوبات فردية أو جماعية كنوع من أنواع الترفيه بالنسبة لضباط الجيش النازي، ثم يتوجّه السجناء إلى غرفهم ليتسلموا جراية(6) خبز وطعاماً هزياً والقليل من الماء.

كانت جراية الطعام لا تغني ولا تسمن من جوع، ولهذا كان الجوع سمة أساسية من سمات الجثث التي تعيش بالمعسكر لدرجة أن السجين الجائع كان فعلاً لا مجازاً- يحلم بالخبز، بل إن المساجين انخرطوا في أحاديث لا تنتهي عن الجوع وكيفية تقليل الشعور به، كلق الحصى ووضعها تحت ألسنتهم أو مضغ قفاصة جلد، ورغم أن الجوع مشكلة عامة تؤرق المساجين فإن الإحساس بلسعته تتفاوت من شخص إلى آخر، ومن الناحية النظرية كانت الجراية اليومية للسجين تتكون من ثلاثمائة وخمسين جراماً من الخبز ونصف لتر من القهوة لفطور الصباح، ولتراً واحداً من شوربة اللفت أو البطاطس للغداء، كما كان يُصرف أربع مرات في الأسبوع لكل سجين حساء به قطعة لحم تزن عشرين جراماً، ولكن هذا لا يحدث إلا في بعض الحالات النادرة.

وأيضاً من الناحية النظرية البحتة كان السجين المكلف بعمل خفيف يتسلم وجبة غداء تحوي ألف وسبعمائة سعراً حرارياً، وكان العامل المكلف بعمل شاق يتسلم غداء يحوي ألفين ومائة وخمسين سعراً حرارياً، ولكن ما كان يحدث في الواقع كان مختلفاً حيث لم تزد جراية السجين المكلف بعمل خفيف عن ألف وثلاثمائة سعراً حرارياً، والسجين المكلف بالعمل الشاق عن ألف وسبعمائة سعراً حرارياً، وكان الفارق بالطبع يدخل تلقائياً إلى جيوب رجال قوة البوليس الخاصة وغيرهم من موظفي المعسكر، وكان المشرفون على توزيع الطعام يكافئون السجناء العملاء لصالحهم بإعطائهم من الحساء الدسم المترسب في قاع أنية الطبخ، وكانت سلطات المعسكر قد سمحت لكل سجين بالاحتفاظ دائماً بملعقة من صفيح وإناء مصنوع من مادة عضوية أحمر اللون لتناول الحساء، وخوفاً من المساجين عليهم - الملعقة و الإناء- من الضياع أو السرقة، كان السجين يحرص دائماً على عدم مفارقتهم له أينما ذهب فكانوا يتقنون طرف الملعقة والكوب وتمرير خيط بهما وربطهما بأذرعهم أو أرجلهم أثناء النوم، ورغم قلة حصة السجين من الطعام فقد كان بعض المدمنين للتدخين يقاوضون جزءاً من طعامهم بالتبغ والورق، ليصبح الطعام عبارة عن عملة متداولة.

وبسبب جراية الطعام الضئيلة تلك أصاب الهزال كثيراً من المساجين وقضى البعض نحبه من بعد إصابتهم بمرض «النوما»، فقد كان المظهر الشائع لمرضى النوما والذي كان يأتي للمساجين بسبب سوء التغذية الشديد الذي يجرح خلفه تلقاً في أنسجة الوجه ووجناتٍ غائرة وأنوفا مشوهة ولثت تكشف عن أسنانٍ عارية وألسنة كادت أن تتعفن، إنها صورة تؤنب سوء التغذية والبؤس المدقع.. في أغلب الأحيان تكون نقطة انطلاق المرض خراجاً سنياً لم تتم معالجته بالمضادات الحيوية ويسبب نخراً طويل الأمد في الأنسجة المحيطة يبدأ هذا الأمر بحفرة صغيرة لينتج عن ذلك الصورة المنفرة التي يصل إليها المريض كعائد من القبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتوقفت عن القراءة بقلب منقبض مما قرأته من فظاعات، مُحدثة (غلوش) متعجبة من كم البؤس والوبال الذي لحق بمساجين «أوشويتز»:

- رحماك يا إلهي.. ألهذه الدرجة وصلت الفظاعة والقسوة ضد اليهود؟!!

فأجاب موضحًا:

- لم يكن اليهود فحسب يا عزيزتي فهناك مساجين سوفيين وسلافيون.. مساجين من مختلف الجنسيات والأعراق، فلم يُقتصر الوبال على اليهود فحسب رغم أنهم بالفعل كانوا أصحاب النصيب الأكبر، فامتزاج معاداة اليهود التي كانت تستهدف عامة اليهود مع الأشكال المختلفة لمعاداة النخب اليهودية ربما ساعد على تقشي المعاداة الآرية لليهود بصورة غير معهودة، ففي حين كانت أفراد الجماعات أو الأعراق الأخرى تتعرض للازدراء، إما لأنهم من عامة الناس أو لأنهم من عليية القوم، كان من المحتمل أن تتعرض الجماعات اليهودية وحدها للازدراء لأنها تنتمي إلى عامة الناس وعليية القوم في آن واحد، فاليهودي يمكن أن يكون تجسدًا لكل شيء نحنقره ونخشاه ونزدريه، فعندما أمر هتلر جنوده بأن يقاتلوا في سبيل رفعة العرق الألماني، كان يؤمن أن الحرب التي أوقد نيرانها إنما هي حرب باسم جميع الأعراق، وأنها خدمة أسداها للجنس البشري والذي يقوم نظامه على فكرة العرق.

قالها مبتسمًا ليستقبل سؤالًا آخر يبدو ساذجًا من بعد كل ما قيل:

- ومن أين لك بمعرفة ما كان يحدث في «أوشويتز»؟!!

- فلتعلمي أنني لم تواجهني أيُّ صعوبة في معرفة تلك التفاصيل...

فأكمل مداعبًا:

- فأنا من أهم نزلاء «أوشويتز».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(12)

- نوّرتنا والله يا رفعت بك، وبصراحة ومن دون زعل يبدو أنني سأغير رأيي وأحب ضباط الشرطة.
قالها (خالد) لضيف أبيه الذي همّ بالانصراف، ليرد (رفعت) وعلى وجهه ابتسامة بشوشة تُفصح
ببياض أسنانه:

- أعزك الله يا خالد.. لا يوجد ما يدفعني للزعل، فأنت ابن الغالي.

ثم عبّر العم (فرج) عن امتنانه بهذه الزيارة قائلاً:

- مجيئك.. على.. على رأسنا يا.. يا رفعت بك.

- كفانا ألقاباً يا راجل يا طيب، وإن كان ضرورياً فلا تحرمني من كلمة يا ابني.

- حسناً يا ابني...

ثم تعانقا مرة أخرى ليذهب (رفعت) في صحبة (خالد) بعد إصرار أبيه بذهابه لتوصيل الضيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مكتب المعمل الجنائي عدد لا يستهان به من مرتدي المعاطف البيضاء والقفازات المطاطية،
يعملون كسرب من النحل بنشاط منقطع النظير؛ وذلك في محاولة لحل لغز ما، غير عابئين بتغيّبهم
الذي تجاوز الأسبوعين عن منازلهم، وهي نفس الفترة التي قضوها دون استحمام.. أو نوم.

لغز الجثة التي كانت بداخل عامود خرساني، مستلقاة مُتفسخة على محفة في غرفة التشريح في
انتظار الفحص والتشريح إن لزم الأمر.. في جو عام بارد ورائحة غاز «الفورمالدهايد» التي تزكم
الأنوف وتثير دموع الأعين. يلتف حولها فرّق النحل.. فريق أرسل عينة لتحليل الحمض النووي وفي
انتظار النتيجة في محاولة لمعرفة هوية الجثة، بينما آخر يحاول تجميع عمود الخرسانة بعد نقله
بالكامل إلى المعمل الجنائي من بعد الاستعاضة عنه في المبنى بأحد أعمدة الخرسانة الجاهزة ومن ثم
إخراج الجثة من داخله ونقل أجزائه لمكتب الطب الشرعي في محاولة شبيهة مستحيلة لتجميع أجزائه
مرة أخرى لفحصه على حالته الأولى ليتبين لهم بعض الثقوب الناتجة عن وجود مسامير بالألواح
الخشبية وقت صب الخرسانة ولكنها بعيدة تماماً عن فراغ الجثة.

- مجرد ثقب.

قالتها (داليا) لفريقها قاطعة حاجز الصمت فأكملت:

- ابحثوا أكثر عن أماكن المسامير لأنه من المؤكد وجود أحد المسامير قام بجرح الجثة، وعندما قام
النجارين بفك الخشب عن العمود الخرساني، ترك المسامير فراغاً مكانه وهو الذي تسبّب في دخول
الهواء للداخل وتحفيز الجثة على التعفن.

ثم أشارت بسبابتيها للمجتمعين حول الخرسانة في محاولة لتجميعها كما «الليجو»:

- أبلغوني حالما تكملوا التجميع، وأنا سأقوم بفحص الجثة مرة أخرى، وبإذن الله سنتمكن من حل اللغز.

- دكتورة داليا.. نتيجة الـ D.N.A.

- أشكرك..

نظرت إلى ملف النتيجة وقرأته بعناية في أقل من نصف دقيقة وقالت:

- يجب أن أذهب فوراً لمديرية الأمن وسأؤجل العمل على الجثة لحين رجوعي.

أخذت الملف وهمت بالذهاب ثم التفتت إليهم كمن تذكر شيئاً وقالت:

- راحة لمدة ساعة.

وبعد وصولها لمقابلة (سيف) مُبلغاه بما توصلت إليه، كان العم (فرج) عاد إلى عمله، فأشادت بقهوته.

- حقاً قُلت، قهوة فرج لا يعلى عليها.

قالتها (داليا) في جلستها بمكتب (سيف) ثم زفرت دخان التبغ حين نادته على أمل أن تخرجه من شروده الذي طال:

- سيف... يا سيف.

- هاه!!

- من المؤكد أنك لست معي من الأساس.. ماذا بك؟

- لا شيء.. فقط استيقظت بعد نومٍ قليل ولم أفق جيداً.

قالها وأخذ يُدلك جبهته لتبادره:

- لا.. لم يكن حالك هكذا منذ الصباح، لقد جفلت واضطربت فور فتحك للملف وقراءة اسم المجني عليه.. أكنت تعرفه؟

- بالطبع لا..

قالها قاطعاً، كطلقة تُتهي حياة تسأولها... صمتت ولكن قلقه لم يتركه وشأنه؛ فأخذ القلق ينهش في عقله مرسلًا إشارته لأمعائه وبنكرياسه تحديداً ليرفع من مستوى السكر في دمه لتثور عليه مئانته معلنة عصيانها مطالبة بتحررها من البول الكامن بداخلها، ويطالب ريقه بدوره بحقه في الارتواء كئيد لمئانته، ليزيد العصيان من عينيه بتمرداها ورفضها أن ترى بوضوح حتى غشي بصره نهائياً، وغاب عن الوعي.

تم نقله الى المستشفى.. جو بارد.. قميء.. أروقة مكتظة بالقلق والنحيب على من غاب بلا رجعة، أو من غاب لأجل غير مسمى، أعين باكية وقلوب خلت من الأمل، أفواه تتاجي ربها لأول مرة منذ زمن طال وكاد يطول أكثر لأجل غير مسمى.. رجال ونساء في ملابس خضراء وزرقاء وبيضاء، وملاك

رحمة تدوّن وقت إفاقة المريض، بينما ذووه - المريض- في الانتظار خارجًا يشاهدونه عبر حائل زجاجي في انتظار أن يطمئنهم شخص ما ممن في الداخل.

- حمدًا لله، لقد فاق..

قالها الطبيب حين خروجه منزلاً البرد بقلب كل من (شاهر) و(داليا) المنتظرين إفاقة (سيف) أو نهايته قبل دخولهما مباشرة بعد سماع خير إفاقته، والذي يادرهما بالسؤال عن (رفعت).

- رفعت في المديرية يا أفندم، يتابع قضية المعصرة و...

- يترك كل شيء ويأت لي حالاً يا شاهر.. حالاً.

- اهدأ يا سيف..

قالتها (داليا) فردّ (سيف) بنظرة إليها وكرر وجوب وجود (رفعت) في الحال، فخرج (شاهر) ليتركه و(داليا) التي بادرت بالحديث:

- أفلقتي عليك.

قالتها ممسدة جبينه بظهر أناملها الناعمة الرقيقة فبعثت شحنة من المشاعر بداخله، مشاعر اهتمام، وقلق، وحب.

- تنزوجيني يا داليا؟

قالها معلناً فرض العصيان على تاريخه وإقائه خلفه وعدم الالتفات لأي شيء مضى في حياته، لتكتب الحبيبة وثيقة ميلاده الجديد بموافقتها التي لم تتردد فيها.

وبعد ما يقارب النصف ساعة قضياها بعد رحيل (شاهر) في الصمت. جاء (رفعت) ورحلت (داليا) بقلبها الفرح، ليبدأ (سيف) حديثه بدون مقدمات:

- رفعت يا ابني... هل قمت بفعل القتل من قبل؟

- لا.

- إن القتل بالنسبة للضابط أمر يبدو عادياً، وبالرغم من قيامنا بها ونحن مضطرون يجب أن لا نتدم عليها طالما عشت.

- أنا لا أفهم بالمرّة ماذا تقصد.

- عندما أناديك ابني، أقولها وأنا أعنيها بغض النظر عن مجازها، لذلك سأصارك بمخاوفي وهذا ما لم أفعله مع أي أحد أيّاً كانت مكانته، لقد قمت في حياتي بقتل خمسة أشخاص، منهم ثلاثة لم يعرف أحد أنني الفاعل، وبالرغم من كل ذلك أقول لك إن الظلم فعل قميء أكثر من القتل نفسه، ولن تدرك ذلك إلا حين تكون أنت المظلوم.. أنا خائف.

- أنا أيضاً لا أفهم، ما الشيء القادر على إخافتك لهذه الدرجة؟!!

- الصُدف..

- كيف؟! -

- قضية المعصرة.. أنا كنت على معرفة سابقة بالقتيل وكانت هناك خلافات بيننا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في يوم ما تقابلا بعدما اتصل به (رفعت) وأراد مقابلته لمناقشة أمر ما، تقابلا في نادي يقع على جزيرة بوسط النيل في منطقة المعادي، أمام مستشفى شهير أحادي البناء على شكل قوس أبيض اللون، أقسم (رفعت) بأغلظ الإيمان بعدم التحدث قبل أن يتناولوا الطعام ليصبح بينهما «عيش وملح»، فوافق خجلاً مما سوف تكون عليه فاتورة الطعام، فما بحوزته من أموال لا يكفي لسداد قيمة عُلبة المناديل وزجاجة المياه في مطعم فاخر كهذا؛ فماذا عن الطعام!

بعد ساعتين قضاها الاثنان في تناول الطعام واحتساء القهوة والعصائر، قرر (رفعت) القيام واعدًا ضيفه بالتحدث في طريقهما الذي طال وسط زحام السيارات مرورًا بكورنيش النيل والمنيل في اتجاه ميدان الجيزة، فتركا السيارة بأحد الشوارع الجانبية قبل أن يصلا لكوبري عباس سيرًا على الأقدام، تعبًا أخيرًا فقرر الاستراحة في منتصف الكوبري متأملين النيل.. صامتين بعد حديث وسير طالا فقطع (رفعت) حالة الصمت التي تغطيها أصوات آلات التنبيه وبائعي حمص الشام والورود وأي شيء يمكن أن يباع:

- لهنالِم أخفِ عليك أي تفصيلة.

- رفعت بك.. على عيني ورأسي كل كلامك وأنا لن أنسى معاملتك الطيبة لأبي وأنتك الوحيد الذي رددت له جزءًا من اعتباره بمجيبك إليه و...

- فلتخرجه من معادلتنا يا خالد، فهو بك أو بدونك معي... المهم أنت.

- كل الأمر أن ما تريده غير منطقي، من المفترض أنك رجل قانون...

فقاطعه رفعت للمرة الثانية:

- قانون؟! دعك من هذه الشعارات.

قال جملته الأخيرة ضاغطًا فكيه محاولاً خفض صوته بعد التفات أحد المارة إليهما.

- اسمعني، أنت لن تخسر شيئاً... بالعكس سوف تربح الكثير بمعاونتك ووقوفك معي.. مع الحق.. بخلاف المبلغ المالي المتفق عليه.

- مال؟! وهل وافق أبي؟

- للمرة الثانية أخرج أباك من معادلتنا.. قرّر.. معي أم لا؟

ففكر لبرهة من الوقت في المزيد من التساؤلات التي تقابلها إجابات (رفعت)، وأجاب أخيرًا:

- أنا مع عقلي..

- ماذا تقصد؟... آآآه.

خرجت منه آمة جراء قبضة (خالد) التي ضربت وجنته وكادت أن تغوص بين فكيه قبل أن تدفعه الضربة بعيداً، ليقفز (خالد) في النيل هرباً، ولكن طلقات مسدس (رفعت) الذي قام سريعاً من سقطته كانت تلاحقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت الأيام سريعاً، ولحظة السماح له بمعاودة مزاوله حياته بطبيعتها، سببت فرحة عارمة في قلوبهما كما لو كان كتب اسمه في كشوف الأموات ثم مُحَي كمن لم يصبه الدور. ساعدته (داليا) في جمع ما له من أشياء في غرفته المقيمة التي قضى بها ثلاثة أيام طريح الفراش والخرطوم والأسلاك مغروسة في جسده تشحن بطارية حياته.

- سأقول لك جملتنا المعتادة المشتركة في وظيفتنا، لا أريد أن أراك هنا مجدداً.

قالها الطبيب مازحاً فرداً (سيف) بالشكر على ما فعله تجاهه واهتمامه، ليرد الطبيب بدوره أن ما فعله ما هو إلا واجبه والذي تحتم عليه أمانته المهنية القيام به، وأشياء أخرى من هذا القبيل الذي لم ينتبه إليه (سيف) لأنه قد غاب عن الوعي.. ليس الغياب عن الوعي المتعارف عليه ولكنه غياب عن الوعي من نوع آخر.. نوع لذيذ عجز الشعراء على مر التاريخ عن وصفه، هو ذلك النوع الذي يحدث حين معانقة أيادي الحبيبين لبعضهما.. مداعبة أصابع كل يد لنظائرها. للمرة الثانية؛ فكانت المرة الأولى قبل يومين حين أصرت على المكوث معه ليطمئن قلبها، «إياك أن تذهب.. أنا ما صدقت رجعت لك».. كانت ترددها كثيراً في قلبها داعية ربها بأن يسمح بإطالة عمره.

ركب (سيف) بجوار (داليا) في سيارتها، فبدأت حديثها:

- الطبيب نصح بأكل صحي.. ماذا سنأكل؟

- سنأكل!! أراك تتحدثين بصيغة الجمع كأنك ستأكلين معي.

قالها مداعباً ليعلو على وجهه ابتسامته التي كشفت غمازتيه ليكمل التشابه بينه وبين جورج كلوني كما لفتت (داليا) انتباهه لهذا التشابه، «أنت تشبه جورج كلوني بغمازتيك هاتين»؛ فاخياره لملاسه واهتمامه بمظهره وجسده الخالي من الترهلات رغم أنه اقترب إلى الستين عمره يوحيان بذلك مع شعره الفضي وذقنه النابتة قليلاً.

- حسناً.. سأقوم بتوصيلك ثم أذهب الى منزلي ولتأكل وحيداً ايها الوسيم.

ردت مداعبة بدورها وزادت في تمنعها كلما اعتذر لها، ثم اتفقا على الذهاب إلى منزلها، حيث أنه المكان الوحيد الذي يضمن لهما طعاماً صحيحاً.. وأشياء أخرى لم تحدث بسبب اتصال (رفعت) الذي جاء أثناء معاونته لها في تجهيز الطعام.

- حبيبتي.. أمهليني لحظات للرد على اتصال رفعت.

بدأ (رفعت) مكالمته على نحوٍ غريب:

- سيف باشا الحقني.. أنا قتلت.

- يا ستار يا رب.. اهدأ واحك لي بهدوء.

قص عليه ما حدث، أو بمعنى آخر ما يمكن أن يخبره به، ليغير (سيف) خطة الطعام مع حبيبته ذهاباً إلى (رفعت) بعدما قدم اعتذاره إلى (داليا) وهو يلعن قدره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صوت عقرب الساعة كصوت أقدام وحش أسطوري يُنذر بقاء العالم.. كل ثانية تمر تقول بأن الويل والهول قادمان، تقول بأن الشمس توارت ولن تشرق مرة أخرى، كل هذا يدور في مخيلة العم (فرج) من بعد اتصاله هاتفياً بـ (خالد) وسماع الرسالة المسجلة التي تُفيد بأن هاتفه مغلق.

ولكنه واصل الاتصال مرات ومرات.. ومرات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(13)

لأن «العمل حرية» كما نقول لافتة بوابة معسكر «أوشويتز»، تم تسخير غلوشكو في ورشة سبك المعادن، ليشارك في صناعة أسلحة تقتل أبناء وطنه، وكان هو (ومردخاي) -أحد السجناء اليهود والذي كان بمثابة صديق له- مكلفان بأقصى الأعمال؛ فكانت وظيفتهما استقبال المعادن المنصهرة في بواتق الصهر وصبها في القوالب الرملية بعد تفريغها من نموذج الجزء المراد سبكه، والذي في الغالب كان يتم تشكيله -النموذج- من الخشب أو الشمع.

وذات يوم كُلف كلاً من (غلوش) و(مردخاي) بصب الحديد المنصهر لنموذج الصليب المعقوف لتعليقه على بوابة أحد العنابر بأوشويتز؛ فحدثت كارثة قد تبدو أمراً معتاد داخل معسكرات الموت... سقطت بعض القشور من السقف بداخل بوتقة الصلب المصهور التي يحملها (مردخاي) فتطايرت قطرات دقيقة أشبه بالجزئيات على معصمه العاري ليترك البوتقة عنوة فيسقط السائل الحارق الغليظ بجوار (غلوش) الجالس أرضاً لتجهيز القوالب على أكمل وجه، أملاً في أن يأتي أحدهم ليكافئه على تقانيه في العمل.

- مهلاً يا أبله.. كدت تقتلني حرماً، لن تكون مسؤولاً عن صب المعدن بعد الآن.

قالها (غلوش) ثم ذهب تجاه أفران الصهر، حاملاً بوتقته أخرى منتظر صهر المعدن بينما (مردخاي) يقوم بوضع لمساته الأخيرة على القوالب من بعد تجهيز صديقه لها وحشو فتحة الصب بكرة من الورق تجنباً لسقوط أي شيء بها فينتج عنه انسداد أو ضيق في القنوات، فعاد (غلوش) بالمعدن المصهور الذي يعلوه طبقة رقيقة من الخبث والحرارة تشع منه، ابتعد (مردخاي) بطريقة مبالغ فيها بينما (غلوش) مستمر في صب السائل بعد نزع الكرة الورقية، إلى أن انتهى من الصب فحى البوتقة جانباً ووقف منتشياً أمام القوالب كعادته متخيلاً السائل البرتقالي زاحفاً داخل المجاري المستترة داخل القوالب، كأفاح ليس لها رادع ولن يقوى عليها أحد، حتى يشتم رائحة الأبخرة المتصاعدة من ثقوب التهوية، حينها فقط يفقد نشوته، يفقدها حين يتحول السائل إلى صلب وينطفئ لهبه، فيفتح عيناه ولكنه لم يفتحها بل انفتحت عينه اليسرى نتيجة ألم توافقي ناتج عن شظية من المعدن المنصهر الذي تطاير من القوالب نتج عن انسداد فتحات التهوية اللازمة لخروج الأبخرة التي انضغطت داخل القالب وأحدثت انفجاراً للقالب، وتبعها المزيد من الشظايا الحارقة التي انغرست في أنسجة وجهه وأفقدت عينه اليمنى سوائها.

صراخ ووعيل نتيجة الألم وحرناً على عين فقدت، وعساكر بهراوات يضربون بها ويردعون من يترك عمله لمشاهدة هذه الكارثة، فكان خير لهم - المعتقلين- أن يتركوه لألمه أو موته، عن مساعدته ومن ثم خضوعهم للعقاب.

فُقئت عينه اليمنى واحترق جزء كبير من وجهه أو وجهه بالكامل؛ فاستلزم ذلك إسعافه بواسطة حاملي شارة الصليب الأحمر وقد كان محظوظاً بسبب تواجد رئيسة الوحدة التي اهتمت بنفسها بحالته حتى لا يذهب ضحية للمخابيل المجريين بالبشر كفرن التجارب بدون رحمة والتي كانت الوحيدة

المسموح لها بدخول معسكرات الاعتقال ومزاولة هدفها النبيل، بسبب علاقة ما بين الصديق وبينها، علاقتهما التي كانت سبباً في إبعاد الشبهات عن الصديق و(جوزيف) كونهما عاشقين.

- أراك تهتمين به أكثر من بقية المساجين.

- إنني اهتم بكل المرضى سواء.. فكل أسقامهم وعاهاتهم نتاج عن ساديتكم وسيكوباتيتكم التي تتوارون بها خلف ستار العلم.

- إنه روسي..

قالها وهو يشير بيمنه تجاهه ضاغظاً على ضروسه مكملاً:

- الروس.. المتحالفون مع الصرب.. من قتلوا أبويك.

زفرت رداً على ضحكته الصفراء زفرة طويلة تبعثها بالرد:

- بالصرب والروس أو بدونهما كانا سيموتان، فأعمارهما..

- هراء، هراء، هراء.. تقولين هذا لأنك بلا سلطة.. بلا قدرة على الانتقام، فلنظلي كما أنت.. ضعيفة، اتركي الانتقام للأقوياء.. كالصديق.

قال كلمته الأخيرة وقد أدار ظهره إليها خارجاً فاستوقفته بندائها:

- جوزيف..

وحين التفت قالت:

- تباً لكما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(14)

في مكتب (سيف) يجلس (رفعت) مرتبًا ومرتعشًا، يفرك كفيه واضعًا إياهم بين فخذاه اللذان يهتران كقالب جيلتين طازج.

- اهدأ.. اهدأ يا رفعت حتى نتمكن من حل الأمر.. اشرب.

ناوله (سيف) كوب الماء والذي سُكب أغلبه على ملابسه بيده الآخذة في الاهتزاز كصفحة كتاب يُقرأ على الشاطئ.

- هل كان أحد على علمٍ بمقابلتكما؟

- لا.. ولكن المارة رأونا ونحن نازل من سيارتي سويًا.

- الأمر بسيط.. انتبه لي.. أنت كنت مشتبهًا به وذهبت لإحضاره بصورة ودية من أجل خاطر أبيه.. أعطني مفتاح سيارتك.

استسلم لأمر (سيف) معطيًا إياه مفتاح سيارته وكل مفاتيحه معًا.

- سأرسل أحدهم لأخذ سيارتك إلى كوبري عباس وتركها هناك.. سنقول إنه قفز من السيارة أثناء سيرها بعد قيامه بضربك، وأنت حاولت إدراكه ولكنه قفز في النيل وسيُقتل المحضر على أنه قتل خطأ، ولا تحمل همًا إذا كان هناك شهود عيان أو كاميرات مراقبة، يمكنني التغلب على كل ذلك.

أشعل لفافة تبغ أعطاها لرفعت الذي سأل:

- أنا آسف يا سيف باشا.. هل أنت متأكد أن الأمر سيبدو كذلك؟ أنا خائف و...

- شششش.. أنا أعطيتك ثقتي وأنا بين الحياة والموت، وحكيت لك عن أمور تبدو كجرائم تستحق المحاكمة من دون أن أنتظر منك أي مساعدة أو نصح.. أظن أن أقل شيءٍ يمكنك منحي إياه في المقابل هو ثقتك.. اذهب.. اذهب إلى بيتك واسترح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنصت لي يا أستاذ.. لأنك مع عقلك المستتير ومستواك التعليمي وبينتك، لا تليق عليك كلمة «معلم» لمجرد أنك تعمل تاجرًا.

جاوبه الجالس بالصمت منتظر التوضيح.

- إذا افترضنا أن العلاقة بين مُعَلِّم وأستاذ تخصصهما في القراءة والكتابة، سنجد أن المُعَلِّم هو من يُعَلِّم تلاميذه أشكال الحروف ونطقها، بينما الأستاذ هو من يكون على دراية بأصول اللغة جيدًا.. على سبيل المثال مخارج الألفاظ وطريقة النطق والمقصود من الكلمة.. كلام «مجلص» إلى حد ما ولكن يمكنك اعتباره وجهة نظر.

سحب لفافة تبغ من علبته وقدمها إليه.

- سيجارة.. لا تدخن!! حسناً تفعل من أجل الحفاظ على صحتك وولاعاتك.. تستغرب بالطبع موضوع الولاعات هذا ولكني سأوضح لك.. منذ سنواتٍ كثيرة كان لي صديق مُدخن لدرجة أنه يبدو كما لو كان يقوم بالتدخين أكثر مما يتنفس، فقررت رده عن هذه العادة بسرقتي لأي ولاعة أراها بحوزته. مرة فالثانية وأخذ القرار بالإقلاع عن التدخين، فصارحته بأنني من كنت أسرق وولاعاته، ثم قررت أن أستثمر الولاعات بأن أصبح مُدخنًا، ووعده أن بمجرد أن تنفذ الولاعات أو تعطل سأقلع عن التدخين، ولكني لم أفعل ويبدو أنني لن أيضًا.

وأخذ يُطالع بعض الأوراق واجتاحت الغرفة سحابة كثيفة من دخان التبغ وما زال الضيف صامتًا. عقارب الساعة تتسابق وتتلاحق، والمنفضة تعلن عصيانها بعد أن فاضت بلفافات التبغ المنطفئة وبعدما يقارب النصف ساعة من الصمت تُعلن العقارب أن الساعة العاشرة قد حانت. فافتعل المفاجئة كون ضيفه ما زال جالسًا ولم ينطق بحرف واحد.

- أتعلم يا أستاذ؟.. تجارة السلاح والمخدرات في بعض الدول مزدهرة جدًا.. لدرجة أنهم لو كانوا يتاجرون في ياميش رمضان لكان الأمر سيبدو صعبًا عليهم، ولكن ما يجعل أمر المخدرات سهلاً هو قدرتهم الشرائية.. بعرضهم على الجنود المكلفين بحراسة الحدود عرضًا لن يستصيعوا رفضه على طريقة دون كورليونوني.. يتلخص في أنهم سيتظاهروا بالعمى نظير مرتب شهري بآلاف الدولارات، ودائمًا لن يستطيعوا الرفض لأنه في حالة رفضهم سيشهدون مقتل زوجاتهم وأطفالهم ثم يُقتلوا بعد التأكد من قطع نسلهم.

ثم زفر زفرة قصيرة حين قام ليجلس على كرسي مقابل له وقال جملة الأخيرة التي قد تنتهي المقابلة:

- نهاية الحوار.. أنا أعرض عليك النعيم المعروض على جنود الحدود رغم اختلاف الأدوار، وسأعطيك فرصة للتفكير كقبل، وأنا على يقين أن عقل الأستاذ بداخلك لن يُخيب ظني، وستأتي غدًا موافقا على عرضي.

فقام الضيف من دون أي ردٍ، أو بمعنى آخر كان رده كلمة واحدة:

- لا.

صمت دهرًا ونطق كُفْرًا، نعم يا هذا فأنت كافر، وأي كفر!! فقد كفرت بالنعمة التي وددنا أن نغمرك بها. رفضت معونتنا لك لتعيش حياة كريمة باتساع تجارتك، أمس.. كانت تتحصر في تجارة الفحم وغدًا تتسع بسلعتين استهلاكييتين أُخرَيَيْن.. السلاح والمخدرات. ماذا؟! تجارة غير مشروعة!! لم يكن هذا من شأنك، أنت ستقوم.. أو ما كنت ستقوم بعمله كنت ستعطي عليه أجرًا، لم تكن عرضة لأي مخاطر وأنت معنا.. منا، كنت فقط ستقوم بنقل حمولاتنا بوسط حمولات الفحم خاصتك عبر المحافظات، ولكنك بفعلتك هذه تعرض نفسك لكل المخاطر.. تخيل كل وسائل التعذيب المبتكرة مجتمعة في مكان واحد من أجل شخص واحد.. هو أنت.. أراك تزفر مستريحًا ولكن يؤسفني أنك لن تُعذب بتلك الأساليب الرخيصة؛ فنحن نعذب بسلاح واحد يترك أثره في نفسك طوال ما تبقى لك من عمر.

- اذهب إلى بيتك سريعًا يا عزيز، فأنا دعوت نفسي لشرب الشاي معك.. من يد زوجتك.

لم يعبأ بلهجة التهديد الموجهة له، ظنّها كلام يقال بلا تنفيذ، ظنّها اختباراً من شخص بعيد كل البعد عن أي فساد؛ ولكن شكراً للقلق الذي جعله يتقدم قليلاً.

ابتاع في طريقه بعض الحاجيات من لوازم المنزل، ثم عرج لشراء قطيطة من الفرو لطفلته، تُعدّ من أحدث صيحات ألعاب الأطفال بشعرها الكثيف الناصع البياض وعينها البرتقاليّتين وصوت المواء الذي تصدره عند الضغط عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ثلاثة أيام تم انتشار الجثة الغارقة التي شوّهت المياه ملامحها، تم إيداعها بإحدى ثلاجعات مشرحة زينهم لعرضها على الطبيب الشرعي لتحديد سبب الوفاة، والذي كان بسبب امتلاء رئتي المتوفي بالمياه نتيجة غرقه.

سرادق ممتلئ بالمعزين، ومشغل أسطوانات يصدر منه صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد بقراءة القرآن الكريم «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي».

ثلاثة أيام مرت يستقبل الأب التعازي، لم يصدق أن أياماً قد مرت دون أن يرى ابنه، ولم يملك سوى ذاكرته المُحمّلة بذكرات معه.

- ألم يكن من الأفضل أن تُسميني باسم ممدوح يا حاج بدلاً من اسم خالد؟

- ولم؟ ألم يعجبك اسم خالد؟

- ليس الموضوع موضوع إعجاب، ولكنك لو كنت فعلت لكان ابنك أصبح بطلاً للمصارعة ثم يصبح مديعاً من بعد التقاعد.

- مصارعة.. مصارعة إيه يا ولد وأنت تشبه.. تشبه ذيل الفأر الجائع..

يتذكر محادثتهما المتكررة والتي كانت دائماً ما تنتهي بصفعه لـ (خالد) ومن ثم معانقته كصديقين، فيترحم الأب على ممدوح فرج.

قام كلٌّ من (سيف) و(رفعت) و(شاهر) بعد فروغ السرادق من المعزين، وقاموا بتقديم العزاء للعم (فرج)، لليوم الثالث على التوالي من وقوفهم جواره في السرادق واستقبال العزاء من المعزين.

- أنا لست في حاجة لأوصيك أنك لو احتجت لأي شيء فأنا موجود.

- أصيل.. أصيل.. يا.. يا رفعت بك.. يا.. يا ابني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(15)

غلوش.. أيها البائس، فلتع هذه الكلمات جيدًا ولتعلم أنه ليس من الآمن أن يكون لك صديق سوى نفسك، الكثير ممن يقفون جوارك يفعلون ذلك لهدفٍ ما، طمعًا في أن يرتقوا بوضع جثمانك سلمة تحت أرجلهم، ولن يتركوها إلا باعتلائهم سلمة أخرى، وأيضًا لن يتركوها إلا باعتلائهم جثمانًا آخر.

غلوش.. أيها البائس، فلتع هذه الكلمات جيدًا ولتعلم بأن (مردخاي) هو من قام بسكب المعدن المنصهر عن عمدٍ، وأنه من قام بسد فتحات التهوية في قالب الصب بعد اتفاق الصديق معه على فعل ذلك الأمر.

غلوش.. أيها البائس، فلتع هذه الكلمات جيدًا ولتعلم بأنه لا مفرَّ لك من أن تكون فأرًا في حقول تجارب الألمان، فلتع هذه الكلمات ولتعلم بأنه لا مفر من أن تعيش طيلة حياتك في عذاب جسدي لن يقدر أحد من إزاحته عنك.

غلوش.. أيها البائس

غلوش.. أيها البائس

غلوش.. أيها البائس

استيقظ من غفلته غارقًا في عرقه رغم برودة الأجواء، قطرات عرق غزيرة باردة تتناثر على وجهه وذراعيه وتحت ملابسه نتيجة توتر وظائفه الجسدية، ومن ناحية أخرى نتيجة القش المحشو به سريره ووسادته، قلبه ينبض بشدة ضاخنًا للدم في أورده، مزيدًا من ألم وجهه وعينييه التي كانت بجانب آلام لا يمكن وصفها تتمثل في استقرار قطرة من المعدن المنصهر داخل محجر العين والتصاقها بعظام الجمجمة ومن ثم تجمدها.

اصطدمت رئيسة وحدة الصليب الأحمر لحظة دخولها العنبر بكتف (الصديق) فلم تُعِره أيَّ اهتمام، ولكنها في الحين ذاته تملَّكها القلق على المرضى، فهي لا تستبعد عنه أن يبقر بطن أحدهم لإخراج كلية أو كبد أو قلب، ارتجف جسدها كمن مسه تيار كهربائي لحظة إمساكه لمعصمها.

- تريني بعينيك وكأنك لم تفعلي.

أزاحت يده عنها بقوة ولم تنبس ببنت شفة.

- إلى متى يا أباجيل؟؟

فردت ابنة الأرشيدوق بسؤال تنهرب به من الإجابة على سؤال الصديق:

- إلى متى ماذا؟!!

- أنت تعلمين ماذا.. تعلمين تجاهلك لي كمن لا وجود له.. تعلمين كل العلم بأنني...

فقاطعتها نافرة:

- إياك أن تنطقها مرة أخرى، فما تدعي بأنه يربطنا هو نفس الشيء الذي تخلّيت عنه بسبب جنونك وكبريائك.. وضعت نفسك في منزلة الإله وأخذت تنهي حيوات الآخرين وكأنهم كائنات أدنى من الحشرات متناسياً أنهم مثل من كل من كُنت تحب... بشراً.

- وأنتِ بشر وأنا أحبك وأعلم بأنك أيضاً ما زلتِ تحبينني... وستظلين.

- كيف أحبك وما تفعله كالسُم يقتل حبك في قلبي ويُسرطن جذوره!!؟

- والمصل أساسه السُم.

لم ترد لأنها أيقنت بأن المحادثة قد تطول إلى ما شاء الله أو إلى أن يموت أحدهما، ذهبت إلى البائس الملقى على سرير القش وأعطته جرعة مضاعفة من المورفين لتسكين آلامه قدر الإمكان وتنظيف حروقه وتطهيرها وتغيير الأربطة، وحين انتهت ظنت أن (غلوش) قد نام تحت تأثير المخدر والصديق ما زال واقفاً أملاً في إكمال المحادثة.

- سيدتي أباجيل..

سمعتها بصوت واهن حين اعتزمت الخروج، فالتفتت لتجد أن (غلوش) هو محدثها.

- ماذا؟

- هل لي بمرأة؟

فوافقته رغم تعجبها من طلبه وأنت له بها على الفور، وكان أول صوت يصدر لم يكن لأيهما، كان صوت ارتطام المرأة بالحائط وسقوط شظاياها أرضاً، فقد ألقى بها كأى شخص معافى اعتراضاً على ما حدث في وجهه من تشوهات، وعينه المفقودة بعدما قام بفك الأربطة التي قامت (أباجيل) بتغييرها للتو.

- مردخاااي اللعين.. سأقتلك!

- اهدأ.. ماذا بك!!

- اللعين.. اللعين هو من تسبّب فيما حدث لي.

- كيف؟!

- تراءى لي ذلك، وقيل لي بأنه من قام بسد فتحات التهوية وقبلها كاد أن يسكب المعدن السائل عليّ.. سأقتله.

- هذه مجرد ترهات، فليس كل ما نحلم به يكون حقيقة وليس كل ما نراه في أحلامنا يمكن أن نعتبره رؤية.. نم.. نم واسترح ولن يتكرر حلمك هذا مرة أخرى.

حينها أيقنت بأن ما قاله (غلوش) لم يكن مجرد هذيان فقد حدث بالفعل، ولأنها تعلم جيداً أساليب الصديق في زرع الأفكار بجانب وجوده حين دخولها؛ فقد اتضحت الصورة لها، وهي أنه يزرع

الأفكار في عقول ضحاياه اثناء نومهم لتوجيههم لفعل شيء ما يظنون أنه بمحض إرادتهم، ومن المؤكد أنه كان يردد بعض العبارات تتضمن أن (مردخاي) قام بسد الفتحات بعد فشله في سكب المعدن المنصهر على صديقه.

وحين التقت قد وجدته ذهب، من المؤكد أنه غادر من بعد اطمئنانه على تجربته الناجحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن (ميخائيل كلاشينكوف) قد أنهى اختراعه للبندقية AK-47 والتي حملت اسمه فيما بعد، لتكون أكثر بنادق القنص استخدامًا في الغالبية العظمى من دول العالم ولمدة عقود عديدة.

ولكن إبان الحرب العالمية الثانية كان القناصون يستخدمون أسلحة بدائية نوعًا، فأحدى القناصات قامت بمحاولة لا بأس بها في تطوير بندقيتها الخاصة، بتبديل بعض الأجزاء الداخلية بنظائر لها مصنوعة خصيصًا من معادن أفضل وأصلب وأقسى، وتزويدها بمنظار أحادي قامت بتثبيته بجسم البندقية، لتصبح القناصة الأبرع في قنص الأهداف أيما كانت بعيدة ودقيقة، وخلال فترة وجيزة من ابتكارها هذا الذي أزد من براعتها، لمع نجمها وحلّق عاليًا في سماء جهاز الاستخبارات السوفيتية.

وها هي بملابسها العسكرية وسترتها التي تحمل أعلام دول الاتحاد وقبعتها ذات الشارة ذي السيف والدرع، وبخطوات سريعة منتظمة من ذات القامة القصيرة تقطع أروقة جهاز الاستخبارات متوجهة كالسهم إلى مكتب رئيس الجهاز، فتشرب الأعناق وتُرفع الأيادي مؤدية التحية العسكرية لها.

- ككل ما بحياتك منضبط كذلك موعديك.

- لأن الدقة أساس عملي فبدونها لن أستطيع تحقيق أهدافي.

تعانقا قبل أن تجلس لتتلقى بعض التعليمات، فيما يجب أن تقوم به خلال فترتها المقبلة من تجنيد أحد القتلة المأجورين للعمل لصالح الجيش الأحمر.

(جريشام ايلاريون) قام بقتل 23 فتاة من بعد اغتصابهن، (ايدوارد ياكوف) قتل ما يقارب المائة وثلاثين خلال عمليات سطو مسلح، وسرقات بالإكراه قام بها منفردًا من دون مساعدة أحد. أما الاسم الثالث هو الذي وقع عليه الاختيار كونه قاتلاً وكفى، فهو لم يسرق أو يغتصب، يقتل لغرض القتل.. هذا هو المختار، اليد القادرة على حمل الدرع والسيف البلشفيين والعبور بهما على جثامين محاربي الرايخ.

- الحرب أوشكت على الانتهاء.. سواء بانتصارنا أو بانتصار الجيوش الأخرى، ولكننا في أمس الحاجة إليه.

قال تلك الجملة رئيس الجهاز لضيفته، أو لمن تبدو ضيفته ويدها منشغلتان بملء كأسين من الفودكا.

- حدثي ينبهني بأنها ستنتهي بانتصار الجيش الأحمر يا سيدي.

- أتمنى ذلك، وسنعمل على ذلك سوياً.

أعطى لها كأسها ورسم على وجهه ابتسامة ونظر في عينيها قائلاً:

- ولكنني أؤكد لك بأنك إن قمتِ بترديد كلمة «سيدي» تلك سأقوم بقضم أصابعك لتظلي متذكّرة أنك تحادثين أباك، وليس رئيسك في العمل.

- ولكننا...

قاطعها محوّلًا دفة الحديث، معلّمًا إياها بأن مَنْ وقع عليه اختيارها في طريقه إليهم، وما هي إلا دقائق قليلة مرّت قبل أن يُطرق الباب ويدخل أحد الضباط بعد السماح له بذلك، معلّمًا رئيسه بوصوله - القاتل- تحت الحراسة، فتوجّه ثلاثتهما إلى حجرة تبدو أنها حجرة اجتماعات، حوائطها ناصعة البياض ولكنها بدون أي نوافذ، أرضيتها كرقعات الشطرنج مكونة من مربعات رخامية مصقولة بعناية كالمرايا، وفي منتصف أحد الجوانب مدفأة همدت نيرانها في انتظار تزويدها بالغذاء، جلس الجميع على منضدة ضخمة في منتصف الغرفة كراسيها مغطاة بجلد أسود اللون، كراسٍ ضخمة كالعروش وُضع على مساندها الخلفية شعار دول الاتحاد السوفيتي نُقش على قطعة من النحاس بحجم عملة معدنية.

بدأ معاون رئيس الجهاز في الحديث إلى القاتل قائلاً:

- من المؤكد أنك تعلم سبب وجودك هنا، وتعلم بأنك هنا لسبب بعيدٍ كل البعد عن أن نحاسبك على جرائم القتل التي اقترفتها، فلمحاسبة المجرمين جهات أخرى مختصة بذلك.

استغرق الجميع في صمتٍ انتظاريًا لتلقي أي رد فعل ولكنه لم يحدث، فقطعت القناصة فترة الصمت بتعريف نفسها للقاتل:

- أنا بروسكولياكوفالينوف.. المسؤولة عن تدريبك وتوجيهك وسأكون حلقة الوصل بينك وبين القيادات.

نظر إليها بتمعّن، متقرّسًا في ملامحها الدقيقة وعينيها الزرقاوين وأنفها الدقيق الذي بدا عليه وكأنه مرسوم في وجهها بفرشاة فنانٍ بارع في تجسيد الجمال.

- مهمتك تتحصر في السفر إلى بولندا، والدخول لمعسكرات الاعتقال كأي مسجون من الممكن أن تتعرض للتعذيب، بل من المؤكد، وقتلك شيءٌ لم يكن مستبعدًا، دخولك سيتم لغرضٍ وهو إمدادنا بما نطلبه منك من معلومات...

قاطعها الرئيس بإشارة من يده ليضيف:

- في أي حالٍ من الأحوال يجب أن ترسل لنا ما تحصلت عليه من المعلومات مع من سيأتيك من داخل المعسكر بكلمة السر، حتى وإن كانت هذه المعلومات بدون قيمة من وجهة نظرك التي بلا قيمة.

فقال معاون رئيس الجهاز منبهًا:

- الخوف.. الخوف هو السمة التي ستجعل أي شخص يشتهه في كونك جاسوسًا لصالح المخابرات الروسية، فعليك أن تدع الخوف جانبًا إن وددت تنفيذ مهمتك بنجاح.

فقام من مجلسه مبتسماً، ولأول مرة قال:

- غلوشكو كاسبرسكي لا يعرف لكلمة الخوف معنى.

وحين أنهى جملته كان قد توجهَ بنظره إلى (بروسكوليا) التي بادلته تلك الابتسامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(16)

- وجدتك لم تتصل فقلت أبادر بالسؤال.

- آسف يا حبيبتي..

قالها دون أن يعيرها أي اهتمام، مستمرًا في رسم العديد من الأشكال التي لا يعرف كنهها إلا الله، مكرراً تلك العادة دائماً حينما يفكر بأمرٍ ما وينعزل بكل ما فيه عما حوله.

- آسف يا حبيبتي!! ما الأمر يا سيف؟ ماذا بك!!

- لا شيء.

- لا شيء..

رددتها مازحة بصوت غليظ وأكملت:

- واضح فعلاً أنه لا شيء.. بدليل هاتفك الذي يرن وأنت في غفلة عنه.

انتبه إلى شاشة جواله التي تعرض رقمًا مصحوبًا باسم (رفعت) كمتصل. انتهى رنين الهاتف قبل أن يتمكن من الرد، ففوجئ بالجوال يُعلن وجود سبع مكالمات فائتة تبعثها رسالة نصية من ذات المتصل.

«من الواضح أن الأمر صعب بالفعل كما توقعت، وأنت لن تقوم بتصحيح خطئي بخطأ أكبر منه، ولكنني أشكرك لتخليك عني يا سيف باشاء، ولكن إحساسي بالذنب يجعلني غير قادر على العيش ولا أملك سوى أن أستسلم». رسالة زادت من حيرته تجاه ذلك الغيبي، فكيف يتخلى عنه وهو الذي طالما اعتبره ابنه؟! كيف وهو من صارحه وهو على شفا حفرة من الموت بأفعاله غير المشروعة! قام بالاتصال به، ولكن وجد هاتفه أصبح مغلقًا.

- أنا ذاهب..

قالها وقد قام تاركًا كل ما له على مكتبه وقد عزم الذهاب إلى منزل (رفعت)، فنادته (داليا) منبهة إياه لنسيانه جواله، والذي لم يعبا له أو لها وهي تهزول خلفه، إلى أن صاحت:

- مهلاً يا سيف، هناك مصيبة..

التفت إليها متسائلاً عما حدث فأجابته:

- قمتُ بالرد فوجدت امرأة تصرخ وتقول إن رفعت حاول الانتحار، وتم نقله لمستشفى (...).

وكبعوضة صعقتها الكهرباء، ظلَّ واقفاً، مشدوهاً بعقل عجز عن التفكير لثوانٍ معدودة مرت وكأنها دهرٌ، ثم جمع شتات أفكاره داخل عقله.

- تعال.. سأوصلك، لن أتركك تقود السيارة وأنت على هذه الحال.

ثم استقلا سيارة (داليا) التي وصلت في وقت قياسي إلى المستشفى، بينما (سيف) جالساً لم يتقوه بأي كلمة مسترجعاً ذكرياته و (رفعت) في أيامهما الأخيرة من بعد انتكاسته، كصديقين لا حدود بينهما.

تذكر جلسات الدردشة بينهما وسؤال (رفعت) له عن سبب وصوله لهذا السن دون أن يتزوج ليجيبه أن كل شيء نصيب، ثم سؤاله عن أي علاقات من نوع آخر ليرد (سيف) مازحاً: «الراجل اللي معطش زي الكلب اللي معطش» لينفجرا ضاحكين. ومن ثم يحكي (سيف) عن كونه بلا أصدقاء منذ الطفولة، فلم تتركه أمه لتكوين أي صداقات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يا سيف.. وصلنا.

قالتها (داليا) بعد عدة نداءات لم ينتبه لها، غارقاً في عالم آخر مع صديقه، أو صندوقه الأسود الذي طال انتظاره وقصر أجله.

ترجل من السيارة متوجهاً إلى قسم الاستعلامات لمعرفة رقم الغرفة التي بلغها في خلال دقيقتين.

- الأطباء يقولون إن مرحلة الخطر تتمثل في الأربع وعشرين ساعة الحاليين.. أنا خائفة.

قالتها منفجرة بنوبة بكاء ونشيج كادت خلالها حنجرتها أن تنحر، وألقت بجسدها تجاه (داليا) التي احتضنتها في محاولة فاشلة لتهدئتها.

- بإذن الله سيقوم سالمًا يا مدام...

نظراتها الحرجة المتسائلة جعلت (سيف) يهمس إليها (هبة).

- بإذن الله سيقوم سالمًا يا مدام هبة.

ثم قال (سيف) للطبيب الذي خرج لتوه من الغرفة مطمئناً إياهم بقدر إمكانه:

- مطمئناً يا دكتور..

- لقد شهدنا تحسن حالته في الساعتين الماضيتين، ولكن سنطمئن نهائياً بعد مرور الأربع وعشرون ساعة الجارية بخير.. اطمئناوا..

وفي ذلك الوقت حضر (شاهر)، ألقى التحية على الجميع وقال بعض الكلمات كالتي تقال في مواقف مشابهة، ثم دار بينه ورئيسه حوار جانبي بخصوص العمل دون أي انتباه من الأخير، وجلست (داليا) جوار (هبة) محتضنة إياها في محاولة من تهدئتها ولكن بلا جدوى، ثم تركتها فجأة كمن مسه تيار كهربائي لتلحق بالطبيب المعالج الذي لم يغب عن ناظرها بعد، وفي نهاية الرواق لحقت به وقامت بتعريف نفسها، فرحّب بها ودعاها لتشریف مكتبه والسماح باحتساء مشروب ما، وافقت وجلست ثم أشعلت لفافة تبغ بعد أن سمح لها بذلك محرّجاً، ثم استأذنها بالذهاب لمتابعة أمر ما بعد أن أتت إليه إحدى الممرضات مُبلغاه بالأمر، بعدها بدقائق أخذت (داليا) معطفاً طبيياً من مكتب الطبيب قبل أن ترتديه وتخرج به، بينما ما زال كل من (سيف) و(شاهر) يتحدثان، و(هبة) ما زالت جالسة، شاردة كالمنوم مغناطيسياً، لم تنتبه إلى (داليا) ودخولها الغرفة المحرم عليها وعلى الكثيرين دخولها،

(17)

كانت الساعة تعدت العاشرة حين هم (غلو ش) بتجرع ما بالكوب الزجاجي من ماء، والذي تطوحت (كارول) مسرعة بأمساكه ومساعدته في تجرعه.

- إني جائع.. جائع كمن لم يذق الطعام لأعوام.

- أويديك كلبية، فمرّ ما يزيد عن السبع ساعات قضيناها في القراءة والحديث متناسيين موعد الإفطار والدواء.. لكم أشفق عليك مما لحق بك على يد الصديق ومحاسبيه!

- أتمنى أن أحظى بجزءٍ من شفقتك والسماح لي بتناول إفطار أحبه.

- أتقصد طلب البارحة؟

فنظر لها كطفل يتوسّل أمه، ثم أوماً برأسه، فردت موافقة ليصيح راسماً صليب على وجهه بأيدي مرتعشة:

- هالليولويا..

- ولكنها فطيرة واحدة صغيرة، ولا تتعشم أن تأكلها مرة أخرى قريباً، ولحين نضوجها سأحممك.

- لك ذلك سيدتي الجميلة.. فبفطيرة التفاح التي تصنعينها أصبح أنا «شارلي»، بينما أنتِ تصبحين «ويلي وونكا»، وأنا لا أقدر على شيء سوى السمع والطاعة.

فردت بابتسامة اعتادها شارلي قصتنا هذا، بينما تركته لتجهيز الإفطار. طحين، تفاح وعنب مجففين، وعصير تفاح مركز والكثير من مسحوق القرفة التي يُحبا رائحتها النفاذة، وما هي إلا دقائق معدودات وقد أتمت صنع فطيرتين صغيرتي الحجم، وقد زينتهما بالمزيد من العنب المجفف ثم ذهبت لتحميمه، بينما الفطائر بالفرن.

ملأت المغطس بماء دافئ، وأضافت زيتاً عطرياً مستخلص من ورق أشجار الليمون، وأخذت في تنظيفه الذي طالما أشفقت عليه بعد أن لاحظت أنه قد قام مسبقاً بمحو الأوشام التي وشم بها في معسكرات الاعتقال.

- أيمكننا تناول الإفطار في غرفة المكتب؟

فنظرت له غير مستوعبة سؤاله، فهو الذي يمقت عدم التنظيم؛ فغرفة المكتب هدفها القراءة أو الكتابة ودخول الأطعمة إليها من المحرمات.

- دعينا نكسر بعض القواعد، فالقليل من كسرها لا يضر.

فأدخلته إلى غرفة المكتب بعد تجفيف جسده وإلباسه ملابس نظيفة، ثم سمعا صوتاً ما، فهتف:

- إنه الناقد يعلن وجوب الموعد.. من مزايا التكنولوجيا أنها صنعت أفراناً بمؤقت.

- نعم.. فبدونه تحترق الفطائر ونحن نتحدث.

قالتها وذهبت لإحضار الفطيرتين الفائحتين برائحتي القرفة والتفاح، بينما (غلوش) جالسٌ مرددٌ كلمة «الناقوس» بصوت خافت.

- ها هي الفطائر.

دخلت حاملة صحفة تحمل الفطيرتين، وكوبين من عصير البرتقال الطازج.

- ردًا على تساؤلك بخصوص تناولنا الإفطار هنا، أردت أن أجلس وسط كل هذا الكم من الأرواح الخالدة، خوفًا من ألا ألتقي بهم مرة أخرى، أعوام وأعوام استغرقتها في مصادقتهم، ستجدين كل ما كُتب في الطب والفلسفة وعلم النفس حتى نهاية القرن العشرين، وأعمال أدبية من كل أنحاء العالم لميغيل دي سيرفانتس، وهربرت جورج ويلز، وأجاثا كريستي، وهانز كرستيان اندرسن، ونجيب محفوظ، ولورانس داريل، وإرنست هيمنجواي، وخوسيه سارماغو. كل هؤلاء فشلت في أن أحظى بكوني صديقًا لهم، فطالما نجحت في أن أكون صديقًا للكثيرين بينما لم يكن لي أي صديق، وهأنذا نادمتُ على إني لم أفعل.

- ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، ولكني أيضًا أشك في كونك بلا صديق طوال سنوات عمرك.

- ولأن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فعلى المرء أن يطمح بما يزيد عن مبتغاه حتى يحقق الحد الأدنى مما يتمناه. ولكنني علمت ذلك بعدما فات الأوان.

- أويديك فيما تقول، ولكني أراك تعبت من الحديث، لمَ لا نكمل حديثنا بعد قليل بينما نتناول الفطائر؟

- الآن أنا أويديك بشدة.

فضحكا بينما يأكلان، أو بينما تقوم (كارول) بتقطيع الطعام وهرسبه قبل وضعه بفمه مُسهلة المهمة على أسنانه الصناعية أخذ يأكل وهو يتلمظ مستنذًا بالطعم الذي شبَّ وشابَّ عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(غلوشكو كاسبرسكي) رجلٌ مجهولٌ الهوية بالنسبة إلى من يعرفونه في الوقت الحالي، كل ما هو معلوم عنه أنه من موالييد جمهورية بيلاروسيا السوفيتية الاشتراكية عام 1885م، يشاع أنه كان يعمل كمساعد طبيب تشريح بمشقى عام في مسقط رأسه مما أعطاه خبرة لا بأس بها في علوم الإنسان والطب عمومًا.

أما حقيقته المخبأة في أقبية الاتحاد السوفيتي فقط، تتلخص في أن يأتي الحاكم ليحكم دولة ما، يُقتل الحاكم - لأنه لا يموت- ثم يخلفه حاكمًا آخر يجلس على نفس العرش ويتقلد بذات الإكليل، فالعرش والإكليل من الثوابت في قصر الحاكم.. وكذلك المدعو (غلوشكو كاسبرسكي)، فإن افترضنا أن قوة الحاكم الجسدية أو العقلية هي بمثابة السيف فغلوشكو هو الدرع، والعكس صحيح.

بدأت تظهر أهميته في السنوات الأخيرة من حكم (فياتشيسلاف ميخائيلوفيتش مولوتوف)، وامتدت حتى الحرب العالمية الثانية تحت راية حكم القيصر الأحمر فكان هو ملاك الرحمة لهذا الحاكم، وكان مسؤولًا عن إراحته حين يشعر بالتعب أو الإرهاق من أي معارض أو حتى ذبابة.

المأجور.. هو (غلوشكو).. هو من كان يشنق ضباط النازية بأوتار «الكونترباس» على أعمدة الإنارة في شوارع ألمانيا.. هو من كان يحقن معارضي الشيوعية الروس بين أصابع أرجلهم بالبئسليين.. هو برومتيوس القرن العشرين، بعد أن تم إيداعه بمعسكر أوشفيتز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما غلوش نائماً تردّد ذلك الصوت في عقله:

- أيا غلوش.. فلتع لما يسمعه عقلك، إياك وأن تصادق الصديق فهو يقحم نفسه صديقاً للجميع بينم لن يكون له صديق.. أيا غلوش.. فلتع لما يسمعه عقلك، لم يتسبب (مردخاي) في حادثك عن عمد، ولكن فعلته تلك حدثت نتيجة لرهبته، فأحياناً ما يضطر المرء لفعل ما لا يحب لمن يحب حين يوضع نصلاً مواجهاً لعنقه.

ولكنه غاب في حلم آخر، استعرض فيه ذكرى لقائه بفاتنته (بروسكولياكوففا) التي دربته على استخدام بنادق القنص بواسطة بندقيتها الشخصية، ونجح في قنص الأهداف على مسافة تتراوح بين الثمانمائة، والألف متر، علمته أيضاً القنص بالسكين على أهداف مرنة وأخرى صلبة، ثابتة ومتحركة، وقد أثبت جدارته في اجتياز جميع الاختبارات في زمنٍ قياسيٍّ.

وكأي قصة تقليدية، وقعت البطلية في حب البطل، تبادلنا نظرات الإعجاب واختلست الأيدي بعض اللمسات، فطبعت الشفاه أول قبلة فريدة تتابعت لها التواعم، لتصبح كختم يُقر ويشهد على حبهما.

وافق أبوها على مضض متأففاً كأي أبٍ يتمنى الزوج الأفضل لابنته، والذي لن يأتي.

- أتدري يا غلوش..

ناوله كأس من الفودكا المخفوقة ثم أكمل:

- ما الذي دفعني الى الموافقة عليك كزوج لابنتي؟!.. كاسراً كل القواعد والنواميس؛ فمن الجنون أن يوافق رجلٌ بمركزي الاجتماعي ومكانتي في الجيش الروسي بأن تتزوج ابنته من مجرد قاتل مأجور.

فتجرع كأسه دفعة واحدة وهم بإعادة ملئه وهو يكمل حديثه مع شخصٍ لا يجيب:

- مما لا شك فيه أنك تعلم أن سجلاتك القذرة سيتم محوها وكأنها لم تكن، لكنني أؤكد لك الآن.. إنه أن تحقق انتصارنا سينسى العالم أجمع ما كان عليه (غلوشكو كاسبرسكي) القاتل، ليحل محله آخر.. ضابط بالجيش الأقوى والأمهر في العالم.. ستغدو مناضلاً، وحينها فقط تكون جديراً بزواجك من ابنتي.

فرداً أخيراً:

- أؤكد لك أنني سأعمل جاهداً من أجل استحقاقها، وأنني...

فقاطعه:

- إني أمقت الانتظار، ولا أثق بوعدك ولا أثق بشخصك، ولكني وافقت مجبراً تنفيذاً لرغبات ابنتي، وحتى لا يشاع أنني أفف حائلاً بينها وبين ما تريد، والآن موعد خروجك، فزوجتك بانتظارك.

قال جملته الأخيرة وهو يزيح درفتي الباب في مجراتهما محدثين صريراً، قتله صوت الموسيقى الممزوج بصوت إيديث بياف من الخارج، مع الضحكات وقرعات الكؤوس وطرقعات زجاجات الشمبانيا، توجه الحبيب غير مبالٍ بكلام حماه ولسانه السليط إلى حبيبته التي اقتربت بدورها ليصبحا كقطبي مغناطيس التحما في عناق لحظة التقائهما وقبلتهما التي أعلنتهما حبيبين أمام الجميع.

- أحبك يا غلوش.

- لن أردد الكلمات لتعلمي بحبي لك.. فنحن في غنى عن الكلمات.

- سأنتظرك.

- وأنا سأنتظر رجوعي إليك.

- أتعدني بأنك ستعود من أجلي؟

- بل أعاهدك على ذلك..

قالها وهو يطبع قبلة رقيقة على يدها وأكمل:

- تغلبت على الكثيرين بإنهائي لحيواتهم.. وهي خبرات لا تأثير لها في تغيير ما ينتظرنا من أخطار، ولكنها تعني أنني قادر على الحركة بإيقاع أسرع، وأن أثق في نفسي ثقة عمياء، وأنا أشارك في شق طريقنا نحو الانتصار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(18)

كانت الحروب في الماضي تتدلع من أجل قطعة أرض، أو امرأة سُرقت من زوجها، أو بسبب اغتيال المعارضين لأصحاب الشأن المعارض لهم؛ ولكن في الربع الثاني من القرن العشرين اختلفت الأمور تمامًا لنجد الوقود الأساسي لاندلاع الحروب هو: المعلومة.

لعبت إدارات الجاسوسية في شتى الدول دورها في تنمية المعلومات، وإعطاء المعلومة ثقل و ثمن.

وفي مصر قام بعض رجال الأعمال باستثمار أموالهم، وسبائك الذهب التي يملكون في جمع المعلومات. عن طريق بناء خوادم عملاقة لجمع المعلومات المدخلة في تطبيقات الهواتف المحمول بدءًا من: السن والطول والوزن، إلى المفضل من الأغاني ومقاطع الموسيقى، وقوائم الطعام والمطاعم المفضلة، وغيره الكثير؛ ليجد المستخدم إعلانًا عن شيءٍ للبيع كان يفكر في شرائه منذ بضع دقائق.

استغرق إنشاء قاعدة البيانات هذي ما يزيد عن الثلاث سنوات، بعدها أخضعت لوصاية الحكومة المصرية لئلا يخرج الأمر عن السيطرة، وهو ما حدث مستقبلاً في الولايات المتحدة الأمريكية بتسريب (مارك زوكيربرج) بيانات المستخدمين من أجل دعم (دونالد ترامب)، وأصبح الولوج إليها لا يتم إلا عن طريق أشخاص معدودين مشهود لهم بالنزاهة، ولا يعرف أحدهم الآخر.

كيلومترات من الأسلاك النحاسية وبضعة كيلوجرامات من الذهب والباليدوم والمئات من ألواح الطاقة الشمسية استخدمت لإنشاء هذا المشروع والخادم الضخم الذي أطلق عليه اسم: الشجرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نزل (رفعت) من بيته وفضل أن يترك سيارته ويستقل سيارة أجرة إلى محطة القطار الذي ستستمر رحلته لما يزيد عن الخمس ساعات، تعالت خلالها أصوات شخير لأشخاص ناموا كالجثث غير واعيين بما حولهم، وصوت أطفال يبكون أو يلهون.

وبعد قيام القطار بفترة قصيرة مرَّ بجانبه عامل البوفيه الذي يبدو متأنقًا بملابسه الرخيصة، قدّم له كوب من القهوة سريعة التحضير، ثم رحل فورَ ما رآه يضع سماعات الجوال بداخل أذنيه.

غاب عن الواقع وصخب الأطفال وبكائهم بعد أن بصق ما رشفه من القهوة «سيئة» التحضير بالكوب الورقي، لتذهب الموسيقى إلى سبات لم يستيق منه إلا قبل أن يبلغ وجهته بنصف ساعة.

ترجّل من القطار، ولكنه ظن أنه أخطأ في محطته، فقد اعتاد أن يشاهد جدارية الفسيفساء التي تُشكّل صورة ضخمة لمصطفى لطفى المنفلوطي، والتي لم يرها هذه المرة، ولكن بعد السؤال تأكد بأنه لم يخطئ.

استقل وسيلة مواصلات العصر.. «التوكتوك» بعد أن غادر محطة القطار، لفت انتباهه السائق - والذي من المؤكد أنه يلفت انتباه كل من يراه- بما يرتديه من نظارة شمسية بعدسات كالمرايا خضراء اللون رغم أن الشمس قد غابت، وقبعة رياضية اهترأت أطرافها من الأمام كاشفة عن اللوح

البلاستيكي المُفوّس بداخلها، والمطبوع عليها علامة تجارية مُقلّدة اشتهرت بشعار «افعلها وحسب»، ولكن ما هي إلا دقائق حتى اعتادت عيناه على ما يراه من تناقضات، حتى وصل إلى وجهته.

ظنّ أنه في عالم آخر حين رأى مخلوقاتٍ تبدو كالأطفال، مصطفين بنظام بداخل جلابيبهم التي كانت الفذارة أحد سماتها الأساسية، خمسة أطفال متجاورون يليهم خمسة آخرون، يمسك كل منهم بعصا مسنّنة صُنعت من جرائد سعف النخيل، وبجانب كل طفل كلب بئس كل ذنبه أنه خضع لما يبدو عليه طفل الواقف بجواره متأهبًا للتسابق، فبعد قليل تبدأ الإشارة ببدء السباق الذي ينقصه تشغيل البعض من أغاني «الأندر جراوند»، ثم يرفع كل طفل - أو ما يبدو عليه أنه طفل - جلابيه كاشفًا عن نصف سفلي بدون أي ملابس داخلية بغير استحياء ثم يمتطي الكلب منتظرًا طلاقة البدء، ولكن طلاقة البدء تختلف، وهي عبارة عن ساق معدني عُرس في بطن عقرب سام ولكنه بئس يتم القائه بالنار، وعند احتراقه.. ينفجر السم منه محدثًا دويًا يشير ببدء السباق، ثم يغرس كل طفل طرف العصا المسنن بشرج الكلب الذي يحمله، والذي لا يجد أي مفرٍ إلا بالجري ظنًا منه بأنه قد يهرب من ذلك الخازوق.

وهو ما زال واقفًا مشاهدًا ما يحدث ظنًا منه أن ذلك لم يكن إلا حلمًا وسوف يستيقظ منه ليجد نفسه ما زال في القطار، حتى غاب المتسابقون وضحاياهم عن أنظاره مخلفين سحابة كثيفة من الغبار.

- حمدًا لله على السلامة يا باشا..

نظر لمصدر الصوت ليجد شخصًا ضخم البنيان كسور الفاتيكان.

- أهلاً.. كيف حالك يا خير؟

- خير، تملي بخير يا باشا.

- يبدو أنك بخير بالفعل لدرجة أنك أصبحت تنظم الشعر!! أين غريب؟

- على السطح كعادته.. قلّ إنك آتٍ من أجله.

- وهل يصح أن أكذب وأقول إنني أتيت لأني أفتقدك؟!

- أهو موجود.. اطلع له.

فتوجّه إلى مدخل المنزل الطيني ذي الفناء التراب، واشتم رائحة روث الماشية المنبعثة من الحظيرة الكائنة بجوار سلّم طينيّ ضيق، صعده بدرجاته ذات الارتقاعات المتفاوتة. وصل إلى قمة المنزل فرأى من يدعى (غريب) ممددًا جسده على أريكة خشبية بجزع عار، ويحجب الضوء المحيط عن عينيه بمعصم يده اليسرى، فانتبه لوجوده وقام مرحبًا بالضيف ثم دخلًا إلى حجرته.. الحجرة الوحيدة على سطح المنزل والتي بُنيت خصيصًا من أجله وتم تزويدها ببعض أجهزة الحواسب الآلية مُحمل عليها العديد من برامج القرصنة، وأربع شاشات ضخمة متراسة لتكوين صورة أضخم لقوائم بيانية فعالة، معلق على حوائط الحجرة العديد من ألواح الكتابة بيضاء اللون تحمل رسوم كروكية مبهمة، ومعادلات برموز مبهمة أيضًا أو أن اليد التي كتبتها سريعًا هي ما جعلها مبهمة، وهواء بارد منبعث من جهاز المكيف يملأ الغرفة هدفه الحفاظ على برودة تلك الأجهزة.

- الأمور بالنسبة لي على خير ما يرام، حتى وإن كنت تودّ أن أخترق موقع البيت الأبيض نفسه..
- ليس لدرجة البيت الأبيض يا ظريف.. الأمر أسهل مما تتخيل.
- ثم أخذ نفسًا من لفافة تبغ أشعلها مسبقًا وأكمل:
- الشجرة..
- فاستفسر متعجبنا رافعًا حاجبيه من كثرة ذهوله:
- الشجرة التي هي... الشجرة!!
- هي بعينها..
- ماذا بها؟
- سندفع قردًا ليتسلقها.. أو بمعنى أصح سننبت له فرعًا بعينه ليتسلقه.
- يا صلاة النبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في حياتنا فنون كثيرة، ولكن الفنانون قلة؛ فمن غير المنطقي أن تُطلق لفظة فنان على أصحاب المهارات فحسب؛ فالرسم فن، والعزف فن، وصناعة الطعام فن، والقتل فن، والحرب أيضًا فن، والخداع أرقى أنواع الفن. ولكن الفنان، هو فقط من يتقن في كل ما يصنع، وكل عملٍ يعمله ينجح فيه.

في مشهد تكرر مئات المرات على مدار الثلاث سنوات المنقضية، في مشهد روتيني يبدأ بدخوله من بوابة مديرية الأمن، وتحيات عسكرية وسلامات وعناقات بدت أكثر من المعتاد، إلى أن دخل أخيرًا إلى غرفة مكتبه وعلق معطفه الصوفي الذي يقيه عضات برد الشتاء على مشجب خشبي اكتسى بلون بني داكن، ومن ثم جلس إلى مكتبه ليحتسي برميل القهوة الأمريكية الذي طال انتظاره، والمُعدّ سلفًا بعد العلم بموعد وصوله.

- فضلت عدم طرُق الباب ومفاجئتك مثلما فاجئنتني برجوعك.
- يا نهار أبيض.. حضرتك في غنى عن طرُق الباب يا افندم.
- قالها فورَ قيامه من على كرسيه كمن مسّه ذنبٌ عقرب، وتوجّه إلى (سيف) الذي عانقه قائلاً:
- الحمد لله على سلامتكَ يا ابني.
- سيف باشا.. أنا أسف لو كنت...
- إياك أن تتأسف يا أبله.. فأنت ابني..
- ذاك الحوار القصير الذي تم بين (رفعت) و(سيف) والذي قطعه طرقات الباب.

- ادخل.

قالها (رفعت) فدخل (شاهر) وعلى وجهه ابتسامة صفراء حين مصافحته لـ (رفعت) بينما خرج (سيف) لتركهما سوياً، وذهابه إلى مكتبه.

- ما الأمر يا شاهر؟! ولمّ السكوت والضحكة الصفراء التي تعلو وجهك.. هل أنت متضايق من رجوعي؟

- العفو يا افندم.. والحمد لله على سلامتك.. كل ما في الأمر أنني لا أعرف من أين أبدأ.

- ما الأمر.. والدتك ووالدك بخير؟.. هل تمر بضائقة مالية؟!

- الحمد لله بخير وكله تمام، وبالتأكيد إن كنت في حاجة لأي شيء لن أتردد أن ألبأ لك.. الموضوع يتعلق بـ..

ثم صمت هنيهة ليحثه الآخر على الحديث:

- بماذا؟ تكلم إذا بدون مقدماتٍ حتى لا تخرجني عن شعوري..

- الأمر يتعلق بك أنت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(19)

إن الحلم ليس فقط استباقًا لما قد يحدث في المستقبل، ولكنه ناتج عن نشاطات اللاوعي.(7)

يقف العاشق بجزع عار، في صبيحة ليلة حب تكررت مرارًا ومرارًا؛ أمام مرآة تفوقه في الطول، وضع الصابون الرغوي على وجهه وقام بتوزيعه ومسك موسي الحلاقة تاهبًا لتغيير ملمس وجهه.

يقف متابعًا لقدم محبوبته من خلفه بخطوات ناعمة كجسدها، في ثوب أبيض شفاف يفضح جسدها شفافة مرتفعًا على ردفين طويلين مرميين مدملجين، اشتم شذى عطرها وأحس بأنفاسها تلمح جسده كلهيب نار لذيذة.

أدار عنقه إليها ليقبلها، فانغرس موسي الحلاقة في رقبته محدثًا جرحًا قطعياً عميقًا بدون أي دماء تسيل عنه، ولكنه عندما أدار عنقه مرة أخرى لمحبوبته لم يجدها، فنظر مرة أخرى في المرآة فهاله ما رآه، رأى صورتها تتحرك مبتعدة في حين أن قدميها لم تتحركا، صرخ باسمها فلم تجب، فاستمر بالصراخ بصوت غير مسموع حتى اختفت تمامًا.

انتبه لغرابة الجرح وعلم السبب وراء عدم سيلان الدماء من الجرح، حين نظر إليه رآه عميق، يبدو تحته طبقة أخرى من الجلد وكان وجهه الحالي لم يكن إلا قناع يرتديه، قام بتوسيع الجرح بواسطة الموسي فتأكد من ظنه؛ فأخذ يشد ويمزق ذلك القناع وصراخه يتعالى ويزداد كصرخ طفل رضيع تركته أمه، ولكن أيضًا صراخه لم ينتج عنه أي صوت، مازال يمزق القناع ويترك أجزاءه الممزقة تتساقط فتصنع كومة بين قدميه، وأخيرًا تراءى له الوجه المخبأ أسفل القناع.

آخر وجه في الوجود قد يود أن يراه، صراع بداخله.. فخلال ثوان معدودة فكر بحز عنقه بالموسي اعتراضًا على استحواذ صاحب هذا الوجه لجسده، ولكنه تيقن بأنه بذلك قد ينهي حياته وعزف عن ذلك في الوقت المناسب؛ فأحيانًا ما يوضع المرء أمام خياران.. إما الاحتلال أو الموت، ولو اختار الموت يكون أنهى كل شيء، ولكن عندما يختار الاحتلال -مخيرًا كان أو مسيرًا- يكون أمامه بعض الفرص من أجل الاستقلال والانتقام. يصرخ عقله بالتفكير دون الوصول إلى حل، وتصرخ حنجرته بلا صوت فلا يعينه أحد. حتى استقر على اختياره، الرضا بالاحتلال، الموافقة على أن يحتل (الصديق) جسده على أمل أن يأتي يوم الاستقلال؛ خارت قواه فشعر أنه يغيب عن الوعي تاركًا الواقع ذهابًا إلى عالم آخر، غير عالمًا أنه بفقدان وعيه في هذا العالم قد يعود إلى الواقع، ولكنه الآن يدرك الصوت الآتي إليه: «أيا غلوش»... أهو صوت محبوبته التي تركها ورحل؟ يا ليت يكون صوتها لتساعده بعقلها في حل معضلته التي وضع فيها عنوة، ولكنه صوت آخر.. صوت (أباجيل).

ففتح عيناه وكان قد نسي حلمه تمامًا.. ولكن (أباجيل) دُعرت حين رآته يستيقظ، فقد كانت تتبع نفس أسلوب الصديق في زرع الأفكار بداخل عقل (غلوش)، ولكن على عكس هدف الصديق؛ فكانت تعمل على تصحيح الصور في عقل غلوش ومساعدته لمعرفة عدوه الحقيقي والذي كان أقرب الناس إليها.. الصديق.

في ذلك الوقت كان مرتبكاً، ممزق النفس ومنقسماً كأنما يعبر فوق هاوية، وعقله منقسم نصفان؛ فنصف في عالم أوشويتز ونفسه التي لحقت بها المخاطر وأودت بوسامته فأصبح مشوه الوجه بعين وحيدة، ونصف آخر في روسيا مع حبيبته التي لم يخطر جمالها له على بال في واقع أو حلم، وتساؤله «أهل سيتغير حبها له نتيجة ما لحق به من تشوهات وهي التي طالما أشادت بوسامته وملاحه وجهه». فيعلم أخيراً بأن عقله كاملاً ما زال هنا في «أوشويتز».. فالزمن الخارجي مُقصى، وهو هنا يشيد زمنه الخاص... الزمن المنسوج من الألم والمهانة والإذلال... الزمن الواقف حارساً على عتبة المعسكرات.

في موقع آخر داخل أوشويتز يجلس (جوزيف مندل) في قدس الأقداس، شارداً أمام أكبر شيء مبهم قابله في حياته، فقد قابل الكثير من الألباز التي قام بحلها بكل نجاح، وألغازاً آخر فشل في حلها ولكن محاولاته قد سبرت أغوارها وأرضت فضوله إلى حد ما.

أكواماً وأكوام من الأفكار تتكدس بداخل عقله العاجز عن تفسير أكبر لغز قابله «عقل الصديق».. فأى عقل قادر على التنبؤ بما في عقول الآخرين وقراءة أفكارهم!! لو قام بسؤال أحد زملائه من أطباء المعسكر لأتهمه بالخبال، فقرر ان يحتفظ بخباله لنفسه ولا يشرك غيره في ذلك الأمر وأن يعمل جاهداً على تفسير أحجية عقل الصديق.

أخذ التفكير يوماً بأن يقوم بالتجربة على نفسه، فتذكر ذات يوم دعى (الصديق) ليحتسب قهوتها ويلعبا الشطرنج سوياً، فكان الرابع هو (الصديق) ولكن هذا لا يؤكد قدرته على قراءة الأفكار، فمن الممكن ان يلعب (جوزيف) أمام شخص آخر ويخسر أيضاً؛ فقام (جوزيف) من مجلسه وهو ممسك بكوب قهوته وعزم على أن يقف بخلف (الصديق) ويقوم بسكب القهوة عليه، وكأنها سكبت بدون قصدٍ منه.

- حاذر أن تسكب القهوة عليّ، فهي مازالت ساخنة جداً..

رد (الصديق) بتلك الجملة التي كانت كالصفعة على وجه (جوزيف)، دلو من ماء وتلج سكب على رأسه فأيقظه من نوم عميق لن يحظى بمثله مرة أخرى.

حينها دخل (الصديق) ملقياً تحيته اليه، فخر مذعوراً كأنه رأى الشيطان؛ فربما يكون (الصديق) هو الشيطان ذاته، فتجارب الاثنان على البشر تنحصر في اكتشاف كافة وظائف الأعضاء المكونة لجسم الإنسان وتجربة دمج أعضاء دخيلة على الجسد، ودراسة مدى تأثيرها سلباً أو إيجاباً.

ولكن للصديق تجاربه الخاصة على المعتقلين، تنحصر في عمله على تقليص الأعضاء ودراسة التأثيرات الناتجة عن ذلك كتقصير طول الأمعاء، واستئصال فصوص الرئتين حتى تعمل كل رئة بفص واحد، أو تقليل نسبة الدماء في الجسد بواسطة سحبها، ومن ثم دراسة تأثير ذلك على بقية الأعضاء يومياً، وتدوين يوم ووقت الوفاة، والذي غالباً لا يتجاوز السبعة أيام.



(20)

ما بين الشك واليقين غشاء دقيق لا يُرى سواء بالعين المجردة أو بأي مجهر، وهو نفسه الغشاء الذي يحجب الأشياء عن أضعادها. بينما تراه العين متحدة أو مندمجة، كلوحة مرسومة يصعب إحلال مكوناتها الى صورها الأولية.

- والعمل يا شاهر.. لبيتك ما افصحت لي عما رأيت، ولكني مُستغرب.. فما الدافع لدخولها حجرتي بالمستشفى وهي حريصة أن لا يراها أحد!!

فصمتا بلا إجابة و(شاهر) أخذه التفكير؛ فعندما رأى (داليا) وهي متسللة الى غرفة (رفعت) بالمستشفى، ساورته الشكوك بأنها قد تفعل به مكروهاً، فتسائل «ماذا يعود على داليا من مصلحة في أي ضرر قد يلحق برفعت حتى وإن كان هذا الضرر قتله، وإن كان لها مصلحة بذلك فهي ليس بهذا الغباء الذي يجعلها تقوم بفعلتها هذه في وجود احتمالية -حتى وإن كانت ضعيفة- بأن يراها أحدهم»، وهو ما حدث عندما رآها هو، وإن افترض بأنها لم تكن تفعل له أي مكروه؛ فلماذا دخلت غرفته متسللة!؟

فقطع (شاهر) حالة الصمت:

- هناك حلقة مفقودة، ولن أكف إلى أن أجدها..

- دعك من الأمر هذا في الوقت الحالي، هو بالفعل مُقلق ولكن انتبه من التلميح عما رأيت له لأي شخص آخر نظراً لأن علاقتها بسيف باشا أصبحت شبه رسمية، ثم أننا ما صدقنا أن تتحسن صحته بعد انتكاسة السكري الأخيرة، وإن تأكدنا من أي شيء وملكنا الأدلة على اثباته دعني أنا من يقوم بابلاغه بنفسى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مر يومان قبل ان يتخذ (شاهر) قراره في قص ما حدث الى (سيف الزيني)، غير عابىء بأي توبيخ أو سخرية من الممكن أن تلحق به؛ فمن الصعب أن يصدق (سيف) في الحين ذاته الذي رفض عقل (رفعت) فيه مصادقة ما حكاها، وكانت الإجابة:..... صمت أيضاً لم يقدر (سيف) بالدفاع عن حبيبته أو اتهام (شاهر) بالكذب؛ فأى سبب يدفعها لأذيتة - رفعت-!! أهو سبب خلافهم التافه في مسرح الجريمة، أم شيء آخر لا يعلمه غير الله!؟.

تساؤلات عديدها طرحها (سيف) داخل عقله مستعيناً بحسه الأمني، وعادته في طرح الأسئلة منتظر أجوبتها، التي غالباً لا تُجاب.. أسر الصمت ونسيان الأمر مؤقتاً؛ فحبيبته هي حبيبته رغم الشكوك ولم يفلح عقله في حس قلبه على كرهاها، وصندوقه الأسود في كامل صحته وقد تحسنت نفسيته، أو مات ضميره بخصوص ما حدث، أما عن العم (فرج) فقد قام بفتح محل لبيع مستلزمات المنازل، المصنوعة من البلاستيك، أعانه على فتحه ما حصل عليه من مال كمكافأة لنهاية خدمته بالداخلية بعد قرار إحالته للمعاش بسن مبكر، ومبلغ آخر خصصه له (رفعت) شهرياً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يستطع (سيف) الصبر أكثر من ساعات معدودة، وقد قرر الذهاب إلى إدارة البحث الجنائي لمواجهة (داليا) بما سمعه، فاتخذ طريقه متوجهاً إليها والأفكار تعصف بذهنه، تطرح العديد من التساؤلات تبدأ بكلمة «لماذا»، وفي مكتب (داليا) اعتاد زملائها على وجوده كونهى زوجها المستقبلي، والذي من المحتمل بأن يكون سبباً في انجابها لأطفال، يشغلونها مؤقتاً أو أبداً عنهم.

هم بلف مقبض بابها فتذكر أول زيارة قام بها لها حينما شددت عليه أنه مسموح له بالدخول دون استئذان، أو بمعنى آخر أنه الوحيد المسموح له بذلك؛ حينها سمع صوت بالداخل.. شخص آخر معها، يتحدثان بمشادة كلامية، فظل ثابتاً ليسترق السمع حتى تأكد من صاحب الصوت بالداخل.

- من سمح لك بالقيام بذلك في هذا الوقت تحديداً؟ هل جُنت؟! لولا أن شاهر هو من رآك لُكنت تحاكمين الآن ولكن علاقتك بسيف هي من حالت دون حدوث ذلك، ثم ألم تنتهي لوجود...

فوجئاً بفتح الباب وحلول (سيف) محله، فوقفا كمن مسهم تيار كهربى قبل أن يبدأ حديثه كقاضٍ ينطق بالحكم بالإعدام على أحدهم.

- رفعت.. كل تساؤلاتك التي جئت من أجل وجود حلولٍ لها سأجيبك عليها، فإذهب الآن.

- ولكن يا فندم..

فزفر طويلاً ليكرر بصوت عالٍ:

- قلت لك سأجيبك وأوضح لك كل شيء.. هذا وعدٌ منى.

فذهب طائعاً دون أي رد.

- في الوقت الحالي.. ألسنا اثنان يُحبان بعضهم بعضاً أم أن الحب من طرفي أنا فقط؟..

قالها (سيف) من بعد رحيل (رفعت)، بعد صمت تام كسره بجملته التي زرعت الخوف والقلق في قلبها، فقد ظنت أن هذه اللحظة هي لحظتهما الأخيرة معاً وهي التي ربطت حياتها بوجوده.

- انا الآن راهب، وهذا كرسي الاعتراف؛ فافصحي عما تخبئين.

ترقرقت عيناها بالدموع؛ فقد تذكرت شخصاً ما جلس أمامها في مجلس الاعتراف منذ ما يقرب الخمس سنوات، بينما قامت هي بتلقي الاعتراف.

- خُفت أن أفقدك..

- بمعنى؟!!

- أرجوك انس الأمر يا سيف، أقسم لك إنني لم أفعل ذلك سوى خوفاً من أن أفقدك.

فابتسم ساخراً مقتنعاً بأن هذه الدموع التي يرى لم تختلف عن دموع التماسيح. بكاء بارد بدون أي مشاعر أو عواطف، ثم زاد ضغطه عليها:

- ألم أقل لك إنني لست سيف!! اعترفي.. اعترفي لكي يغفر الله لك، ومن الممكن أن أغفر لك أيضاً.

فمسحت دموعها وتمخضت قبل أن تتطلق في الحديث دون أن يقاطعها حتى النهاية، كدمية بزنبرك.

- لقد ماتت أمي وأنا في عمر الأربع سنوات، ثم لحق بها أبي بعد أشهر معدودة ومن وقتها وأنا مكلمة حياتي ولكن من دون مشاعر؛ فلا أحببت أحداً ولا أحبني أحد، لأنني رغم صغر سني حينها لم أر الحب إلا فيهم ومنهم.

وأخذت تقص عليه الكثير عن حياتها مُدارية بعض أسرارها.. أحداث وأحداث، منها ما كان يعلمه من قبل ولم يقاطعها عند سماعه للمرة الثانية، ومنها ما يسمعه للمرة الأولى بأذان صاغية.

كان الحب متجسداً في شخص أبويها، أم جميلة مليحة الملامح، وأب لم يكن وسيماً بالقدر الكافي.. حبهما كان الزاد والزواد لجميعهم في فترة قصيرة ما بين وعيها كطفلة بما يدور حولها وبين موت أبويها.. كانت أمها تغني لها قبل النوم أغنية باللغة الانجليزية، وكان أبها سخياً في عطائه حتى آخر يوم رآته فيه، كان هذا يوم ممات أمها التي شاهدته وهي لم تستطع مساعدتها أو بأن تبكيها حين فارقت الحياة، في ذلك اليوم أتى إليها أبيها بدمية على شكل حيوان أليف ولكن الوقت لم يسعه لاهدائه لها.

حتى قالت جملتها الأخيرة:

- وبعدهما وجدتك خُفت أن يأخذك أحدهم مني، أصبحت أغار عليك حتى منه، وكالمُغيبية فعلت ما فعلت.

فتتهد وأخذ يطرق أصابعه الواحد تلو الآخر علامة على عصبيته، ثم أخرج قلم الأنسولين من جيب سترته.. ضبط الجرعة ووخذ نفسه.

- في الطبيعي ما قمتي بفعله يندرج تحت بند الشروع في القتل..

كادت أن تقاطعه ولكنه لم يسمح لها، واضعاً سبابته على شفتاها قائلاً:

- صه.. لقد قُلت ما عندك فلا تقاطعيني.. ينص القانون على أن عقوبة الشروع في القتل لا تقل عن عشر سنوات، ولكني سأخرجك منها نظراً لأنك إنسانة مُعقدة وفي حاجة للتأهيل النفسي، وأيضاً سأخرجك من حياتي بأكملها، لأن بطنك في الرجل الذي كان سيصبح زوجك بعد شهر أنه شاذ حتى ولو كان ظنك هذا بينك وبين نفسك فلا يشرفني اكمال حياتي معك.

تركها وذهب، وكأنه أخذ قلبها وعقلها معه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- صباح الخير يافندم..

- صباح النور يا رفعت، لقد طلبتك لتوضيح ما كان يجب أن أوضحه لك من أسبوع فات.

فتسائل رفعت:

- عن ماذا!؟..

- رفعت .. داليا بالفعل دخلت غرفتك بالمستشفى وبالفعل كانت تقصد ألا يراها أحد، ولكن شاهر فعل.

علت أمارات التعجب والدهشة على وجهه بينما استمر (سيف) في قص روايته:

- وطوال الأسبوع الفائت كنت أفكر في كيفية إيضاح الصورة لك كما وعدتك، ولكني لم أجد سوى أن أقص عليك ما حكته داليا صراحةً.

-

- رجوعك للوعي كان بسبب الحقنة التي حقنتك داليا بها.. فلتجلس أولاً، لم الوقوف!!

فجلس متشوقاً لما سيسمعه.

- انت بالطبع تعلم أن خبرتها في الطب ليست قليلة، بحكم دراستها وفترة عملها بالخارج.. أثناء فترة عملها اكتشف رئيسها عقاراً وظيفته تنشيط خلايا بعينها في المخ وانهاشها حتى وإن اقتربت من مرحلة الضمور، وتقوم هذه الخلايا بدورها في نقل اشارتها للقلب وبقية أعضاء الجسم؛ وبالرغم من قدرة العقار الفعالة فقد اكتُشِفَ أعراضاً جانبية له تؤثر بالسلب على بعض خلايا المخ الأخرى، ولذلك أصبح العقار محرم دولياً استخدامه على البشر أو الحيوانات حتى على سبيل التجربة.. وهذا ما دفعها لفعل الأمر في الخفاء، لأنه لولا ذلك لكانت شطبت من نقابة الأطباء وسُجنت من دون محاكمة إن أمكن.. أكنت تود أن تُسجن وهي السبب في رجوعك لي يا ابني!؟

- يا الله، إن بعض الظن إثم..

قالها (رفعت) متبَعاً:

- لا بالطبع، فداليا أخت لي و..

- رفعت..

قالها مقاطعاً.

- لقد انهيت علاقتي بها..

- !!!.....

لم يُدهش ولكنه سأل:

- وما هي الآثار السلبية للعقار؟

فحك (سيف) أرنية أنفه قبل أن يجيب:

- العقم.. بيسبب العقم.

- حسناً.. أمر العقم ليس له تأثير، فأنت تعلم حادثة هبة منذ سنوات وأني من المستحيل أن اقترن بغيرها، فلو كان انهاء علاقتكما لهذا الأمر فلا تقلق، وأنا من جهتي مسامحاً.

- لا يا رفعت.. علاقتنا انتهت بسبب شيء آخر.

- أيمكنني السؤال عن هذا الشيء؟

فابتسم قبل أن يجيب:

- النصيب.

كذب (سيف) للمرة الأولى بعدما اصطفى (رفعت) صندوقًا أسودًا له، وكان (رفعت) يشعر بأن ما حكاه (سيف) أقرب إلى المزحة، بينما لا يعلم (سيف) أن ما حكاه لم يكن كذبة بقدر أنه أقرب إلى الحقيقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(21)

من الممكن أن يقع الإنسان فريسة للخداع مرة أو مرتان، ولكن عندما يزيد الأمر عن هذا الحد قد يرفض عقله لا إرادياً تصديق أي أمر أو حدث، حتى وإن كان صحيحاً.

جالسان بعد يوم حافل بالتجارب يحتسيان كوبان من القهوة أثناء لعبهم للشطرنج، وكانت السماء أسدلت ستائرهما والشمس توارت خلفها. صمت، فهممات، ثم دندنة بنغمات أغنية كلاسيكية، وكان الصمت من نصيب مندل في هذه الجلسة بينما عقله يفكر بدون توقف.

- سأريحك.

قالها الصديق، ولكن بنبرة لا تبعث أي راحة في قلب سامعها.

- أنا أعرف فيم تفكر.. وأيضاً أنا في غنى عن أعلامك بأن أعرفك بعلمي فيما تفكر.. كثيرين من البشر صُممت عقولهم كالمكتبات؛ فإذا كانت المكتبة «العقل» عامة، يكون بإمكان أي شخص إستعارة أو إضافة أي كتاب «فكرة» في هذه المكتبة «هذا العقل». أما وإن كانت المكتبة خاصة، كقدس أقداسنا الذي شيدناه سوياً كمثال، صعب على أي شخص أياً كانت صفته أن يستعر أو يضيف أي كتاب من دون إذن شخصي من صاحب المكتبة «نحن».

وما زال (جوزيف مندل) عاجز عن الرد، أو ابداء أي رأي، حرك الصديق أحد البيادق خطوة واحدة، فأصبح هذا البيدق أول مكاسب (مندل) عن طريق الرُخ المتحرك في خط مستقيم نهايته موقع البيدق المنكوب؛ ولكن الرخ تنحى عن ساحة المعركة متيحاً نفس الموضع لواحد من أساقفة الصديق.

- خُنيق الملك.

- لم أعبأ الآن باللعبة فعقلي متأهب فقط لسماع بقية حديثك.

- عقلك فارغ أو مزدحم.. من الواضح أنه في حالة عجز تامة عن التفكير، وهذا ما توضحه لعبتك.. تريح بيدق وتضحى بالرُخ..

- هذا لأني لا أستطع التفكير.. أو لنقل أنني لم أستطع التحكم في عقلي - في وقتنا الحالي - فاني أشعر بعشرات الحفارات تعمل ثقوباً في قحف جمجمتي ولن تتوقف، فأرجو أن تكف عن تلغيز ما تريد قوله.

قالها وهو يمسح عن جبينه قطرات عرق لم تكن موجودة، بينما الصديق يرشف من قهوته، ثم بدأ في الحديث:

- بدأت القصة عندما كنت طفلاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حينها كان قد مرت أسابيع على حادثة المسبك، نسي فيها جسد (غلووش) الألم أو اعتاده، بعد أن تقشرت الحروق كاشفة عن أنسجة منكمشة، وتم نقله للعمل بالمطبخ لتجهيز الجرايات اليومية

للمساجين، بعد الحاح (أباجيل) على الصديق الذي لم يستطع أن يحيا دون أن يحقق اي حلم تحلم به، مما اضطره للحديث مع الجنرال (هاينريش هملر) شخصياً، والذي اعترض في البداية وكانت حجته «إن هؤلاء الأجساد لم يكونوا سياحاً نقوم نحن بترفيهم في بولندا، إنما مساجين. سبايا ملك خاص للنازية، وليس لأنفسهم»، ولكن الصديق اقنعه كاسراً قاعدة من قواعد الطبيعة.

(مردخاي) يتقدم تجاه (غلوش) مرتجفاً، وهو على يقين بأن هذه المقابلة ستحكي نهايته.

- غلوشكو كاسبرسكي الحبيب.

فاستدار له مليياً النداء.

- أنت!!

وهم بغرس سيخ معدني بعينه اليمنى ولكنه عزف عن ذلك وطرف السيخ يكاد يلامس قرنيته، فرآه وعيناه تدمعان.

- ماذا تريد بعدما فعلت؟ أجئت لتجهز علي؟.. أنا لا أتعجب، فكونك يهودي يكفي.

ابتسم في وجهه إبتسامة ساخرة:

- لم آت إليك لنتناقش فيما يخص الأديان، وإلا اعتبرتك كافراً بسبب شيوعيتك.

- إذن.. فلتتأكد بأنني كافراً بالفعل، ولتعلم أن الكافر ليس له إله يخشاه، فبإمكاني أن أبقر بطنك وأخنقك بأمعائك القدرة.

- افهم.. لم آت إليك لطلب السماح والصفح، على قدر ما أنا آتٍ لأقدم كفارة عن ما فعلت تجاهك.

حينها نفخ أحدهم البوق معلناً موعد تسلم جرياة الطعام.

- اغرب عن وجهي الآن..

انسحب (مردخاي) غير عالمًا بما يخبئه له القدر، وبأن عينه التي لم تُفقأ الآن أمر تم تأجيله وسيأتي لا محالة، أخذ جرابته وجلس جانباً وحيداً كجرذ خائف من أن تطأه الأقدام، إلى أن نُفخ البوق ثانية معلناً انتهاء وقت تناول الطعام، ووجوب موعد النوم.. أو الموت.

انتحى (غلوش) ب(مردخاي) جانباً قبل دخول كل منهما إلى عنبر النوم خاصته، منتظراً منه التحدث في الموضوع الذي جاء من أجله، فبدأ في قص موقف شاهده.

- قبل أن آت إليك كنت مع الصديق في ذلك المكان الذي يطلقون عليه قدس الأقداس أقوم ببعض أعمال التنظيف، وحين انتهيت وأعطاني الإذن بالإنصراف، جاءت إليه هذه الطبيبة أباجيل؛ فخرجت ولكنني استرقت السمع لحوارهم أملاً بأن يحيي في ذكرياتي شيء مع حبيبتي راشيل، ولكنني سمعت ما لم أكن اتوقعه.

بعد أن انتهى من قص ما سمعه ورآه متجسسًا، ساد الصمت لثوانٍ مرت كسنون أتت نهايتها بالسؤال:
- ومن أين لك التأكيد؟ فحديثهم قد يحمل أكثر من معنى.

- قد يحمل بالفعل معانٍ كثيرة، ولكن من دون ما سمعته البارحة.. كان الصديق يتحدث مع الطبيب الآخر في نفس الأمر.

فصمنا ثانية قبل أن يسأل (غلوش):

- أما زلت تعمل في المسبك؟

- نعم.. بجانب أعمال الترتيب والنظافة مع الصديق والطبيب الآخر هذا.

- إذن.. إذا كنت نادمًا بحق على ما فعلته وتريد التكفير عنه، فلتصغي إلي.. ولكن إياك أن تكرر خيانتك لي، فحينها لن يسعك العمر لمعرفة أي على علم بخيانتك.

- كلي آذان صاغية.

- سأقوم بصناعة نموذج من الخشب ما سوف أعطيك إياه بعد يومان.. عليك أن تصنع لي بمثل له من معدن البلاتين.

- بلاتين؟!!

- نعم.. وأنا سأوفر لك الكمية المطلوبة من البلاتين واعطيها لك مع النموذج الخشبي، وليس مطلوب منك إلا صهر الخام وصفه.

- الخام ليس معضلة يا رفيقي.. ولكن طريقة الانصهار.. فالأفران في المسبك تصهر النحاس كأكثر معدن في حاجة لدرجة عالية من الحرارة تؤدي لانصهاره، ومن الصعب ان لم يكن من المستحيل أن تنتج ذات الأفران درجة حرارة تسمح لمصهور البلاتين (8) بالغلجان، فالفارق بين درجة الحرارة المطلوبة لغلجان البلاتين تفوق درجة غلجان النحاس بأكثر من ألف درجة مئوية.

- تكفينا درجة حرارة تخضعه للانصهار وليس للغلجان وهو ما يقل عن الحد الأقصى لحرارة الأفران.

قالها (غلوش) وتعلو ما تبقى من وجهه ابتسامة وهو يشير بسبابته في وجه (مردخاي)، وأكمل:

- هذا وإن كان هذا الأمر عرضة للمناقشة.

مما زاد الخوف بقلب (مردخاي) الذي لم يكن بوسعها إلا الرد بـ:

- ليفعل الله ما يراه حسنًا.

فصفق (غلوش) كمعجب يقوم بتحية مشخصاتي بارع على أداءه.

- الآن أشعر بأهمية إلهك بالنسبة لك.. فلتصل له يا مردخاي وتقبل وجهه، وأطلب منه بألا يسمح للشيطان بحسك على خيانتني للمرة الثانية لأنها ستكون الأخيرة.

انتهت المقابلة وذهب كل منهم إلى عنبر النوم خاصته لاختلاس بعض الساعات يقضيها في النوم. لم يستطع (مردخاي) النوم سوى بعد ساعتان من الأرق، بينما (غلوش) لم ينام في هذه الليلة.

فحصت الأفكار برأسه مستدعية أهم الذكريات التي يحتاجها في وقت مثل هذا.. حبيبته بروسكوليا ومستقبلهما وعمًا سيلحق بتاريخه ليعرف كمناضل حرب بدلاً من كونه قاتلاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(22)

بعد انتهاء يوم آخر من العمل كان من المحتمل أن لا ينتهي، كان المطر لا يزال ينهمر منذ الصباح، وعلى طريق الدائري تجمّع الماء في برك عميقة حاولت جميع السيارات تفاديها من قبله، ولغزارة الأمطار لم يكن باستطاعته رؤية شيء خارج السيارة التي غطتها الأمطار المصحوبة بعاصفة عاتية كان من الممكن أن ترحزح سيارته جانبًا كما لو كان في مدينة ساحلية، لم تستطع مسّاحنا الزجاج إزالة الماء المنهمر من السماء بغزارة وبسرعة كبيرة، وهو ممسكٌ بعجلة القيادة بقوة كان بالكاد يرى الأضواء الخلفية الحمراء لسيارة أمامه حاول بكل جهده أن يتبعها.

على جانب الطريق لمح نجمة ثلاثية من النيون، تضيء أشعتها الطريق مخترقة قطرات الأمطار الشفافة المتساقطة، العلامة الشهيرة للسيارة الألمانية الصنع التي تجاوز عمرها المائة وعشرين عامًا، وفي لحظات أخذ قراره بالوقوف جانبًا، والتوجّه لمعرض السيارات التي لا زالت أضواؤه مضاءة مُعلنةً عدم انتهاء ساعات العمل بعد. ترجّل من سيارته محكمًا غلق معطفه الجلدي، وتوجه بخطوات حذرة ومحسوبة متجنب الوقوع في الماء الموحد كراقص باليه، صعد سبع درجات على السلم الجرانيتي قبل أن يفتح الباب أوتوماتيكيًا ليستقبله بعالم آخر يغلب عليه الدفء.

اقترب منه الموظف الوحيد المتواجد في هذا الوقت، رحّب به ودعاه للجلوس، ثم رفع سماعة الهاتف لطلب عامل البوفيه الذي تقدم مبتسمًا بوجه حليق وقدم التحية للضيف بانحناءة مهذبة، ثم ذهب لتلبية طلبه بينما الموظف يتحدث بطريقة احترافية شارحًا مزايا سيارات النجمة الثلاثية، وهو ممسك بكوب الشاي الأخضر الأيرلندي الذي تظهر علامته متدلّية خارج الكوب الذي لم يمه شربه بعد، وأشار لبعض صور الموديلات المختلفة على شاشة جهاز الـ iPad لمدة خمس دقائق أتى بعدها عامل البوفيه محضرًا فنجانًا من القهوة المجهزة على الطريقة التركية مع لمسة من مسحوق القرفة، الذي أشاد (سيف) بذوقه الرفيع، ثم تركهما وذهب.

- إلى هنا يصبح الرأي رأيك، على حسب حبك للسيارة «السيدان» أكثر أو السيارة ذات الدفع الرباعي.

- يا أستاذ أحمد..

كان قد لمح اسمه المحفور على الـ «Name Disk» الموضوع في مقدمة سطح المكتب.

- أنا لست من محبي رحلات السفاري والتوغل في الصحراء لأختار الدفع الرباعي.

ثم رشف كلٍ منهم من مشروبه.

- ولا أحب سيارات «الهاتش باك».. بيني وبينك أشعر أنها مخصصة للسيدات.

- بهذا لا يتبقى إلا «السيدان».. A- CLA- C- E- S..

نظر في ساعته التي أشارت للسادسة والرابع مساءً، وأكمل حديثه:

- هل لديك سائق أم ستقوم بقيادة السيارة بنفسك؟

- بنفسى؁ وتوفيراً لوقتكَ المُختلس من زبائن آخر الیوم؁ أنا لا أبحث عن سياره أتمظهر بها وأنا شارفت على الستین... أنا فقط فی حاجة لسيارة تُذهبنی وترجعنی وتحملنی كالمغلوبه على أمرها هذه..

قالها (سيف) مشيراً للخارج تجاه سيارته الخاملة؁ بعدما نظر الموظف مرة أخرى لساعته فی أقل من خمس دقائق.

- لا.. یا افندم العفو.. أنا تحت أمرك.

- عموماً تشرفت بك.. وإن شاء الله خلال أسبوع سأصل بك بعد وقوع القرعة..

- الشرف لي یا افندم.. هذا الكارت بأرقام تليفوناتي.. تحت أمرك فی أي وقت.

- شكراً لیک.. مع السلامة..

- مع السلامة.. فی رعاية الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان صباحاً منعشاً فی جو بدا خريفياً بعد انتهاء الأمطار؁ التي استمرت یومین وعادت الشمس تزاوّل عملها بعدما تحت السحب عن حبها.

عادت (داليا) بعد أن أنهت وقت الجري الصباحي إلى شقتها المؤلفة من أربع حجرات؁ شربت نصف كوب من عصير البرتقال الطازج وهي تهم بتصفح «الإنترنت» على هاتفها؁ لتجد مكالمه فائتة فعاودت الاتصال بذات الرقم.

- كيف حالك یا داليا؟

- مثل القطران..

- یا الله!! هل هذه صباح الخير التي من المفترض أن نقولها لبعضنا؟

- ومن أين يأتي الخير؟ ثلاثة شهور.. ثلاثة شهور مرت من دون أن يفكر أن نتقابل أو حتى يهاتفني.. ألم يكن بیننا أي ذكرى تستحق؟!

- ولكنه معذور یا داليا؁ وأي أحد بمكانه كان سیتصرف مثله؁ ومن الجيد أنه لم...

- لا يوجد أي شيء جيد على الإطلاق؁ ثم هل أنت معي أم معه!!

- معك بالطبع؁ ولكن...

- أرجوك جِدْ حلاً للأمر؁ وإلا سأقتله وينتهي الأمر؁ فهناك نار تستعر بداخلي.

- لن يُقتل أحدٌ یا مجنونة؁ لقد اتفقنا من البداية بأننا لن نقتل..

- إذاً فلنجد حل..

- حاضر.. فقط اهدئي واتركي الأمر لله ولي، سلام مؤقتًا؛ فقد أنهت زوجتي حمامها ومن الممكن أن نسمعنا.

- حسنًا.. سلام.

زفرت بعصبية، وأخذت في قضم أظافرها الواحد تلو الآخر، ثم أشعلت لفافة تبغ ولم تكذ تنهي نصفها حتى أطفأتها وأشعلت أخرى، ثم تركتها بالمنفضة ودخلت إلى حجرة نومها. فتحت الدولاب لتظهر أمامها خزينة معدنية ماركة أوشيدا، أدخلت الأرقام السرية 1201100584، فأومضت لوحة المفاتيح باللون الأخضر، فأدارت المقبض البلاستيكي وفتحت الخزانة التي لم يكن بداخلها سوى دفتر صغير وألبوم صور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله.

أتمّ (سيف) و(رفعت) صلاة العصر معًا، وقاما وطوى كل منهما سجادته الفارسية ذات النقوش متعددة الألوان.

- حرماً..

- جمعًا يا رفعت يا ابني إن شاء الله.. اجلس لا تذهب.

جلس (رفعت) صامتًا ما يقرب الخمس عشرة دقيقة تلى خلالها (سيف) سورة الواقعة سرًا تابعًا بدعاء «اللهم صنّ وجوهنا باليسار».

- اطلب لنا قهوة يا رفعت بعد إذنك.

ودون أن ينتظر الرد أمسك بمسبحته الزرقاء ذات التسعة وتسعين حبة التي تفوح برائحة الورد، هم (رفعت) برفع سماعة الهاتف وطلب الساعي، حينها لفت انتباهه بعض «الكاتالوجات» لموديلات مختلفة من السيارات على المكتب، فتصفحها حتى أتى الساعي بفنجاني القهوة ثم انصرف.

- ما رأيك؟

بدر ذلك السؤال من (سيف).

- قبل أيام مريت بفرعهم على طريق الدائري، ولقد عزمت أخيرًا على شراء سيارة جديدة، ولكنني في حيرة.

فردّ (رفعت) وكان قد أنهى تصفحه:

- من رأيي الـ C.

- حسنًا سأتوكل على الله وأعمل بنصيحتك، وإن لم تكن السيارة جيدة كفاية ستدفع ثمنها.

فضحك (رفعت) وقال:

- ما تأمر به مُجاب، وأنا مطمئن لأنني لا أحتكم على سعرها..
- فضحك (سيف) بدوره بينما (رفعت) توقف عن الضحك والحديث فجأة، كمن يودُّ قول شيء تردّد مراراً في مناقشته.
- ما لك سكّت فجأة؟! -
- صراحة.. دكتورة داليا.
- رفعت هذا أمرٌ منتهٍ..
- أشاح بوجهه تجاه النافذة مستغفراً وأكمل:
- وأرجو أن لا تتدخل فيه مرة أخرى.
- وأنا أرجو أن تسمعي.. بحق صلاتنا سوياً.
- فزفر (سيف) ثم استغفر ثانيةً، وقال بلهجة قاطعة:
- هات ما عندك، ولكن لا تنتظر أن يغير كلامك أي شيء.
- وأنا في غنى عن أي شيء إلا أن تسمعي، الآن هي قامت بفعل قد أغضبك لأنه تصرف خاطئ، أو بمعنى أصح أنت تراه تصرفاً خاطئاً.
- بكل المقاييس خطأ يا رفعت، ولتكفّ عن الدفاع عنها، ولو افترضنا أن تركي لها كان لأمر المستشفى فهذا لما به أذى لك ولي.
- لا يا أفندم بعد إذنك..
- قالها مقاطعاً.
- فعلها يندرج تحت بند الأذى إذا كان ذا تأثير، وحينها سيكون التأثير عليّ أنا... أنا لا أهتم إذا كانت النتيجة ستكون إصابتي بالعقم أم لا، فلم يكتب الله لي أو زوجتي نعمة البنون نتيجة حادث هبة.
- أنت لا ترى الصورة إلا من زاويتك..
- فرفع يده صائحاً:
- حسناً إذا.. أرني إياها من زاويتك، وإما تُقنعي أو أفنحك..
- فتهد (سيف) وترك مسبحته.
- اللهم طولك يا روح..
- حسناً.. لن أكثر من الزن طالما الأمر لا يخصني، ومن الواضح أن تركك لها كان لأمر آخر كقولك، ولكن اسمح لي بقول جملي الأخيرة قبل أن أذهب، وأعدك أنني لم أعد أتدخل مرة أخرى.

حينها سمح له (سيف) بالحديث على أمل بأنها المرة الأخيرة التي يتطرق فيها (رفعت) في الحديث بخصوص (داليا)، فكيف يقنعه بأنه قد عزم النية بأنه لا يجوز أن يكمل حياته مع إنسانة بهذه العقلية، وهذا الانحطاط الفكري رغم نشأتها. يعلم (سيف) أن رد فعله هذا رحيماً مقارنة بردّ فعل شخصٍ آخر تربي وترعرع في صعيد مصر.

شردّ في افكاره، وحين انتبه لكلامه وهو ينهي بجملته الأخيرة:

- إن ما بينكما حب وحياة ستكملانها سوياً، ودعك من رأيي أنا واسأل الله رأييه.. استخره.. فهذا الأمر يستحق الاستخارة.. اترك الأمر بيد الله، فيده كبيرة تساع الدنيا بأكملها.. أستأذنك الذهاب.

- تفضل.. واعلمي أولاً بأول عن المستجدات في قضية المعصرة.

حين أغلق (رفعت) الباب خلفه، ظلّ (سيف) جالساً وقد أمسك مسبحة مرة أخرى، وأخذ يفكر حتى اتخذ قراره، قراره هذا لم يكن بالرجوع إليها أو بغلق الموضوع إلى الأبد، ولكنه كان الاستخارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(23)

يومياً بعد الاستيقاظ يذهب كل مسجون لقضاء حاجته، ومن ثم يبدأ عذابه الذي لا ينتهي. صفوفاً و صفوف من البشر يمشون في ذات المسار يومياً كدُمى «ماريونيت» بدون إرادة، العديد من الأجساد التي فارقتها الحياة مترakمة في الأركان تتبعث منها رائحة الموت، غطتها طبقات من الثلوج المتساقطة على مر أيام، تأتي عليها شمس الصباح لتصهر الطبقة الخارجية فيصبح مظهرها مزجج، تماثيل حية وبشر أموات. فقط في معتقلات النازية.

نجح (غلوش) في التهرب من عمله اليومي، وكان قد أتم صنع النموذج الخشبي لـينتقى البلاتين فقط هو الشيء الناقص، ظل يبحث بعينه الوحيدة كفهـد يرصد طريدته، وأخيراً وجدها في معطفها الأبيض تتقدم إليه مبتسمة.

- غلوشكو.. كيف حالك؟

- حالي كما هو.. لم يتغير.

تعجبت من نظرتـه ونبرة صوته التهكمية فواصل هو:

- ما زلت سجيناً.

- وأنا لن أستطيع تحريرك.

- وإن كنت تستطيعين ذلك فلن تفعلي..

- أنا طبيبة، لم أستطع سوى مداواة ما أقدر عليه، ولولا...

قاطعها وقد ازداد صوته حدة وعلو:

- لولا ماذا!!!... سأكمل أنا، لولا الصديق لما تمكنت من نقلي إلى المطابخ؛ وهو ما يؤكد أنك تملكين الكثير.

صمتت هنيهة غير فاهمة ما يرمي إليه.

- ماذا تريد؟!!

فأجاب بصوت خافت:

- قدس الأقداس..

- وما دخلي به، فكما تعلم أنا مجرد طبيبة في الصليب الأحمر وليس في المعتقل.

- ولكن مكانتك في قلب الصديق ليست كمكانة أي طبيبة.

رفعت يدها لتصفعه، فعلقـت في الهواء قبل أن تهوى على وجهه عندما قبض عليها.

- أنا على علم بعلاقتك الخفية به، وأعلم لأي مدى حبكما.. من المؤكد أنه من حسن حظي ما زال
يحبك بسبب تحقيق طلبك بنقلي إلى المطابخ، وهو المستحيل.. أما الآن فعليك أن تثبتي مدى حبك له،
لأنه إن لم تقنعيه بنقلي للعمل معه ستكون حياته ثمناً مقابلاً لذلك.. فأيهما تختارين؟..

قال جملته الأخيرة بحركة تمثيلية قام فيها ببسط أذرعته منفرجة فوق كتفيه كمُصلٍ متضرع لإلهه،
وخطا ثلاث خطوات للخلف وما زالت عينه عليها، وهي صامتة غير مصدقة لما سمعته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- بحق الله أنت مخبول.

قالها (مردخاي) موبخاً صديقه الذي حكى له للتوّ عن فعلته الجنونية في تهديده لـ (أباجيل).

- من المؤكد أنك جُنِنت ما لم تكن مجنوناً بالفطرة يا عقل التيس، أيُّ بشرٍ أنت لتهددها!! وأنت على
يقين بما سيلحق بك إن علم الصديق بتهديدك لها.

لم يجب (غلوش) فأكمل (مُردخاي):

- هل تعتقد بأنني قصصت عليك ما سمعته حتى تذهب لتبتزها مهدداً، دَعك من هذا.. سنُقلُّ أنك فعلت
هذا من أجل الوصول إلى هدفك، ألم تجد طريقةً أخرى دون التهديد؟

حينها ردَّ (غلوش) بهدوء:

- كل فعل أفعله هو في الواقع خطوة أخطوها تجاه هدفي.. وسترى.

- أتمنى أن تعيش أنت حتى تحقق هذا الهدف.

فاقترب (غلوش) منه حتى كادت أنفاهما أن تتلامس قائلاً:

- أنصت.. لم تكن أباجيل مثل البقية في استغلال القوة أو النفوذ، أباجيل خافت مما هددتها به؟.. نعم،
ولكن لم يكن خوفها هذا سوى على الصديق يا عقل السلحفاة.

ولكن لم يكن (مردخاي) واثقاً من صحة كلام صديقه لهذه الدرجة؛ ففي مكانٍ آخر داخل أسوار
المعنقلات تتدلل (أباجيل) إلى (الصديق) تمهيداً، ولو كان (مُردخاي) يعلم بهذا الأمر لكان له رأيُّ
آخر.

- على قدر فرحي بحديثك معي، على قدر ما أنا حزين لأنك لم تأتِ إلي لطلب شيء ما..

قالها (الصديق) بينما (أباجيل) واقفة خلفه تداعب كتفيه وهو جالسٌ على أحد الكراسي.

- أباجيل.. أنا أعرف سبب مجيئك.

حينها التفتت إليه غير متفاجئة، ثم تقدمت وجلست على كرسي مقابله.

- عزيزي.. أنت تعلم بحبي لك وتعلم أيضاً بأنني لم أغضب منك، ولكن بسبب أفعالك المخالفة
لعقيدتنا، وضد تعاليم المسيح.

- أباجييل، فلنضع التعاليم جانبًا ولننتحدث عمّن أتيت من أجله.. الروسي ذو العين الواحدة.

لم تُفاجأ من علمه عن ما أتت من أجله؛ فهي تعلم ما لا يعلمه أحدٌ عنه، حتى وإن كان (جوزيف مندل) ذاته، تعلم بأنه قادر على قراءة أفكار الغير منذ طفولته نتيجة حادث أكسبته قدرات عقلية تبدو خارقة، ومنها قراءة أفكار الغير، وزرع الأفكار في عقول الآخرين، وغيرها.

- لم لا تعمل على إراحته من أجلي، وأنت تأتي به للعمل معك هنا بدلاً من مردخاي!!

- ولم؟

- لم من أجلي، أم لم قدس الأقداس؟

حينها قام من مجلسه ثم جثا على ركبتيه أمامها، واحتضن يدها اليمنى بكفيه من بعد تقبيلها.

- أنت تعلمين بأنني سأبلي مطلبك من دون أيّ اعتراض، وإن يوماً طلبتِ عينايا فلن أتأخر أو أبخل بهما عليك.

- لن أطلب شيئاً كهذا يوماً، ولن أقدر أن أراك تنزف ولو قطرة واحدة من دمايك؛ فهذي القطرة بالطبع أعلى من حياتي..

- وأنا أيضاً.. لم أستطع أن أصف لك لحظة واحدة من حياتي إن مسك أي سوء، لكم وددت أن نعود للعيش في ميونخ.. وحدنا.

- وما المانع؟ هيّا.. لنترك الحروب لآلهتها.

- لم يعد للعودة فائدة، وأنا الآن كالغارق حتى منتصفه في الوحل وأي حركة منه ستحفز غرقه للنهاية.. حبيبتي.. دعينا من هذه الأحاديث، إن كنتِ بمكاني، ما هو الشيء الذي يجعلك توافقين بأن يكون الروسي مساعداً لك دون سواه؟

فترددت قبل أن تجيب:

- بسبب خبرته الطبية، فهو قرأ عن الطب الكثير، وقد عمل لسنوات في مشرحة ملحقة بأكبر المشافي في موطنه.

ابتسم الصديق بابتسامة تعني السؤال بكلمة واحدة «فقط؟»، لتتهي أباجيل قائلة:

- هذا كل شيء.

قالتها وتوترها يزداد نتيجة تلك الابتسامة التي تفهم معناها جيداً، فهي تشعر، بل ومتأكدة من أنها لن تستطيع إخفاء أي أمرٍ عنه حتى وإن لم تبَّح به؛ فقدرات الصديق العقلية لم تكن بالأمر الجديد عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صبيحة أحد الأيام في مكانٍ آخر من العالم، كان الجو معتدلاً كما الربيع حيث الزهور المتفتحة تُعطر الهواء بروائح الياسمين والليلك واللافندر، الأحبة يتلاقون، والأطفال يلهون، والبعض يتنزه بحيوانه

الأليف ناعمين بالهدوء النفسي والسلام الداخلي. أما في أوشويتز، يُنفخ البوق معلناً بدء يوم جديد ذي صباح مظلم، يوم بلا تاريخ، فلا يعلم المساجين أي يوم في الأسبوع قد بدأ بعدما تشابهت الأيام ومُجَي التقويم من عقولهم، هواء ثقيل يحمل رائحة الموت الذي لا تغيب، البعض واقفون في طابورهم اليومي للذهاب لعملهم الإجباري ككل شيء في الأيام المتبقية في حياتهم، والبعض الآخر مصحوبين إلى الأفران لحرق أجسادهم وتحميص عظامهم وأسنانهم، والبقية في أبراجهم العاجية ناصبين طوطم لإله الحرب متعبدين إياه.

بينما (غلوшко كاسبرسكي) سائراً في طابوره أتى له المصير في صورة أحد الضباط، ناداه ثم قام بتقييده ومن ثم ساقه أمامه، حينها علم أن وقت نهايته قد حان وأنه مساق إلى الأفران بعدما وشتت به (أباجيل) لدى الصديق، وها هو سيتلقى عقابه عمّا قام به من تهديد وما علمه من أسرار عنهما، وما طمأنه إلى حدّ ما أنه لم يذكّر لـ (أباجيل) بعلمه بأسرار الصديق عن طريق (مُردخاي)، وأنه الآن بأمان وساعته لم تأت بعد.

ولكن شعوره بالاطمئنان عليه لم يدم طويلاً؛ فبعد دقيقتين وهو في طريقه إلى المجهول قابل (مردخاي) يسير في الاتجاه المعاكس له وعلى وجهه علامات البغض والكرهية، فتقلصت أمعاؤه خوفاً كشخص يُطارِد من أسدٍ جريح، ظنّ أنه غائبٌ عن الوعي أو يحلم، وأن كل ما به الآن بعيد عن الواقع. علم بأن كل ما بعقله من خوف وشكوك لا معنى له الآن، حين نبه الضابط المصاحب له بأنهم وصلاً إلى وجهتهم: قدس الأقداس.

انصرف الضابط بحركة من يد الصديق الذي قام عن كرسيه الهزاز، واضعاً على المنضدة قلماً فضياً وكتاباً صغير الحجم بغلافٍ جلديّ انتبه (غلوش) بأن الصديق كان يُدوّن به شيئاً ما عند دخوله.

- مرحباً...

قالها الصديق ومن دون انتظار ردّ أكمل حديثه بصوته الأَجَش:

- حدثتني الطبيبة أباجيل عنك وعن خبرتك في التشريح، طالبة مني نقلك للعمل معي هنا، ولكن لتعلم أن نقلك لن ينتج عنه أن تتعم بالترفيه أو الراحة، وهذا ما اضطرني للموافقة دون انتظار تصديق لورد هاينريش هملر.

أخذ الصديق يتحدث دون انتظار أي رد في المقابل عن العمل الذي من المفترض قيام (غلوش) به، ثم بدأ في توجيه بعض الأسئلة له عن كيفية تعقيم الأدوات الطبية وكيفية تطهير الجروح وإخاطتها، وبعض الأسئلة المتقدمة عن كيفية تحديد بعض الأماكن تُفتح في الجسد من أجل الوصول إلى عضو ما بسهولة، كالأمعاء، والكلي، والرئة، وغيرها.. وكيفية استخدام المباحص.

لم يُفاجأ الصديق من إجاباته الصحيحة المختصرة التي تكاد تكون أكاديمية، ثم أملى عليه بعض التعليمات بما يتوجب عليه عمله يومياً، مفيداً بأنه لن يعمل بأي عملٍ جانبيٍّ آخر كـ (مُردخاي) الذي كان يعمل في قدس الأقداس بجانب عمله في المسبك، حتى يفهم (غلوش) سبب غضب (مردخاي) حين رآه.

أثبت (غلوّش) جدارته وكفائته عملياً على مدار أيام معدودة من بعد اجتيازه الاختبار النظري كأبي متقدم لوظيفة، فأصبح مُفضلاً لدى الصديق؛ وذلك لم يكن بالأمر المألوف بالنسبة لكل من (أباجيل) و(مندل)، وهذا ما لم ينتبه (غلوّش) له، فقد كان يسعى بكل جهده تجاه هدفه النضالي تجاه وطنه.

ثم نجح على مدار أسبوعين من توفير الكمية المطلوبة من البلاتين لصناعة الخنجر، وهو ما أعطى إلى (مردخاي) مسبقاً النموذج الخشبي له، ناهيك عن زعر (مردخاي) عندما علم بمصدر البلاتين.

- بعض أدوات الجراحة أهملها الصديق ولم يعد يستخدمها، وأكاد أُجزم بأنه لن يحتاج إليها مستقبلاً.. فلم القلق؟!!

- أبعد كل ما علمت عنه تتساءل لم القلق؟!.. جُننت، مؤكد أنك جُننت..

- أنصت.. من يدخل معسكرات الألمان لن يخرج منه حيّاً ولن تخرج جثته إن مات أو قُتل داخل أسوارها، ولكن هذا الخنجر مع بعض الأشياء التي أعمل عليها ستكون مفتاح خروجنا؛ فمن يملك خنجراً قادراً على قتل شخص، ومن يملك سلاحاً نارياً قادراً على إبادة درزينة، ولكن من يملك المعلومات يكون في استطاعته إبادة أو إنقاذ الشعوب.. أيهما بإرادته، فلا تخف ولتثق بي كما فعل الصديق.

علت ملامح (مردخاي) علامات التعجب والذهول معتقداً بأن ما سمعه لم يكن صحيحاً، ولكن (غلوّش) أكمل مؤكداً صحة كلامه:

- نعم.. الصديق يثق بي، فقد اتخذني صديقاً له وحكى لي ما سمعته أنت من حديثه مع أباجيل هذي.

- حقاً!!!

- نعم.. وعندما سألته عن اسمه لم يتردد في الإجابة وإعلامي باسمه الحقيقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(24)

استقل (سيف) سيارته في رحلة تكاد تكون الأخيرة من أجل التعاقد على شراء سيارته الجديدة، وأجرى مكالمة هاتفية:

- صباح الخير أستاذ أحمد، معك سيف الزيني..

- أهلاً وسهلاً، صباح النور يا افندم.. تحت أمرك.

- الأمر لله، أنا في طريقي إليك لدفع مقدم السيارة الـC.. أردت أن أتأكد من وجودك أولاً.

- موجود يا افندم.. تشرفني في أي وقت.

- وهل يجب دفع القيمة نقدًا أم من الممكن بشيك مقبول الدفع؟

- أيُّ الأمرين مقبول.

- حسنًا.. بإذن الله سأصل خلال ربع ساعة.

- بسلام الله، في انتظارك..

- مع السلامة..

- مع السلامة.

مرت عشرون دقيقة، ثم رن هاتف الموظف المدعو (أحمد) مرة أخرى باتصال (سيف)، مخبرًا بأنه أمام خزينة الشركة في انتظاره لإجراء اللازم لتحرير الشيك، اعتذر (أحمد) لعملية قديمة في ضيافته مستأذناً بالذهاب، فردت بأنها ذاهبة لمتابعة صيانة سيارتها في مركز الخدمة.

قاما بإنهاء الإجراءات المتبعة دائمًا من توقيعات واستلام إيصال بالمبلغ المدفوع وعرض سعر بالسيارة، ومن ثم رجع (أحمد) لمكتبه بصحبة (سيف)، وخلال دقائق أتى عامل البوفيه مقدمًا ذات القهوة التركية الغنية المذاق للضيف الذي أعطاه مبلغًا سخية إكرامية له، وحين رجوع العامل وعلى وجهه ابتسامة رضا، قابل من كانت جالسة من دقائق قبلما يأتي (سيف)، وطلبت منه أن يأتي لها بقهوتها إلى مكتب (أحمد)، وحين بلوغها المكتب انتبهت لجلوس ضيفٍ مولياً ظهره تجاهها، وحين انتبهت لملابسه الأنيقة وشعر رأسه الأبيض الذي تتخلله شعيرات رمادية وسوداء كالممثل الأميركي جورج كلوني.. تأكدت أنه هو.

- سيف!

- داليا!

- كيف حالك؟

مدت يدها لمصافحته، ومدَّ يده بدوره ليقاطعهما (أحمد):

- حضرتك تعرف الدكتور!! أوَدَّ أن أعرفك أنها من أهم عملائنا.

لم يرد أيهما مما اضطره للانسحاب بطريقة دبلوماسية، وتركهما ليتحدثا بينما ينهي بعض الأمور المتعلقة بالعمل -حسب قوله- ، مما اضطر (سيف) لعدم القيام وتركها؛ ولكنه أيضًا لم يتكلم بل أخذ يحدق بها لدقائق حتى اجتازت هي حاجز الصمت.

- أستصدقني إن قلت لك إنها أحسن صدفة حدثت لي منذ رجوعي إلى مصر؟

هز رأسه من دون أن تتغير نظرة عينيه تجاهها، بينما أشعلت هي لفافة تبغ مواصلة حديثها:

- سيف.. سبق ونويت أن أحكي لك عن حياتي من قبلك، ولكنك لم تسمعني.

- لا أريد سماع شيء..

- يجب أن تسمع، واجبك أن تسمعني وحقك أيضًا.

قالتها والدموع تملأ عينيها، فلم يستطع أمامها سوى الانصات.

- قبل رجوعي بخمس سنوات تعرفت بطبيب فرنسي ونشأت بيننا علاقة بحبنا لبعضنا، أو لنقل أنني من أحببته دون حبه في المقابل، وبعد أن كُنَّا نخطط لزواجنا فوجئت بحبه لطبيب زميل آخر، ضبظتهما سوياً بالصدفة ورأيتهما بعيني.. متخيل القرف؟

فرشف من قهوته وعلى وجهه ابتسامة صفراء.

- نعم.. متخيل ولكن هل كانت الفترة التي تربيته وتعلمت وعملت فيها في الخارج فشلت في تغيير طريقة تفكيرك للأحسن، وأنه ليس من شأن ما إن ينطبق على بقية المحيطين بك؟! فنتخيلين أن كل الرجال مثل...

قاطعته:

- أتفق معك في كل ما تقول وما ستقول، ولكن ما لم تعرفه أنني خضعت للعلاج النفسي لسنوات.

- ويا ليته كان بفائدة.

- سيف ألم تخطئ من قبل في حق أحدهم ثم تطلب منه مسامحتك! لماذا تستكثر أن تسامحني؟

- لأنك لم تخطئي في حقي بمفردي.

- أنا حين قررت أن أبحث عن العلاج بحثت عن طبيبة.. سيدة.. كنت أخاف من الاحتكاك بأي رجل ثم أقع في الحب مرة أخرى وأصدم مرة أخرى، كما لو كنت أشعر أننا سننقابل يوماً ما.

- وكان من الممكن أن تحبي معالجتك، أو أي أنثى أخرى وبذلك تردين الضربة لكل الرجال السيئين.

حينها قامت من مجلسها فجأة وهي تردُّ بصوت عالٍ نبه المحيطين بهم إليهم:

- كيف لعقلك أن يُصور لك أنني من الممكن أن أقوم بفعل كهذا!!

لم تزل ذات الابتسامة الصفراء تزيّن وجهه، ويده تمسك بمعصمها لتجلس مرة أخرى.

- مثلما صور لك عقلك أن ترينا في هذه الصورة.. أرأيت أن الاتهام عن جهل يوجع؟

- معك كل الحق ولذلك أعترت لك وأعترت لرفعت إن كنت تريد، فرضاك هو الأهم.

- عمومًا لا الوقت ولا المكان مناسبان للتحدث في شيء كهذا.

- فمتى إذًا؟

- اتركي الأمر لله.

- سيف.. لا تهاودني كطفلة.

- قلت لك اتركي الأمر لله، فإله يده كبيرة تساع الدنيا بأكملها..

- حسنًا.. سأهاتفك.

أمسكت علبة السجائر لتضعها بشنطة يدها وتغادر، ولكنه بادرها:

- انتظري، سأذهب أنا...

غادر دون انتظار أي رد، وخرج من الباب الأمامي الذي دخل منه قبل أيام وهو لا يعلم أن القرار

الذي سيقوم به بعد أيام لن يتراجع فيه، وهذا بغير إرادة منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين ينتصر القلب على العقل ويعلو صوته، ينصاع صاحبه لما يمليه القلب عليه، حتى وإن كان من أعتى الوحوش.

أخذ يفكر طويلًا بعدما ذهب إلى مكتبه، ليس في كيفية رجوعه لـ (داليا) بعدما حدث، ولكن في وقع الأمر على المحيطين به ورفعت على وجه الخصوص، فقد حاول مرارًا وتكرارًا لعب دور حماسة السلام ولكنه أبى الانصياع له، حتى لا يُفتضح سر «سيادة اللواء» بحبه لفتاة تصغره بما يقرب للعشرين عامًا.

أتاه (رفعت) بصحبة (شاهر) لتقديم بعض التقارير، ومن بعد انتهائهما قام باعلامهم بأمر تعاقدته على سيارته الجديدة، ومن بعد شربهم للعصير نخب السيارة الجديدة، هما بالانصراف ولكنه طلب من (رفعت) أن يبقى للتحدث في عدة أمور أو بمعنى آخر، أمر واحد.

- لقد قابلت داليا اليوم.

ففرح لما سمعه تَوًا وإن كان غير متفاجئ، ثم سأل:

- الله أكبر.. وعلام اتفقتما؟

- لا شيء.. لقد تقابلنا صدفة.

- صدفة!! متى وأين؟ ولكن مهلاً.. اسمح لي بسؤال، ومن بعد الإجابة احك لي ما حدث تفصيلاً.. هل استخرت؟

فردَّ إيجاباً، ومن ثم قصَّ عليه حوارَه معها مع تهميش ما كان يجهره (رفعت) من حقائق، ورغم معارضته ظاهرياً لفكرة الرجوع إليها، فهو يتمنى أن يلح (رفعت) عليه بأمر الرجوع مستخدماً حجة تبدو مقنعة.

- إذًا فأين المشكلة؟ فقد استخرت الله ثم قابلتها صدفة، أكنت تنتظر علامات أكثر من ذلك؟

فرح (سيف) بداخله ولكنَّ أيًّا من معالم الفرح لم تُحرك ملامحه، فقد جاءت الحجة المقنعة سريعاً ولكنه فضل أن يسأل أولاً:

- ماذا تقصد؟

- أقصد إن مقابلتكما لم تكن صدفة، ولكن بتدبير من الله الذي يريدك أن تعطيهما فرصة لإثبات حسن نيتها، أرجو أن تسامحها أو لتتقابلا مرة أخرى ودع لقلبك حرية القرار.

- ربنا يسهل يا رفعت.. سأهاتفها لنحدد موعد.

خرج (رفعت) فرحاً بنجاحه، فأجرى (سيف) سريعاً مكالمة هاتفية إلى (داليا) لتحديد موعد عالمًا بانستيائه لها.

وفي الجانب الآخر تحوّل لون أنف (داليا) الى اللون الوردي والدموع تنهمر من عينيها فرحاً، وبعدها أنهت المكالمة تلقت رسالة نصية من رقم مسجل كانت قد تلقت منه اتصالاً قبل يومين وهددته بقتل (سيف)، وكان نص الرسالة من كلمة واحدة «مبروك».

الحب هو صك الغفران الذي يمنحه الحبيب لحبيبه، وبه يتناسى أي أفعال أو أقوال من شأنها أن تضير بعلاقتهم، ليصبح الصك وسيلة يغتسلان بها ليبيضا أكثر من الثلج. وما فعله (سيف) هو منح الصك لحبيبه، غير عالم بأن غالباً ما يخطئ المرء ويمنح الصك لشخص غير جدير به؛ ولكنه لم يعطها إلا بعدما ارتأى له بأنها مستحقة، من بعد اجتيازها لاختباراته العديدة له، ليعلن صراحةً حبه لها، للمرة الثانية.. والأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترجل (رفعت) من سيارته في الموعد المعتاد، وصعد الى شقته مروراً بالعم (رزق) الجالس في صحبة ابنه (خير) ذي الجسد الضخم الذي يبلغ من الوزن أطناناً.

- مساء الخير يا عم رزق.. كيف حالك يا خير؟

ردَّ عليه كل منهما ثم صعد إلى شقته، دخلها على ضوء هاتفه الجوال بعدما وجد كل الأضواء مطفأة والشقة غارقة في صمت تامٍّ رغم يقينه من وجود زوجته بالداخل، وبعدها بحث عنها وجدها نائمة على غير عاداتها أن تتم في مثل هذا الوقت، فهمَّ بإيقاظها لينتبه لأنها لم تكن نائمة بالفعل، وقد هاله رؤيته لها باكية.

لم يسألها عن سبب تظاهرها بالنوم أو عن سبب بكائها، فقط عانقها لتستند برأسها فوق موضع قلبه الذي خفق بشدة إشفاقاً عليها، أيضاً لم يقل أي شيء إلى أن أطمئن أنها هدأت بالفعل وتوقفت عن البكاء، حينها سألها عن السبب وكان ردها أنه بسبب عجزها عن الإنجاب؛ فردَّ قائلاً:

- يا بلهاء.. كان من الممكن أن يكون المانع مني، حينها ستشعرين براحة إن وجدتي نائماً أبكي القدر؟

- بعد الشر عنك.. كل ما هنالك أنني لا أعرف كيف أرضيك في حين أنك لم تُقصر معي يوماً.

- أولاً من قال لك إنني غير راضٍ؟ ثانياً كل ما أفعله وأنا أحاول ألا أقصر تجاهك، وهذا لأنني أحبك يا بلهاء.

- إذاً فلتعدني بأمر..

- لو الأمر يتعلق بمصاريف البيت فانسني، فزيادة الراتب السنوية متبقي عليها شهر.

ابتسم في وجهها فابتسمت بدورها كاشفة عن صفيين من أسنان ناصعة البياض كما لو كانت قدت من اللؤلؤ.

- إياك أن تخني يا رفعت إن كنت بالفعل تحبني.

حينها عبس فجأة بعدما سمع ما لم يتوقعه.

- كيف؟ ولم؟ وكيف صور لك عقلك بأنني من الممكن أن أفعل هذا؟

- سأقول لك ولكن عدني أنك لن تغضب.

صمتت هنيهة وأكملت:

- عجزني.. عجزني يا رفعت الذي سيدفعك للبحث عن غيري.

- علام يا ربي تعاقبني بحب واحدة بلهاء إلى هذه الدرجة!!

- بلهاء!!

- نعم بلهاء فقد قلتها من قليل ومجنونة أيضاً.. يا حبيبتي هل من يخون يفعل ذلك لأن زوجته غير قادرة على الإنجاب فقط؟!.. سكت بالطبع.

- ما أقصده أنني أبارك زواجك من أخرى إن أحببت، ولكن لا تخني.

- حسناً.. انظري إلي.. سأرد عليك بجملتين، وأرجو ألا نتطرق للحديث في هذا الأمر مرة أخرى وإلا سأتزوج من ثلاث مع الحفاظ عليك..

فضحكت..

- أمر الأطفال من الممكن أن يُحل بتبنيها لبنت أو ولد، والشرع لا يمنع ذلك، ولكن فكرة خيانتك لك أو زوجي بأخرى لن يحدث، وهذا لعلمي من قبل زواجنا أننا لن نستطيع الإنجاب.. وأقول أننا بدلاً من أنك، لأن الله كتبنا لبعضنا وربط حياتنا سوياً، ولم يختار أحدنا الآخر، وأنني لم أتزوجك بغرض التدجين والتفريخ، ولكن لأنني أحبك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(25)

صبيحة يوم جديد من أيام معسكرات الإعتقال السرمدية، المزيد من الجثث المكدسة في الطرقات، وسيارات بصناديق مكشوفة تحمل جثثاً أخر، ومع حركة السيارات تتقافز الأجساد ليتزأى للواقفين والسائرين على أقدامهم ذراع أو قدم أحدهم، رأس إحداهن، وكلها نخرها الموت متمثلاً في النوم، تحملهم السيارات الى مصيرهم المحتوم ليكدسوا مع المزيد من الجثث في حفرة كبيرة.. عميقة كالجحيم.

وبينما السيارات في طريقها، حضرت سيارة تقل الجنرال (هاينريش هملر) وبصحبته بعض الضباط الآخرين، من بعد عطلة قضاها كل منهم مع زوجته وأطفاله، غامراً إياهم بالحب وحنان الأبوة، ثم يرجع مرة أخرى لقتل المزيد من المعتقلين غير المستحقين للحياة.

في هذه الأثناء كان (مردخاي) قد انتهى من صب الشيء المطلوب من البلاتين وأحضره إلى (غلوش)، لم يكن في صورته الكاملة كأبي خنجر تام الصنع، فقد علت أسطحه بعض البخبات الرملية تحتاج لصقله بعناية، ومن ثم تركيب مقبضٍ له وشحذ حديه وصنع كنانة يُغمَد بها، وهذا ما تطلب من (غلوش) الكثير من الوقت لإتمام تلك الأعمال من دون ملاحظة أحد لذلك، وهذا ما أخذ يفكر فيه وهو في طريقه إلى قدس الأقداس، ليفاجأ حين دخوله من بعد طرقة الباب وسماح الصديق له بالدخول بوجود (أباجيل) وعيناها دامعتان.. اعتذر وهم بالانصراف ولكن الصديق أمره بالبقاء والجلوس لسماع الحديث الدائر بينهما. بدأ عقله يومض ببعض الكلمات من حديث الصديق مع (أباجيل): هملر، غضب، موافقة، تخطي، صلاحيات، مبارزة، مردخاي، وغلوشكو.

وبعدما ربط هذه الكلمات التي سمعها بالألمانية فهمَ بأن أحد جنرالات النازية والمدعو (هملر) غضب غضباً شديداً لعدم انتظار الصديق موافقته على نقل (غلوشكو) للعمل بقدس الأقداس، متخطياً إياه بفعل ما هو خارج صلاحياته، ونتيجة لذلك أمر بعمل مبارزة قتالية بالأيدي ما بين (غلوشكو) و(مردخاي) الذي وقع الاختيار عليه لقربه في ذلك الوقت كعمل ترفيهي، وليكتمل الترفيه توجب قتل أحدهما للأخر.

حينها فقط علم (غلوش) سبب بكاء (أباجيل)، ثم جلس للاستماع والمشاركة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أحد الأفنية تم تحديد دائرة بقطر خمسة أمتار لتكون حلبة القتال، مثل حلبات مصارعة السومو وإن زاد قطرها وعدم وجود (غيوجي)(9)، فالحكام من الضباط والجنرالات تراصت كراسيهم خارج حدود الحلبة في صفين يتوراى أحدهم خلف الآخر وكل صف مكون من خمسة كراس، يتوسط الصف الأول الجنرال (هاينريش هملر) وعلى يمينه كل من (أباجيل) والصديق، وعلى يساره كل من (جوزيف مندل) و(كارل كلوبرج)، أما الصف الخلفي جلس به بعض الضباط من ذوي الشأن ليحظوا ببعض الرفاهية كالتى يحظون بها عند مشاهدة مباراة للمصارعة بين الديكة أو الفئران.

لم يكن حينها تم التعاون بعد مع كلٍ من (دافيد فرانزوني) و(رايدل سكوت) لإخراج تحفتها(10)، مما قطع عن (هملر) الإيحاء بالإتيان ببعض الأسود لزيادة ضراوة القتال. تم تحديد الحلبة بدائرة من

مواد قابلة للاشتعال تم إضرار النار بها فور بدأ القتال، وفرشت الحلبة بمسحوق الجير الحي، ليلقي المقاتلان أبشع العذابات حينما تعرّقت أجسادهما ويسقطا أرضاً.

نفخ أحدهما صافرة البدء وبدأ المقاتلان في التوجه إلى منتصف الحلبة، بادر (مُردخاي) صديقه بصفعة على وجهه كادت أن تتسبب في فقاً عينه المتبقية، ليرجع (غلوش) للخلف قليلاً من أثر الضربة ثم يعود موجهاً ركلة أصابت أمعاء (مُردخاي)؛ فلكمة أخرى يتقادها الأخير بقبضه لذراع (غلوش) وقام بحركة خفيفة جعلته يئنُّ من الألم الواقع على مفصل ذراعه الأيمن حين قام (مُردخاي) بمحاولة ثني المفصل الرابط بين العضد والمعصم في اتجاه معاكس، الضغط والألم يتزايدان، وحين خفَّ الضغط ازداد الألم أضعافاً من بعد طرقة العظام نتيجة خلع المعصم عن العضد.

«لملاحقة عدوك بنجاح ليس من الضروري أن تزيد من حدة هجماتك، إذا ما استطعت تعزيز دفاعاتك ودفع العدو نحو الإصابة بالإرهاق؛ فإنك تستطيع أن تغيّر وضعك الخاص، وتنتقل من موقع الدونية إلى التفوق».

كحبيسٍ في قبوٍ لم يتردّد في عقله سوى صوت (بروسكوليا) حين كانت تقوم بتدريبه على القتال.

«إذا ما تقدمت إلى ساحة المعركة قبل العدو واعترضت تقدمه فسوف تتمكن من القتال برباطة جأش، أما إن حدث العكس ووصلت إلى ساحة المعركة وكان العدو قد سبقك إليها فستكون مجبراً على خوض معركة صعبة، لذا إن كنت حاذقاً في ساحة المعركة فلن تنجر وراء استراتيجيات العدو ومناورته».

ولكن العكس هو الذي حدث، لم يتوقع (غلوش) بأن يكون (مُردخاي) بهذه المهارة في القتال، فقد أدرك ذلك بأول ضربة، وبأول إصابة ناهيك عن حروق أماكن متفرقة في جسديهما العاريين نتيجة التصاق الجير بها.

«اتخذ موقعاً لك في نقطة تناسبك وانتظر قدوم عدوك من البعيد، كن مرتاحاً تماماً وانتظر أن يصاب العدو بالتعب، كل حتى الشبع وانتظر أن يتضور العدو جوعاً».

مضت الفكرة كالبرق في رأسه حين تذكر الجملة الأخيرة ومطابقتها على ما كان يفعله دائماً لتضليل مطارديه ومهاجمتهم في الوقت الذي يسمح فيه عددهم بذلك.

«فلتسمع صوتك من الشرق وتهاجم من الغرب».

تنص قواعد المبارزة على أنه يتوجب على أحدهما قتل الآخر، ولكن إذا نجح المقاتل في الهروب من قبضة غريمه والخروج مجتازاً دائرة النيران يصبح الأخير في حكم الميت، ويتم رميه بالرصاص..

لوهلة ظنَّ (مُردخاي) بأن (غلوش) يهّم بالفرار حين لمح مقرباً من حدود الدائرة جهة الكراسي المتراسة.

«على الرغم من أن كلمة «انتظر» تتطوي على شيء من التكاثر، فهذا لا يعني أنه يجدر بك أن تنتظر وقوع الكنز بين يديك أو هبوط معجزة ما من السماء، بل إن هذه الاستراتيجية تتطلب تغذية فاعلة لحماسك كي تضرب عدوك دون أن تخطئه وأن تحافظ على قوتك الخاصة وتصونها، وتنتظر

إصابة العدو بالتعب في حين تعمل على تقوية مخزونك الخاص وتدعيمه، من ثم انتهر لحظة يظهر الإرهاق فيها على عدوك وتقدم برباطة جأش وحقق النصر عليه».

حينها أخذ في الاقتراب منه سريعاً لعله يتمكن من منعه من الخروج، إلى أن تقلصت المسافة بينهما لأقل من نصف متر، وحينها التف (غلوش) بجسده وغيّر اتجاهه وكاد (مُردخاي) أن يسقط في دائرة النار، لم يكن (مُردخاي) على قدر عالٍ من الذكاء كما كان (غلوش)، مما جعله يصدق ذات الخدعة خمس مرات حتى أنهكت قواه غير واضحٍ في اعتباره بأنه بإمكانه الهروب وإنهاء المعركة لصالحه.

اقترب (غلوش) حين تأكد من جوع عدوّه وافتقاره للقوى اللازمة لمقاومته، وبادره بضربة غرس بها ركبته اليمنى بوسط عضلة الفخذ الأيمن متعددة الرؤوس لـ (مُردخاي) الذي شعر بالشلل يسري في رجله بأكملها قبل أن يتكرر ذات الشعور في الرّجل اليسرى التي تلقت ضربة مماثلة للأولى، وتوالت الضربات في مناطق محددة قامت بشل حركته كلية. سقط جسده المتعرق على الأرض الجيرية ووجهه للأسفل، وامتطاه (غلوش) ودفع رأسه للخلف بواسطة معصمه الأيسر.

لم يستطع (مُردخاي) المقاومة ولم يحاول بعدما أصيب بشلل في معظم عضلات جسده والحروق في أغلبه، وبين تصفيق المعتقلين والجنود وهممات أصحاب العشرة كراسٍ أتى إليه صوت (بروسكوليا) بجملة أخيرة موضحاً:

«تختص هذه الاستراتيجية بالضرورة باتخاذ المبادرة في المعركة من خلال إرهاق الخصم».

اختفى صوتها وحلّ محلّه صوتٌ آخر، صوت الصديق الذي لم يتبينه (غلوش) جيداً وسط الهتافات لأن الصوت كان بداخل عقله الذي تسلل الصديق إليه لزرع أفكاره به، ولكنه شعر بالخوف والقلق منه وهو يأمره بفعل واحد: «اقتله.. اقتله»، لم ينصع لهذا الأمر بينما ما زال ذراعه مطوّقاً لرقبة (مُردخاي) والزبد الساقط من فمه يسيل عليه، ثم أفلته فجأة عندما سمع صوت صراخ، فالتفت تجاه الصوت وكانت (أباجيل) هي الصارخة محتضنة الصديق وهي تبكي وتقوم بمسح دماء أنفه النازفة، بينما هو يغيب عن الوعي جزئياً نتيجة محاولته للولوج إلى عقل (غلوش) الذي أضنته.

حتى (هملر) وجه انتباهه للصديق وحاول بدون جدوى تهدئة (أباجيل) ومنعها من البكاء، وبينما العساكر يقتادون المعتقلين إلى عنابرهم. اصطحب الصديق كل من (هملر) و(أباجيل) و(مندل) إلى قدس الأقداس، وأراحوه على سريريه و (أباجيل) ما تزال تمسح الدماء السائلة من أنفه، بعدها بقليل رحل الجنرال والطبيب ولم يتبقى سوى (أباجيل)، بعدما اطمئنوا من توقف النزيف، رفضت (أباجيل) الانصراف حتى بعد نوم الصديق، أراحت جسدها على كرسي هزاز بجواره وأمسكت من على المنضدة كتاباً صغيراً بحجم كف اليد مغلفاً بغلاف جلدي لم تتم دباغته بشكل سليم ألصقت في صفحته الثالثة الصورة الوحيدة المتبقية التي تجمعها مع والديها وأخويها باللونين الأبيض والأسود، ظلت ما يقرب إلى الساعتين محدقة بشرود في الصورة حتى قطع شرودها صوتٌ مبوح قائلاً:

- غلوش.

لم يكن سوى صوت الصديق.. اقتربت منه وأمسكت بحنانٍ كف يده اليمنى كما يفعل معها دائماً، فكرر:

- غلوش، ليحضر أحدهم غلوش.

وحين أتى (غلوش) كانت (أباجيل) ساعدت الصديق على تبديل ملابسه، وجلسا سوياً على أريكة مقابلة للباب في انتظاره، ليحدث إلى (غلوش) أغرب شيء بإمكانه الحدوث داخل معسكرات النازية؛ فقد قام الصديق فور دخوله وعانقه وهو يبكي، ومن دون أن ينبس أيّ منهما بشفة قام الصديق على إحضار المطلوب لتجبير ذراع (غلوش) بعدما قام بارجاع المفصل لما كان عليه قبل القتال.

- كان يتوجب عليك قتله أو الخروج عندما أُتيحت لك الفرصة، وغير ذلك معناه أنك تحكم على نفسك بالموت.

لم يجب، ولكنه أعاد مرة أخرى ما قالته (بروسكوليا).

«تختص هذه الاستراتيجية بالضرورة باتخاذ المبادرة في المعركة من خلال إرهاب الخصم».

إرهابه وليس قتله، رغم أنه في الماضي كان يكتسب قوته من القتل دون وضع أيّ أسباب في اعتباره، إلا وأنه الآن - في معسكرات النازية- تساوى مع غيره من المعتقلين في الذل والجوع والتوق إلى الحرية، رغم أنه لم ينس يوماً سبب دخوله أوشفيتز، وحتى بعد مرور الكثير من الوقت لم يتقاعس عن أداء المطلوب منه على أكمل وجه تجاه وطنه، والأهم من ذلك نجاحه في أن لا يشك فيه أحد.

- لو كنت قتلته اليوم فسيأتي غيره ليقتلني في الغد.

- لا وقتنا ولا مكاننا تناسبهما هذه المثالية، نحن في حالة حرب.

- لم تكن الحرب بيني وبينه.. نحن صديقان...

- أنصت.

قالها مقاطعاً وقد نفذ صبره وتبعها قائلاً:

- كل من بداخل هذه الأسوار يتجرد لحظة دخوله من جميع ما ينتمي إليه من عرق أو دين، فأنت هنا ليس سوى مُعتقل وشريعتك هي قوانين المعسكر.. التزم بها، فالقوانين هنا تسري كالشريعة على كل من المعتقل والضابط والطبيب.

حينها نهضت (أباجيل) من مجلسها في محاولة لتهدئة الصديق، ومنعه من البوح لـ (غلوش) بأي شيء من الممكن أن يندم على قوله فيما بعد، وبعدها رحل (غلوش) إلى عنبره سألت:

- لماذا غلوش!؟

فقد تعجبت من معاملة الصديق الحانية له على غير عادته مع المعتقلين الذين دائماً ما يلاقون العذاب مضاعفاً على يديه بمعاونة (مندل)، في تجاربهم عليهم باسم العلم على، ثم جاءت إجابته القاطعة كصاعقة أصابتها:

- لأنه كثير الشبه بآدم أخينا يا أباجيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(26)

يوم آخر بدأ في عربة قطار الوجه القبلي المكيف في رحلة (رفعت) المتكررة للقاء (الغريب)، وحين وصل سالمًا حمدَ ربّه بأنه لم يشاهد سباق الكلاب لعدم استيقاظ من يُدعون أطفالاً بعد، قابله (خير) الذي اعتاد طوال عمره على الاستيقاظ مبكرًا لفتح الكنيسة المجاورة لبيت أبيه للقس والمصلين، صعدا معًا للأعلى حيث يقيم (الغريب)، ثم (خير) بعدما أيقظه ليبدأ الحديث بينه وبين (رفعت).

- اقتربنا؟! -

- على ماذا يا باشا؟ -

- أتمزح معي!! ليس بيننا مائة اتفاق، فقط ما أتيت بك لهنّا من أجله، ثم إياك وقول كلمة باشا هذه مرة أخرى.

- حسنًا.. كل شيء على ما يرام يا باشا..

فانتبه للكلمة التي قالها للمرة الثانية وابتسم لنجاحه في إغاطة (رفعت)، ومن بعدها أكمل حديثه:

- لقد انتهيت منذ يومين..

- ولم لم تُبلغني؟! -

سأل (رفعت) وقد ازدادت عصبية، ولكنه ذلك لم يكن يكفي ليحصل على إجابة لسؤاله، وكأن الغريب لم ينتبه لذلك السؤال بادره بسؤال آخر من ناحيته:

- قل لي يا رفعت بك.. ما أخبار ما أأتمنك عليه؟

فصمت هنيهة خَجلاً ثم أجاب:

- صراحة.. أنا مقصر لما يقرب إلى الأسبوعين، ولكن بسبب ما نحن فيه.

زفر الغريب وقال:

- ولكننا اتفقنا أنه شرطي الوحيد، وما طلبته تمّ على أكمل وجه من دون مناقشة، بالرغم من أنه لو اكتشيف سألبس البدلة الحمراء ولن تنفعني حينها، بل لن تستطيع أن تنفع نفسك من الأساس.

- ليست لعبة حتى نخطئ فيها خطأ يودي بنا إلى هذه النهاية، فكل فعل وكل كلمة بحساب، من أجل تحقيق الهدف في الوقت المناسب.. وأعدك أنني لن أتأخر عن أداء واجبي تجاهك مرة أخرى.

- أنا آسف.. لا أقصد أن يودي كلامي لهذا الأسلوب في الحوار، اعذرني، فأنت تعلم أن ليس لي...

وهنا قاطعه (رفعت) قائلاً بابتسامة كشفت عن صفّي أسنانه ناصعة البياض:

- أنت في غنى عن تبرير ردّ فعلك، فأني أحدٍ بمكانك كان سيكون من حقّه طلب الكثير، ولكن موافقتك لهذا الأمر تحديداً زادت ثقتنا فيك.

حينها تبادلوا الابتسامات وتعانقا ثم جلسا يتحدثان في كيفية إنهاء أعمالهم، وكيفية التخلص من الأجهزة المستخدمة بشكل آمن لا يثير الشكوك، وذهاب الغريب لمكان آخر لا يعرفه فيه أحد حتى يحين وقت عودته لحياته الأولى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد التنسيق تليفونياً بينهما تقابلا في أحد المطاعم السورية الفاخرة في شارع التسعين لتناول الغداء سوياً بعدما عادت بينهما العلاقة كما كانت عليه من قبل، كحُب جديدٍ، حقيقي، لم ينقصهما في الحياة سواه.

بعدما انتهيا من تناول الطعام بدأ في احتساء القهوة واستكمال الحديث في ذكريات الماضي والتخطيط للمستقبل.

- يجب أن تمسك عن الطعام لثلاثة أيام على الأقل.. أنسيت أنك مصاب بالسكر!!

- بالفعل لم آكل بهذه الطريقة من سنواتٍ، فُتحت نفسي لأننا سوياً.

ابتسم وهو يقبل يدها لتبادره:

- ليس لهذه الدرجة، من المفترض أن تأكل أكلاً صحياً كما نصحتك.

- حسناً سأقصر طعامي على التونة، فهي سريعة التحضير ولا يُمل منها.

- وستظل تأكل التونة كثيراً وعندما يحين موعد زواجنا ستكون أنبتت لك زعانف.

انفجرا ضاحكين بصوت عالٍ لفت انتباه رواد المطعم والعاملين فيه إليهما، فحاولا بقدر الإمكان كتم ضحكهما حتى تمكن (سيف) أخيراً من الحديث بينما وجهاهما مازالا محمرين.

- الله يجازيك يا شيخة، سيظن الناس أننا مجانيين.

- دعك من الناس وتكلم بجدية.. يجب أن تحسن من أسلوب أكلك حتى لو اضطرني الأمر لأقوم بذلك بنفسي يوماً.

- ما زال أمامنا ستة أشهر حتى نتزوج.

- وما علاقة الزواج بالأمر!! ستأت كل يوم ونتناول غداءنا يوماً في بيتي.

ابتسم فرحاً لما تعنيه دعوتها له، فأكملت:

- لا تفرح كثيراً، ففي المقابل ستساعدني في بعض الأعمال المنزلية حتى لا تعناد الدلال.

- لا بالطبع لن أتدلل.. تدفعين الحساب أم أدفع أنا حتى نغادر!؟

فتحت فاهما متعجبة من سؤاله ثم ابتسمت حين فهمت دعابته، فأشار (سيف) للنادل طالباً منه الفاتورة ثم رحلا في سيارته الجديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد يومين من عودة (رفعت) إلى القاهرة توجّه مباشرة بعد انتهائه من العمل إلى منطقة منيل شيحة لزيارة العم (فرج) الذي قابله بترحاب، حالفًا بأغظ الإيمان بأن يتناولوا الطعام سوياً، وقد كان.

أخذاً يتحدثان لمدة ساعتين قضاها في تناول الغداء وشرب الشاي، وحين همّ (رفعت) بالانصراف تذكر سبب إتيانه، أخرج من جيب معطفه من الأوراق النقدية مائة ورقة من فئة المائة جنيه إلى العم (فرج)، فرفض في البداية ثم أخذها بعدما أقسم (رفعت) على ذلك بعد محاولات عديدة من الرفض، ثم أخرج مطروفاً أبيض لم يتم غلقه أخرج منه ورقتين مطويتين عرضياً، أعطى الأولى له بعدما فضها ليرى العنوان المكتوب «عقد تملك» لمحل مساحته مائة متر في منطقة حيوية والورقة الأخرى هي ترخيص المحل للعمل «ككافيتريا»، عانقه العم (فرج) باكياً فرحاً وهو يقول:

- أنت الوحيد الذي.. الذي عوضني عن.. عوضني عن غياب ابني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه ننيب، بسم الله نفتك عمل الشيطان، توكلنا على الله... يا مسهل، أعزائي الطلبة والطالبات سواء كنتم من من أبناء المملكة أو وافدين من الدول العربية أو غيرها، فنحن هنا سواء كأستاذ المشط كما خلفنا الله سبحانه وتعالى، ظاهرياً أعطي لكم المعلومات الخاصة بدراساتنا عاماً بما ورد على لسان نبينا الكريم محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.. خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ولكنني حتى الآن لم أر في ذاتي البسيطة بأنني مُتقنٌ لتعليم القرآن الكريم والله أعلم، لذا فما أنا أفعل ما أقدر عليه وأستطيعه من تعليمكم العلم وترك تعليم القرآن لدارسيه والمتخصصين فيه».

هذه المقدمة التي طالما سمعها طلبة كلية العلوم بجامعة فيلاديلفيا الأردنية في كل محاضرة يلقيها عليهم الدكتور (الحسين بن هاشم)، وكما اعتاد الطلبة الأجانب قبل العرب على التحدث وتلقي محاضراته باللغة العربية، وكان من ضمن الحضور المصريين الدكتور (سيد عبد المنعم) من بعد دعوة أحد أصدقائه الأردنيين لحضورها عند زيارته الأخيرة للمملكة.

أخذ الدكتور يشرح من دون مقاطعة والجميع منصت لكل كلمة يقولها:

- في محاضرتنا الفاتنة تحدثنا عن الأسمنت البورتلندي وتركيبه الكيميائي $Co Ca_3$ ، وكيفية الحصول عليه من مركباته الأساسية من الحجر الجيري والجبس والطفلة، وتعريضهم جميعاً لدرجة حرارة مناسبة لإنتاج الكلينكر ومن ثم إضافة الجبس بنسبة تتراوح بين 3:5%، وهناك أنواع أخرى من الإسمنت ولكل نوع استخدامه المختلف، مثل: الإسمنت المضاد للكبريتات، والإسمنت السريع التصلب، والإسمنت الأبيض، وسندرس تباعاً خواص كل نوع على حدة بدءاً بالإسمنت المضاد للكبريتات والذي يستخدم في البيئات الغنية بأيونات الكبريتات مثل: وجود مياه جوفية أو مياه صرف أو بحار في مواقع البناء، وكما نعلم فإن أيونات الكبريتات لها تأثيرات سلبية على القوة التضاغية للخرسانة المسلحة، تؤدي بطبيعة الحال إلى إحداث تشققات في الخرسانة؛ مما يؤدي لانهارها. والتركيب الكيميائي للإسمنت المضاد للكبريتات يختلف بالطبع عن تركيب الإسمنت البورتلندي العادي حيث يحتوي على نسبة أقل من كلٍ من التراي كالسيوم الومنيث C3 A بنسبة 4%، والتراي كالسيوم سليكات C3 S بنسبة 38%، والجبس بنسبة 2.7%.

فقام أحد الحضور برفع يده استئذاناً بسؤال:

- ولماذا يحتوي هذا النوع على نسب أقل من هذه المكونات جميعاً؟

فردَّ بابتسامة بشوشة:

- ببساطة لأن وجود الـC3A بكثرة في بيئة غنية بالكبريتات يؤدي بطبيعة الحال إلى تكوين مادة الإترنجاييت ($C_3A \cdot 3CaSO_4 \cdot 32H_2O$) وهي مادة ذات كثافة قليلة وحجم كبير، مما يؤدي إلى حدوث تصدّعات بالخرسانة وبالتالي يؤثر على قوة تحمّلها ويحدث بها انهيارات؛ فلذلك يجب تقليل نسبة الجبس المخلوطة عن المعتاد حتى لا تساهم بتكوين الإترنجاييت بكثرة، فتنهار الكتلة الخرسانية وهذا ما نحاول تجنبه.

وهنا ومضت الفكرة بعقل الدكتور (سيد عبد المنعم) وهو في مكتب عمله بمصلحة الطب الشرعي تحت قيادة الدكتورة (داليا)، حين تذكر تلك المحاضرة بعد مرور ست سنوات.

بعدها عَزَمَ مراراً مع رئيسه في هذا الأمر، ولكنه عزف عن ذلك لمعرفة النتيجة مسبقاً عن كون (داليا) لم ولن تقبل أي إضافة من أي شخص، وأنها لديها قناعة بأنها الصوت المسموع نظراً لمنصبها الرئاسي.

استخدم حاسوبه للدخول على ملفات المعمل وكتبَ في محرك البحث بعض الأكواد التي من شأنها استعراض الملف الخاص بواقعة الجثة بداخل العمود الخرساني، استعرض الصفحات وقام بمراجعة تقرير الحمض النووي وتحليل العينات، قرأه مراراً وتكراراً ليتأكد من صحة اعتقاده بأن هناك تفاعلاً كيميائياً نتج عنه انهيار الكتلة الخرسانية؛ فالتقارير أمامه تؤكد بأن التركيب الكيميائي لعينة الخرسانة تحتوي على نسبة أكثر من الطبيعي من مركب الجبسين تقارب نسبة الـ15%.

زفر طويلاً وأخذ يداعب شعر لحيته، بينما يده الأخرى تقوم بطباعة التقارير التي راجعها تَوّاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليس كل ما يراه المرء بعينه حقيقة مسلّم بها.

على ألحان تشايكوفسكي التي تعودت على سماعها منذ الصغر، مع منتصف مقطوعة روميو وجولييت غطست قدمها في مياه المغطس الدافئة وبعد ثانيتين غمر الماء جسدها بالكامل، أغمضت عينيها مستمتعة بدفقات المياه على جسدها، مضخوخة من زوايا المغطس وأجنابه محدثةً فقاعات دقيقة اتحدت مكوّنة رغاوي ناصعة البياض بفعل صابون الاستحمام.

اعتادت (داليا) على هذا الطقس الأسبوعي خلاف حمامها اليومي الذي تقوم به سريعاً، وبينما هي في ذورة استمتاعها عد مرور ما يقارب الساعة ونصف الساعة قضتها في المغطس، قام أحدهم بقرع جرس الباب، كانت تعلم مسبقاً بالقادم حين قام بمهاقتها، ذات الشخص الذي قام بإرسال رسالة نصية قبل شهرين من كلمة واحدة: «مبروك».

ارتدت ملابسها الداخلية سريعاً بعدما جففت جسدها، ومن ثم ارتدت برنساً قلماً استخدمته لعدم وجود من يشاركها المنزل، وقامت بفتح الباب:

- أصبحت أخاف من مفاجأتي بمجيئه في أي وقت بحثا عن طعام صحي، لذلك طلبت منك أن تهاتفني قبل مجيئك.

قالتها مبتسمة وهي تعانقه.

- ادخل..

فدخل واضعاً ذراعه على كتفها بحميمية.

- أمازلتِ تستغرقين ساعتين في الاستحمام!! لقد هاتفتك من فترة، فلو الأمر كذلك فاستحمي كل يوم لعدم تكوّن الجلخ على جسمك فتضطرين إزالته بالساعات كل أسبوعين.

لكمته في كتفه وهي تضحك قائلة:

- فشرت.. أعتقد أنني أمقت الاستحمام أم نسيت؟

- لا يا حبيبتي لم أنس..

مثل العبوس على وجهه وقبض بيده على مزهرية بعدما أسقط ما بداخلها من ورود صناعية على الأرض وقال:

- وأقسم بالله لو مددت يدك بالضرب مرة أخرى لهشمت هذه القلة على رأسك..

- قلّه يا أصلع!!

- أصلع بارادتي.. هيّا تجهزي سريعاً فأنا على عجل.

- حسناً.. اشرب شيئاً ما لحين أجهز.

دخل إلى المطبخ المنشأ على الطراز الأميركي لتجهيز مشروبه، ومن الداخل هتفت داليا:

- اعمل لي نسكافيه في «الثيرمو مج» معك بعد إذنك يا رفعت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- يا إلهي!

قالتها (كارول) متعجبة مما قصه (غلوش) عليها للتو، ثم أكملت متسائلة:

- ألم يسقط الناقوس فوق أوريل ليسحقه!؟

فردت بفلسفة اعتادت عليها في الفترة الأخيرة:

- الصورة في بعض الأحيان تكون معكوسة من داخل مرآة، والكثير من المرايا تعكس الصورة مضيئة لها الكثير من التشوهات، لتصبح الصورة مجرد إسقاط لما يود المرء أن يراه ويصدق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يعود يعود الى الكنيسة.. ليُصلي!! لم يُصلِّ ولن يصلي مرة أخرى.. يصعد إلى برج الكنيسة، ينظر من الأعلى بعينه ليرى معالم ميونخ وقمم جبال الألب كنورس محلّق في الأفق، يقتلع الحبل من الوتد الحديدي من الحائط الطيني.. يدق جرس الكنيسة ذا الناقوس الذي يزيد قطره عن المترين.. يدق ويدق، يواصل البكاء والصراخ، يترك الحبل ويمسكه مرة أخرى ليعاود دق الجرس مرارًا وتكرارًا حتى يستسلم حامل الجرس ويبدأ طريقه في التكبُّر.. يصرخ صرخته التي تكاد تمحو صوت الناقوس، فتخور قواه وهو ما زال يدق الجرس.. تنزلق قدمه فيحاول التشبث بالطرف الآخر من الحبل فيهوى، يستغرق جسده دهرًا قبل أن يرتطم بالأرض رغم سقوطه على أكوام كبيرة من قش الأرز، يستسلم حامل الجرس نهائيًا فيهوى الناقوس فوقه.. أوريل يبكي ويصرخ ويثور.. ثم يصمت. كانت (أباجيل) تجري مسرعة محاولة للحاق به خوفًا عليه؛ بعدما تأكدت بأنه لم يتبق لها في العالم سواه، بعدما تأكد لها موت كل من (تابيثا) و(آدم)، أنهكها الحزن والخوف والجري لملاحقة أخيها.

شاهدت تجمهر القاطنين بالقرب من الكنيسة خارج منازلهم منتظرين قدوم البطيريك الذي استحق قرع الأجراس احتفالًا بمباركته للقريّة، في حين لم تلتفت هي إلى أي منهم ولم تعر أحدهم أي انتباه حتى وإن كان البطيريك ذاته كان قد أتى بالفعل، توجهت مباشرة إلى الهيكل باحثة عن أخيها وحين لمحت الناقوس ساقطًا على الأرض هناك تمنّت أن تخيب ظنونها..

- أوريبيبيل..

لم تتلقَّ أي رد وتلاشى صوتها وسط ضوضاء منتظري البطيريك الذين تناسوا الحريق.

- أوريبيبيل..

وصلت إلى الناقوس ولفتت حوله مرارًا على أمل أن تجده هنا أو هناك، كما لو كانت تبحث عن شيء بحجم حصاة، أخذت تتادي وتتادي بلا أي ردٍ حتى تملكها اليأس والإنهاك؛ جلست أخيرًا مسندة ظهرها على الناقوس لتسري برودته في جسدها..

- يا الله.. لتكن إرادتك لا إرادة العالم أجمع، أنت خالقنا وأنت أخذنا حين تأتي ساعة أيّ منا.. وإنني أعلم كل العلم بأنك لم تسمح بموتهم اعتباراً أو بغرض ألمي، وأعلم بأنك قادر أن تعيدهم لي، ولكن لتكن إرادتك لا إرادتي.. لتكن إرادتك يا إلهي..

علا صوت بكائها وبدأ جسدها بالتشنج وهي تتضرع لإلهها.

(تين.. تين.. تين)

انتبهت لصوت دقاتٍ ثلاث على سطح معدني، دقاتٍ مكتومة الصوت، فقامت من مجلسها باحثة عن المصدر ولكنها انتبهت إلى الناقوس وسمعت ذات الصوت مرة أخرى.

(تين.. تين.. تين)

- أوريل!!

لم تكن تعباً في هذه اللحظة بموت مربيتها وأخيها، لاعتقادها صدقاً بأنهما لن يعودا، لذا فضّلت الاهتمام بما تبقى... أخوها الأصغر (أوريل).

سريعاً جرت حيث يجلس الكهنة فكانوا قد غادروا لاستقبال البطريرك على حسب اعتقادهم، عدا الأب (بابلوبينو) الذي لم يسمع قرع الجرس لتقل سمعه لدرجة قد تصل إلى الصمم.

- أبت.. أبت.. يا أبت..

لم ينتبه لدخولها وهو جالس معطي ظهره لمدخل الباب سوى عندما ارتج جسده البدين بالكامل حينما هزته، ليجدها تتحدث بلا صوتٍ وعيناها تُسقطان الدموع كصنبورٍ تالف، شدته من يده فمشى خلفها غير عالم بما سيلقاه، ولكنه شعر بكل ما بقلب الفتاة من مشاعرٍ بؤسٍ وحزنٍ وخوفٍ.

وصلا إلى البرج وهاله ما رآه، ثم ربّت على كتف الفتاة مواسياً وقال:

- لا تحزني يا ابنتي، فلسوف نرسل لصانع الأجراس ليأتي من بلده المجاورة لنا ويصلح ما تُلف.

فبدا على الفتاة الامتعاض وازداد بكأؤها، ليراها (بابلوبينو) وهي تحرك شفيتها بغير صوتٍ مرة أخرى.. أمسكت بحجرٍ وأخذت تطرق على الناقوس فلم يسمع طرقات الحجر ولا الطرقات الآتية من داخل الناقوس.

ارتعبت خوفاً على أخيها من الاختناق، فذهبت مسرعة للخارج ناحية المتجمهرين في انتظار البطريرك وهناك وجدت من يسمعها، فأتى الجمع بعدما طال انتظارهم.

- لتكن مشيئتك.. لتكن مشيئتك يا رب..

هتف كبير الكهنة سناً ومقاماً وأكمل بثرثرته التي اعتاد مرتادو الكنيسة عليها:

- منذ ما يقارب العشرين عاماً أتى صانعو الأجراس لصناعة هذا الجرس.. وقتها اختلفنا جميعاً وكدنا أن نتعارك بعدما أصروا على صناعة الجرس بمطرقة خارجية وليس بداخله.. فاعترضت أنا لأن

كنيستنا كبيرة كالكاتدرائيات ويجب صناعة المطرقة بداخل الناقوس وليس بالخارج.

- أبت.. بإمكاننا أن نجتمع في الغد لتقص علينا هذه القصة الشيقة، أما الآن فأولويتنا هي مساعدة الفتاة في إرجاع أخيها إليها.

قالها أحد المتجمهرين ليرد رئيس الكهنة بثرثرة مرة أخرى:

- آآه.. بالطبع أنت على حق، اعذروني واعذروا ثرثرتي ولتعلموا بأنني لم أكن هكذا منذ الصغر، فكنت صموتًا كتومًا أسمع أكثر مما أتكلم و...

- كفى.. نريد أحيانًا قوية وعروق أخشاب.. من أين لنا بهم؟

صرخ ذات الشخص مانعًا نفسه من قتل الكاهن، فأجاب أحد المتجمهرين الذي كان من أحد الشماسة:

- في مخزن المؤن.. جهة الجنوب.

ذهب العديد منهم وأحضروا المطلوب بينما (أباجيل) تحاول بمفردها زحزة الناقوس ولكن بدون جدوى، أتوا بعروقي خشبية وحبلٍ من خيش النخيل، ربطوه بقمة الناقوس في ذات الموضع الذي عُلق منه قبل عشرين عامًا.

هتف الشاب القائم بدور القائد:

- الرجال والشباب.. سنتشابك بالحبل محاولين رفع أحد أطراف الناقوس.. وحالما يرتفع تتعاون النسوة مع الفتاة لوضع الأخشاب من تحته.

وقد كان، ولكن بكل صعوبة بعدما حاولوا مرارًا وتكرارًا تكسرت خلالها العروق الخشبية نتيجة الضغوط المتقابلة من الناقوس وقشّ الأرز الذي كان أكبر عائق، مرة بعد الأخرى بدأ الناقوس يرتفع بانتظام حتى أصبح الفراغ تحته يشكل زاوية حادة على أرض البرج.

- ليسحب أحدكم الصبي..

حينها تقدّم (بابلوبينو) لتهتز الأرض من تحته والشحوم على جسده بفعل حركته السريعة، لم يسمع ما قاله أيُّ من الحضور بخصوص سحب الصبي، ولكنه تحرك تلقائيًا عند رؤيته لصبي تحت الناقوس مُغشي عليه والدماء سائلة من فتحات أذنيه ومنخاره.

- أوريل!!

- أهذا أوريل بحق المسيح!!

- يا إلهي.. إنه أوريل.

تعالت التساؤلات من الحضور الذين تعلموا الكثير على يد الشماس المطيع، (أوريل) الأقرب إلى الملائكة من كونه بشريًا، أبلحق هو (أوريل)!! ماذا حدث له؟ أكان يقرع الجرس لاستقبال البطريرك

ووقع الحادث! ألم يأتِ البطريرك؟

تساقطت دموع (بابلوبينو) وهو يحمل الشماس المطيع والدماء تتساقط عنه ذاهبًا به إلى غرفته الخاصة لمداواته، ومن خلفه (أباجيل) تاركين الجموع الذين انطلقت ألسنتهم في ترداد الكثير من الـ «هاليلويا» والـ «كيري ليسون».

أقيمت صلاتي القداس والتجنيز لكل من (تابيثا) و(آدم)، وتم دفنهما ومن ثم عادت (أباجيل) إلى غرفة (بابلوبينو) حيث محل إقامتها مع أخيها مؤقتًا لحين توفير الكنيسة منزل جديد لهما.

ارتاحت أخيرًا بعد يومين من التعب وعدم النوم، ملقاة بجسدها على كرسي بجوار الفراش الممد عليه أخوها، بعدما قام (بابلوبينو) بتنظيف جسده من الدماء وعوالق الفش والباسه ملابس نظيفة، والبقية في منازلهم في انتظار البطريرك.

وبعد مرور ثلاث ساعات نامتها (أباجيل)، استيقظت مزعورة على صوت ارتطام شيء بالأرض، لم يكن هذا الشيء سوى جسد (أوريل) الذي أفاق وحاول الوقوف على قدميه.

- أبت.. يا أبت..

صرخت الفتاة في محاولة لم تنجح في إيقاظ الكاهن البدين المصاب بالصمم حين نام جالسًا على الأرض مسندًا رأسه للحائط وقد تدلت رأسه على جسده، فقذفته بكوب خشبي ارتطم بوجهه ليصحو مذعورًا راسمًا الصليب على صدره.

- حمدًا لله.. حمدًا لله.. ارجع للفراش يا بني.. يجب أن تستريح.

لم يفتح الفتى فمه سوى من أجل التأوهات والأنين، قام الكاهن البدين بخلط بعض الأعشاب المحفوظة لديه في وعاء معدني ووضعها على الموقد بعد إضافة الماء، وبينما تتلو عليه (أباجيل) بعض الآيات لم يسمعها، بل سمع صوتًا آخر آتيًا من داخل عقله.

«سيعمل هذا الشراب على تسكين آلامك، ومن ثم يمكنك الخروج للتمشية بصحبة أباجيل».

- لا أريد شرب أي شيء.. هلمي نخرج الآن، فأنا أختنق هنا..

حينها تقدم منه (بابلوبينو) بعدما قام بتصفية مستخلص الأعشاب في كوب وأتى لإعطائه له وقال:

- سيعمل هذا الشراب على تسكين آلامك، ومن ثم يمكنك الخروج للتمشية بصحبة أباجيل.

وحينما أنهى جملته تعجبت الفتاة ناضرة لأخيها غير مصدقة لما سمعته، بعد سماعها لما طلبه (أوريل)، غير عالمة بأن مثل هذا الموقف سيتكرر كثيرًا فيما بعد؛ فلم تجد تفسيرًا على كيفية علمه بما كان يفكر فيه (بابلوبينو) قبل أن ينطق به لسانه سوى أنه قادر على قراءة الأفكار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شهور مرت عاد فيها إلى طبيعته ظاهريًا، فباطنًا كان هناك شيء غريب اكتسبه، لم يعلم به أحد سوى أخته من بعد الله، وقد أدركا بأن أمرًا كهذا يجب أن يظل سرًا لنلايسيء من استخدامه، ويسيء الناس

فهمه.

ظنا أنه ربما يمتلك هذه القدرة في اختراق عقول الآخرين وسماع أفكارهم غير المنطوقة منذ الصغر، وربما (أباجيل) أيضاً تمتلك ذات القدرة، ولكنه لم يحدث أبداً واكتشفت قدرة مماثلة لديها، غير عالمة هي أو (أوريل) بأن حادثة السقوط هي السبب الرئيسي في ذلك.

من حسن حظه أو من سوءه، لم يمسه الناقوس عند السقوط، احتواه بداخله ليكون كالجنين داخل الرحم، قوَس جسده غريزياً استقبالاً وترحيباً بالموت الآتي إليه، انضغط الهواء داخل الناقوس من بعد السقوط، وكان القش المبلل بالندى عاملاً على عدم دخول أو خروج الهواء، ثَقُلَ الهواء يضغط على أعضائه فَيَنزِفُ الدماء من فتحات جسده، الضغط يكاد يمزق رأسه ككرة من المطاط أصابتها طلقة من الرصاص، ينضغط المخ بداخلها، والهواء لا يصل إليه محفزاً خلاياه على العمل بصورة سريعة قبل أن تفارقه الحياة، وحينها جذبه (بابلوبينو) من تحت الناقوس شاحباً كالأموات، ليتعادل ضغط الهواء على أعضائه تدريجياً، بينما خلايا المخ مستمرة في العمل بسرعتها القصوى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(28)

في مطار القاهرة يعانق الزوار والمسافرين بعضهم بعضاً مودعين، أملين أن يلتقوا على خير، بينما في صالات الوصول يتعانق الزوار والعائدين فرحين باللقاء الذي انتظروه لأيام أو شهور أو سنين حامدين الله الذي لم تضيع ودائعه، متمثلين في أسرة من آباء وإخوة منتظرين أخاهم العائد بعد رحلة دراسية انتهت من بعد مُضي أعوام، وأسر من أمهات وأبناء منتظرين رب الأسرة العائد من رحلة عمل مضت شهور منذ بدايتها ليحقق لهم المستوى المادي والاجتماعي اللازم لمواجهة الحياة، وأسرٍ آخر تنتظر أم أو أب أو أحد الأبناء العائدين بالملابس البيضاء من رحلة عمرة.

من بينهم شيخٌ عجوزٌ أسمر البشرة برأس صلعاء لامعة يتقدم بواسطة كرسي متحرك يعمل بالكهرباء، في انتظاره كل من (داليا) و (رفعت) وعانقه عناقاً حاراً.

- الحمد لله على سلامتكَ يا عمي..

قالتها داليا ومن بعدها قال رفعت:

- الحمد لله على سلامتكَ يا أبي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت «تكنولوجيا النانو» وما زالت هي الحل الأسهل -إن لم تكن الحل الأوحده- لأي معضلة أو مشكلة، فهي تُعرّف بأنها تطبيق عملي يتولى إنتاج الأشياء عبر تجميعها على المستوى الصغير من مكوناتها الأساسية.

هذه «التكنولوجيا» الواعدة تبشر بقفزة هائلة في جميع فروع العلوم والهندسة، إلى أن توصل العلماء لصناعة أكثر أهمية لكل المجالات.. «النانو روبوت».

وكأنه مشهدٌ في أحد أفلام الخيال العلمي، يقوم أحدهم بالتحكم في النانو روبوتس عن بعد للقيام بالهدف المنشود، وكان من أهم أهداف صناعته الغوص عبر الشرايين ومراقبة تطور الخلايا، ونقل صورتها بدقة عالية لتصبح النانو روبوتس في وقتنا الحالي الأهم والأكثر شيوعاً في مجالات المراقبة والتجسس.

فبإمكان القادرين على دفع الثمن الحصول عليه بسهولة، مع ضمان علمهم بكيفية برمجتها، وهذا ما حدث منذ شهور عندما قام أحدُ القادرين على دفع الثمن المطلوب بشراء البعض منها - وهذا ما يبيّن قدرته الشرائية- وليس وحدة واحدة فقط، وقام ببرمجتها لتتبع شخص بعينه ومراقبته لتسجيل كل ما يقوم به يومياً.. مواعيد النوم والاستيقاظ، والطرق التي يتخذها عادة في الذهاب إلى عمله أو أي مكانٍ آخر، وتسجيل مكالماته الهاتفية، وكلمات المرور لبريده الإلكتروني ولأي حسابٍ آخر من الممكن أن يقوم بالدخول إليه يومياً.

لم يكن الهدف من مراقبته الابتزاز أو استنفاد حساباته البنكية ذات السبع خانات، بل كان الهدف هو مراقبته وكفى في انتظار ما يستحق أن يكون سبباً لهذه المراقبة، إلقاء السنارة بالطعم في انتظار سمكة أياً كان نوعها، حتى أتت الفرصة على طبق من ذهب حين رصدت النانو روبوتس ما قام بفعله

وهو لا يعلم بأنه مراقب، بينما النانو روبوتس تسبح في الهواء من حوله ملازمة إياه لترصد أفعاله من زوايا عدة، وكان من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يعلم بأنه مراقب بواسطة أجسام تقارب الذباب في حجمها وشكلها إمعاناً في التمويه في مقابله مع أحد الأشخاص بعدما اتفقا على الموعد والمكان هاتفيًا.

لم تكن مقابلهما بالشيء الغريب، فقط إذا تغاضينا عن الموعد الذي تم تحديده بعد منتصف الليل، والمكان الذي لم يكن سوى عقار تحت الإنشاء في منطقة المعصرة، حيث قوالب القرميد متراسة في انتظار الاستخدام، وأجولة الأسمنت المتوارية خلفها فلم يرها منذ البداية، فقام باستخدام الرافعة بإحضار جوال إسمنت من طابق سفلي ومن ثم خلطه بالماء والرمل والحصى والجبس للحصول على خليط خرساني سريع الجفاف، وتوجّه إلى أحد الأعمدة الخشبية المجهزة للصب في اليوم التالي، قام بفك أحد الجوانب وأخرج الأسياخ الحديدية منه، ومن دون أي تفاصيل أخرى أتى الشخص المنتظر ليفاجئه الأول بضربة على مؤخرة رأسه أفقدته الوعي.. والحياة، ليصبح بعد دقائق جثماناً بداخل قبر من الخرسانة.

كل هذا وأكثر رصدته كاميرات النانو روبوتس ليكون أكثر الأشياء التي تم رصدها أهمية ضد هذا الفاعل، الذي بدا على مظهره رغم الإرهاق والتعرق بعد الانتهاء من الجريمة بأنه شخص أنيق في العقد السادس من عمره، قريب الشبه بالممثّل الأميركي (جورج كلوني).

بعد أيام طفت الشوائب على السطح مُعلنة وجود جثة بالعامود الخرساني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يظن (سيف) يوماً بأنه على هذا القدر من السذاجة أو الجهل قبل أن يجلس أمامه الدكتور (سيد عبد المنعم) شارحاً له كيفية وقوع الجريمة، ولكن التساؤلات أخذت تعيثُ فساداً برأسه «أي غياب فعل باستخدامه لهذا النوع تحديداً من الإسمنت ومن ثم إضافة الجبس له!، كيف تحصل هذا الجالس أمامه على هذه التقارير ومن المفترض أن تمر على (داليا) لاعتمادها!.. وفي حالة معرفة (داليا) بالنتائج ما الذي دفعها للتكتم وعدم التحدث معه بهذا الأمر بصفة رسمية أو ودية!.. ماذا لو كان رآه أحدهم؟!...» فدائمًا ما تقوم المصادفات الغبية بتغيير مجاري الأمور بالطريقة المعروفة باسم «تأثير الفراشة»، ماذا لو كان بإمكانه السفر عبر الزمن لتغيير الماضي!

- أشكرك جداً يا دكتور، سأقوم بمراجعة التقرير مع فريقتي... أشكرك مرة أخرى على جهودك.

- لا شكر على واجب يا سيادة اللواء، لم أقم سوى بعملتي.

- الله ينور عليك.. فقط لي رجاء.

فبادره بالرد:

- تحت أمر سعادتك..

- الأمر لله، أنا لا أريد أن يعلم أحد بما توصلت له من نتائج، أو أنك أعلمتني بها حتى رؤساؤك.

قالها وكأنه يجهل بأنه يعمل تحت رئاسة من ستكون زوجته في المستقبل:

- بسيطة، وعمومًا أنا قمت بإبلاغك لأنك من ستقوم باللازم.

ثم قام استعدادًا للانصراف.

- بإذن الله، والله لولا انشغالي لأصغيت لك أكثر، ولكن اليوم مشحون بالمواعيد.

- كان الله في العون يا سيادة اللواء.. مع السلامة.

- مع السلامة..

وما إن خرج الضيف فأجرى (سيف) بعض الاتصالات وتوتره يزداد، وآخر اتصالاته كانت بـ (شاهر) الذي حضرَ سريعًا متلقيًا تعليمات من رئيسه.

- أنا أسف يا سيادة اللواء على السؤال، ولكن أتمنى ألا تأخذه بمعنى التهرب من تنفيذ طلبك؛ فكل ما هنالك أنني أريد أن أفهم مثلما علمتنا..

تردد (سيف) قليلاً قبل أن يطلب من (شاهر) متابعة حديثه، لإكمال الأخير بسؤاله:

- ما الدافع للشك في الدكتور داليا؟! فعلى حد علمي رجعت الأمور على ما يرام بينكما، ثم...

فأجاب إجابة تكاد تكون قاطعة منعًا لوجود تساؤلات أخرى:

- أنا لا أشك فيها يا شاهر، ولكني لا أحب أن أترك أموري كالمركب الشراعية التي توجهها الريح، حتى لا أندم في المستقبل وأقول يا ليتني..

قالها في الحين ذاته الذي أخرج فيه قلم الأنسولين من أحد الأدراج، ثم قام بضبط الجرعة ووخز به فخذ الأيمن.

- هل هناك شيء آخر يا شاهر؟

- نعم إذا سمحت.. لماذا لم تطلب هذا من رفعت بك طالما الأمر بهذه الحساسية وهو الأقرب لك؟!

- رفعت عاطفي، طوال فترة انفصالي عن داليا كان يعمل جاهدًا على لعب دور حمامة السلام، كما لو كان في رجو عنا فائدة له، وهذا ما منعني من أن أطلب منه مراقبتها.

- وهو كذلك، أرجو أن تعذرني على فضولي، وأن تكون واثقًا أنني لن أعارض طلبك.

ثم حيّاه منصرفًا لبدء مهمته، ثم دخل الساعي لأخذ ما فرغ من أكواب وخرج مرة أخرى ليجري (سيف) اتصالاً هاتفيًا آخر، لم يقل خلاله سوى جملة واحدة ولم ينتظر أيضًا لأي ردّ من الطرف الآخر:

- دكتور اسمه سيد عبد المنعم يعمل في مصلحة الطب الشرعي.

ثم قام بمكالمة هاتفية أخرى لجهة عليا، من أجل الحصول على إذن بالولوج للشجرة للتأكد من هوية شخصٍ ما بدأ (شاهر) للتو في مراقبته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنا أيضًا لا أفهم، ما الشيء القادر على إخافتك لهذه الدرجة؟! -

- الصُدف..

- كيف؟! -

- قضية المعصرة.. أنا كنت على معرفة سابقة بالقتيل وكانت هناك خلافات بيننا.

- اسمح لي يا فندم.. أنا لا أرى أي مشكلة في ذلك.

حينها زفر (سيف) ثم شهق عميقًا استعدادًا لما سيقوله صراحةً:

- ليس هناك مشكلة لو لم أكن أنا قاتله.

فلم يسع (رفعت) القدرة على أي ردة فعل مُقررًا الصمت انتظارًا لإشباع فضوله بمعرفة كافة التفاصيل.

- هو أحد الثلاثة الذين يجهل الجميع أنني قاتلهم، وكان يساومني بخصوص علاقتي بالاثنين اللذين سبقاه، وقلت بذلك بعدما تيقنت أنه الحل الوحيد لإسكاته... أتذكر حديثنا منذ سنوات حين قلت لك إنني أطمح أن أكون وزيرًا وردك عليّ حينها؟

- أتذكر بالطبع.. قلت إنه ليس بالصعب عليك..

فتهد سيف قائلاً:

- الواقع أنه صعب، وما من الممكن ألا تصدقه أنه حين حديثنا كان الأمر صعبًا أيضًا..

- لا أفهم..

- كنت دائمًا على يقين أن هناك مَنْ يقوم بجريمة كاملة وعقله قادر على الإمام بكل التفاصيل وطمس ما يجب إخفاؤه وكنت أعتبر نفسي أحدهم، ولكن حينما اكتشف العمال الجثة وقام المعمل الجنائي بتحديد هوية المقتول اكتشفت مدى غبائي، وأن هناك بعض الأمور كان يتوجب عليّ القيام بها ولكني لم أفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ما يقارب الأسبوع من زيارة (رفعت) الأخيرة الى (داليا)، تقدمت السيدة (إيمان عبد الوارث محمود) بتحرير محضر في قسم شرطة النزهة بخصوص تغيب زوجها عن المنزل ومحل عمله لمدة يومين، وظل هاتفه مغلقًا طيلة هذه الفترة حتى قامت مباحث الاتصالات بتحديد آخر موقع للهاتف الذي وُجد ملقىً تحت سيارة متوقفة عن الاستخدام بمحيط ميدان الجزيرة، وقام مكتب النائب العام بنشر صورة المتغيب في بعض الجرائد الحكومية؛ وكان اسم المتغيب... الدكتور (سيد عبد المنعم محمود).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(29)

دقت الساعة الواحدة ظهرًا ومازالا جالسين يتحدثان فيم تقرأه هي، متعجبة من كل ما فوجئت به غير عالمة بأن العبرة بالخواتيم.

- لكم اشتقت لحرارة الشمس على جسدي!

قالها العجوز بعدما أنهت حديثها عما كانت تقرأ.

- أتود الخروج إلى الشرفة للاستمتاع بها؟

- لم لا نخرج للتمشية قليلاً؟ وحينها أقص عليك قصة غير مكتملة، أمل أن تنتهيها أنت بالنهاية العادلة.

- لا أمانع، ولكن...

قالتها مبتسمة لعلمها بما سيقوله بعدما يعلم فيما تخطط.

- ماذا؟

- بعد أن أعطيك الدواء.

- يا إلهي، أصبحت مؤخرتي كالإسفنجة من كثرة ثقب المحاقن.

- كفالك اعتراض، هذا الأمر غير مطروح للمناقشة.

- مهلاً.. من منا موظفٌ عند الآخر؟

فأجابت بذات الابتسامة:

- أنا...

- ممتاز، إذًا فبصفتي صاحب العمل لن أمرك، بل أتوسل إليك أن ترحميني، فقد اشتقت لعدم الجلوس مائلاً..

كانت قد قامت بالفعل بتجهيز المحقن وساعدته في الوقوف والاستناد إلى الحائط وقالت:

- ولأنك لم تأمرني فأنا لن أفعل..

- آه... آه... آه...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال دقائق قامت (كارول) بتغيير ملابسه ثم تغيير ملابسها استعدادًا للتنزه، نزلت بواسطة المصعد وخرجت للتمشية والاستمتاع بشمس الظهيرة ببوليفار تفيرسكوي الذي يحفه صفين من الأشجار يميناً ويساراً، ويأتيه مرتادو مدينة موسوكو من السائحين كونه أقدم البولفارات في تاريخ روسيا بمبانيه الكلاسيكية، مرا ببلوطة بوشكان ومعبد القديس يوحنا ليقوم (غلووش) بتوجيه كرسيه نحو المعبد والنظر إلى الصليب أعلى قمة برج الكنيسة.

- اشتقت كثيراً لجلوسي أمام الأب والبكاء على خطاياي.

- الكنيسة على مقربة.. أتود الذهاب!؟

شعرت بسذاجة سؤالها ثم فوجئت بموافقته رغم ظننا عنه بأنه شيعي، ناهيك عن خلو قصره من أي صورة أو تمثال أو صليب كعادة المسيحيين.

- نعم، لكم اشتقت للصلاة أيضاً.. اشتقت لسماع صوت جرس الكنيسة.

- ولكن...

- اطمئني، فدخول غير المسيحيين للكنائس بجميع أنحاء العالم لم يكن أمراً ممنوعاً، بإمكانك الدخول رغم أنني على يقين بأن هذا الشيء لم يكن سبب ترددك.

لم يكن يتحدث عن نفسه فقط وهي لم تكن قلقة بشأن دخولها؛ ولكنها تعجبت من كونه يعرف بأنها غير مسيحية ولم تبدأ بالعمل معه سوى منذ شهور معدودة، غير عالمة بأنه على علم أيضاً بأصولها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح يوم ملبّد بالغيوم استيقظت (أباجيل) في بيتهم القديم بعدما قامت الكنيسة بتجديده من أجل أخيها (أوريل)، كان وداع (بابلوبينو) لهما وداعاً حاراً تدمع له العيون حين ترى بكاء (بابلوبينو) ونشيجه كصفيّ فقد حيوانه الأليف ويعلم بأنه لم يره مرة أخرى.

- المسافة بيننا لست ببعيدة، سأتي لزيارتك وسأنتظر زيارتك لنا.

قالها (أوريل) ناظراً إلى (بابلوبينو) جاعلاً إياه يتمكن من قراءة شفتيه، ليرد (بابلوبينو) فرحاً:

- حقاً!! ستكون أسعد أوقاتي التي أقضيها معك أيها الصديق.

لم يدع (بابلوبينو) (أوريل) بالصديق من دون أن تحمل هذه الكلمة معناها؛ فطيلة الفترة التي قضياها سوياً كان (أوريل) نعم الصديق له إن لم يكن أعلم بأسراره كأب اعترافه، فاعتاد أن يدعو ويصفه بالصديق، ولم يعد لـ (أوريل) وجود بعد ذلك.

مرت شهور على الأخوين في منزلهم الجديد، استيقظت (أباجيل) على صوت طرقات (بابلوبينو) الذي أتى في موعده الأسبوعي المعتاد، فقد اعتادوا جميعاً على الإفطار سوياً قبل أن يحين موعد بدء (بابلوبينو) في أعماله بالكنيسة، أتى القس الضخم إليهم بعد مروره بسوق المون لشراء ما يلزم للإفطار، لبن، طحين، تفاح وعنب مجففين، وزجاجة من عصير التفاح المركز، ومسحوق القرفة التي يحبون جميعاً رائحتها النفاذة.

رحبت (أباجيل) به ثم دخلت لغرفة أخيها لإيقاظه ولكنها لم تجده، ظنت أنه بالمرحاض ولكنها لم تجده أيضاً، وعند خروجها لتبحث عنه بخارج المنزل وجدت (بابلوبينو) جالساً وقد غلبه النعاس كذب الباندا، وبالخارج رأت أحد الجيران ينزه كلبه فسألته إن رأى أخاها.

- رأيت منذ ساعة تقريباً ذاهباً ناحية المقابر.

بدون ردّ منها وبدون أن تعباً لباب البيت الذي تركته مفتوحاً أو بالنائم داخلاً، ودون أن ترتدي ما يقي قدميها الحافيتين قساوة الطريق، جرت مسرعة للبحث عنه والاطمئنان عليه بعد خروجه من دون إعلامها على غير عاداته، متسائلة عن سبب ذهابه للمقابر بمفرده، وهي التي طالما دعتة للذهاب معها ولكنه لم يذهب في أي مرة.

قبل ساعة تقريباً وصل (أوريل) إلى المقابر وتوجه ناحية شاهدي قبر كلٍّ من أخيه ومربيته، وجثا على ركبتيه.

- آدم.. تايبثا.. اغفرا لي تأخري عنكما اليوم واعذراني، وأعدكما أنني لن أتأخر مرة أخرى، كنت بالأمس أفكر بكما وأتحدث إليكما كعادتي، وحين غلبنى النعاس رأيتكما مع أمي وأبي تتظرون إليّ بغضب... أبالفعل أنتما غاضبان أم أن ما رأيته لم يكن سوى أضغاث أحلام؟! أرجو ألا تظلا غاضبين بسببي أو لأي سبب آخر، فقد جئت اليوم أبشركما بما أنتويه حتى ترضيا عني أبداً، ولكم كنت أرجو أن تكون قبور والديّ بالقرب منكما حتى يسمعا ما أقوله..

قام واقفاً صامتاً لدقائق لم يقم بشيء فيها سوى البكاء، ثم مسح ما سال من دموع على وجهه وأكمل حديثه لمن لن يسمعا:

- لم يكن موتكما أو موت والديّ من دون سبب أو فاعل.

في هذا الحين كانت (أباجيل) لا تزال تجري غير عابئة لألم قدميها.

- فكل حادثة يتسبب فيها شخصٌ أو حدثٌ آخر..

(أباجيل) تتعرقل.

- وحوادث موتكم تسبّب فيها أشخاصٌ..

(أباجيل) تسقط فتدمي ركبتيها.

- الصرب قتلوا أبي وأمي معه.

(أباجيل) تصرخ من الألم وتتهض.

- وإن لم يوجد هذا الجزار اليهودي لتمكنت من إنقاذك يا تايبثا.. ولم يميت آدم حينها.

(أباجيل) تواصل جريها بخطواتٍ بطيئةٍ وتهتف «يا الله».

- لذلك سأجعل نفسي سبباً في ألا ينعم أيُّ يهودي أو صربي في حياته.

(أباجيل) تبكي من الألم والخوف، بينما أخوها يجثو مرةً أخرى على ركبتيه محتضناً شاهد قبر أخيه كما لو كان هو قائمٌ بذاته.

- آدم غدّ يا آدم وسوف نذيقهما الويل سوياً..

(أباجيل) تصل إلى المقابر وتلمح أباها من بعيد بين شواهد القبور، ثم تقف لتريح جسدها أخيراً وتتحسس ركبتيها الداميتين، بينما (أوريل) يقف ثم يجثو مرة أخرى أمام شاهد قبر مربيته.

- تابيثا.. لماذا تركت الموت يحرمني منك؟

(أباجيل) تصرخ باسم أخيها حين رآته يسقط ووجهه يلامس العشب.

- تابيثا.. لقد فقدت فطيرة التفاح لذتها من دونك.

اقتربت منه (أباجيل) تحتضن أباها وهما يبكيان.

- تابيثا..

- كفى يا أوريل.. كفى.

تركها وتوجّه لشاهد القبر مرة أخرى صارخاً:

- يا تابيثا.. قومي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيام مرت فأسابيع، ثم شهور وسنوات، كبر فيها الأخوان وعرف (أوريل) خلالها قدراته التي اكتسبها، قراءة أفكار الغير و زرع أفكاراً أخرى في عقولهم، قدرته على التنبؤ بالأفعال من قبل حدوثها وما سيُقال قبل أن ينطق به لسان، والعكس في نجاحه في إيصال ما يريده للآخرين من دون قوله بزرعه للفكرة، وأكبر مثال على ذلك قدرته على التعامل مع (بابلوبينو) الأصم.

فقرهما من بعد احتراق كل شيء لم يكن عائقاً عن حُلم كل منهما في أن يصبحا طبيباً وممرضة للعمل على تخفيف آلام الناس ومداواتهم، وأيضاً لم ينسَ الصديق يوماً هدفه... الانتقام لمربيته وأخيه ووالداه.

التحق (أوريل) بجامعة ميونخ عام 1930 ليلتقي بمن سيلازمه جزءاً كبيراً من حياته وانتقامه.. (جوزيف مندل).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(30)

- نهاية الحوار.. أنا أعرض عليك النعيم المعروض على جنود الحدود رغم اختلاف الأدوار، وسأعطيك فرصة للتفكير كقبل، وأنا على يقين أن عقل الأستاذ بداخلك لن يُخيب ظني، وستأتي غداً موافقاً على عرضي.

فقام الضيف من دون أي ردٍّ، أو بمعنى آخر كان ردهُ كلمة واحدة:

- لا.

صمت دهرًا ونطق كُفراً، نعم يا هذا فأنت كافرٌ، وأيُّ كفر!! فقد كفرت بالنعمة التي وددنا أن نغمرك بها. رفضت معونتنا لك لتعيش حياة كريمة باتساع تجارئك، أمس.. كانت تتحصر في تجارة الفحم وغداً تتسع بسلعنتين استهلاكيتان أخريين.. السلاح والمخدرات. ماذا؟! تجارة غير مشروعة!! لم يكن هذا من شأنك، أنت ستقوم.. أو ما كنت ستقوم بعمله كنت ستُعطي عليه أجرًا، لم تكن عُرضة لأي مخاطر وأنت معنا.. منّا، كنت فقط ستقوم بنقل حمولاتنا بوسط حمولات الفحم خاصتك عبر المحافظات، ولكنك بفعلتك هذه تعرّض نفسك لكل المخاطر.. تخيل كل وسائل التعذيب المبتكرة مجتمعة في مكان واحد من أجل شخص واحد.. هو أنت.. أراك تزفر مستريحًا ولكن يؤسفني أنك لن تُعذب بتلك الأساليب الرخيصة؛ فنحن نعذب بسلاح واحد يترك أثره في نفسك طوال ما تبقى لك من عمر.

- اذهب إلى بيتك سريعًا يا عزيز، فأنا دعوت نفسي لشرب الشاي معك.. من يد زوجتك.

لم يعبأ بلهجة التهديد الموجهة له، ظنها كلامًا يقال بلا تنفيذ، ظنها اختبارًا من شخص بعيد كل البُعد عن أي فساد؛ ولكن شكرًا للقلق الذي جعله يتقدم قليلاً.

ابتاع في طريقه بعض الحاجيات من لوازم المنزل، ثم عرج لشراء قطيطة من الفرو لطفلته، تُعد من أحدث صيحات ألعاب الأطفال بشعرها الكثيف الناصع البياض وعينيها البرتقاليّتين وصوت المواء الذي تصدره عند الضغط عليها.

وقبل عودته للمنزل مرَّ بأحد الأكشاك ليجري مكالمة هاتفية بشريكه.

- يا نوبي.. الضابط الذي اسمه سيف هددني تاني.

- والعمل يا أخي.. كل الذين يعرفونه يقولون إن نابه أزرق ولا يستطيع أحدٌ معارضته.

- العمل عمل ربنا.. المهم ليلي وأمها أمانة في رقبتك لو أصابني أي شيء.

- بعد الشر عنك.. أنت من المؤكد أنك تعلم أن ليلي بالنسبة لي كرفعت، وأمها أختي التي لم تلدها أمي.

- أدام الله محبتنا.. ما هذا الصوت؟ هل ليلي عندكم؟

- نعم.. تريد أن تحدثك.

- يا بابا.. متى ستجيء؟

- في الطريق يا حبيبتي.. قولي لي هل حفظتما أنت ورفعت الأغنية الجديدة؟

- أيوه يا بابا.. اسمع.. «آآي ويز فايف اند هي ويز سيكس.. هي رود هورس إز ميد أوف ستيكس.. هي وور...»

- شاطرة يا حبيبتي، سأسمعها كاملة حين أجيء.. قولي لعمك إبراهيم أن يأتي بك للبيت.. سلام.

لم تكن ابنته في سنّ تجعلها تعي قلق أبيها من المجهول، وأن طلبه منها في الرجوع إلى المنزل بصحبة (النوبي) رغم أن المسافة لا تتعدى المائة متر سببه الخوف، وهو لا يعلم بأنه لن يتمكن من معانقتها مرة أخرى، لن يتمكن من مداعبتها، من تقبيلها، من دغدغتها، ولن يسمع منها الأغنية كاملة.

حين دخل من باب بيته سمع صوت همهمات خفتت تدريجياً، ليبقى صوتٌ أنينٍ مكتوم وكأنها صرخات شخص بغم مُكَمَّم؛ فترك الباب من دون أن يغلقه، تقدم ليجد الضابط المدعو (سيف) وبصحبه رجلان آخران في ملابس صفراء تشبه ملابس رجال الإطفاء، ومن بينهما علم مصدر الأنين حين وجد زوجته مُفَيَّدة على كرسي خشبي، تبكي فتبلل دموعها الرباط القماشي المكتم فمها. اقترب صارخاً اسمها:

- داليا!!

فبادره (سيف) بضربة طرحته أرضاً وقام الآخران بتقييده وتكميم فمه من بعد مقاومته، بركل ولكم ذوي الملابس الصفراء.

- قلت لك تكون معنا.. لكنك عنيد.

قالها (سيف) وأشار للرجلين إشارة فهماها، واستلا من حقيبتهم نصالاً لامعة يعكس بريقها الضوء بآبهار، كما لو كانت صنعت للثو كما تبين لعيني (عزيز)، وظنّ للحظة بأن لو كان هؤلاء الرجال ألبين وليسوا بشر لفكروا مراراً وتكراراً حتى يعزفوا عن إلحاق الأذى بزوجته.

مدّ أحدهما نصله فوق رقبة الزوجة مداعباً ليرسم خطأ وردي اللون، أخذ يتسع ويزداد دكونة كما لو كان منبع الظلام، ظلام يزداد ليسحب روح الضحية، وفي الخلفية صوت النصل يحز رقبتها بغير رحمة، بينما الزوج يقاوم قيوده حتى غاب عن الوعي.

لم يعلم أيُّ منهم بأن هناك زوجين من الأعين شاهدت ما حدث للثو؛ فحين أتت ليلي بصحبة (النوبي) سمعا صراخ (عزيز) باسم زوجته، فأشار (النوبي) إلى (ليلي) بسبابته أن تصمت، وحين اقتربا كان العرض قد بدأ.

كان آخر ما رأيته الضحية هو عينا ابنتها الباكية بغم مُكَمَّم، وهي تحاول الصراخ بينما يد (النوبي) مكمة فمها دون أن ينتبه أنه يغلق فتحتي أنفها في الوقت ذاته، فتحفزت خلايا المخ للعمل بسرعة مضاعفة لالتقاط ما باسطعتها من الأكسجين، ويقل الأكسجين تدريجياً لتعلو سرعة خلايا المخ حتى ظهر أمامها ثقبٌ أسود صغير أخذ يتسع تدريجياً حتى ابتلعها مغيباً إياها عن الوعي.. ظلام آخر.

رأت فيما يشبه اللحم طيفَ أمها بملابسٍ بيضاء تنظر إليها بعينين أدماهما الدمع رغم أن وجهها محتفظٌ بابتسامته، يقف بجوارها أبوها بملابس حمراء وعلى وجهه نفس التعابير. اقتربا منها وأشار كل منهما بيمينه إلى جبينها لينتقل شيء على هيئة كرة من الضوء، ومن ثم اختفيا لتبقى وحيدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهو في بحر من الظلام انفرجت كوة في مكان بعيد تمده بالضوء، ولكنها ما لبثت لثانية من الزمن حتى أغلقت مرة أخرى، انفرجت كوة أخرى في موضع مجاور لها، ثم انغلقت هي الأخرى ومن بعدها بدأت الكوتان في الانفراج والغلق وفي أذنيه صوتٌ صراخ. تُركم أنفه رائحة الدم النفيس لحبيبتة، اتضح له بأن الكوتتين هما عيناه اللتان تجاهدان في التقاط ما حولها في محاولة من جهازه العصبي في مقاومة الإغماء، بينما صوت الصراخ هو صوت سيارة الشرطة القادمة من أجل جريمة قتل زوجته التي أصقت به.

اقترب من كومة يابسة في منتصف بركة من الدماء، كانت زوجته قبل دقائق، بينما رجال الشرطة يقيدونه بعدما وضعوا الأصفاذ في يديه وهو يهتف:

- أقسم بمن زرع حُبك بقلبي إنني لن أترك تارك حتى ولو بعد موتي.

ولم ينطق لسانه بأي حرف من بعدها سوى مع شخصٍ واحدٍ كان وما زال بمثابة أخ له بجانب الشراكة في التجارة بينهما، لم ينكر التهمة الموجهة إليه حين أجرت النيابة تحقيقها معه.. وحتى يوم المحاكمة.

كمعارض لنظام الحكم؛ تم وضع الأصفاذ في يديه من بعد نُطق القاضي بالحكم النهائي عليه، كئثار على حكم الملك لويس السادس عشر يقوده الحرس إلى الباستيل للعقاب.

أهو السجن مدى الحياة؟! أسيقتادونه إلى ميدان الجريف ليربطوا أطرافه ويشدوها ليتم تفسیخه كما حدث مع الراهب چاك كليمان إثر قتله للملك هنري الثالث؟! ولكننا الآن في القرن العشرين، وفي مصر.. فأی نوع من العقاب سيصيبه هذا ما يقرره القضاء عادة..

قبل النطق بالحكم قام (النوبي) بزيارته في سجنه. تعانقا متيقنين بأنهما لن يتعانقا كأخين مرة أخرى.

- ليلي.. كيف حالها؟.. أفنقدها كثيرًا.

- لم تنطق بكلمة واحدة.. فقط تأكل وتشرب بعد ضغطنا عليها.

- آه يا ابنتي.. يا ليتها أغمى عليها مثلي ولا كانت رأت ما رآته.. ليلي أمانة في رقبتهك يا نوبي.

- ليلي أمانة سأسلمها لك في يدك لحظة خروجك سالمًا..

- أنصت.. من غير المستبعد أن يقوم سيف بأذيتتها، فخذها إلى بيتي بغرب سهيل، وادع أنها ابنتك.. فالناس هناك لا يعرفونني.

- إذا سأقوم بما تأمر به.

ومن ثم ساد الصمت بينهما لدقيقتين، قطعه النوبي قائلاً:

- يبدو أنك تريد قول شيء، ولكنك لا تعرف من أين تبدأ.. ما الأمر؟

- عدني أن تربي ابنتي على ألا تترك حقها في الانتقام ممن حرمها من أن تعيش بين أبوين أحباها، وأن تأخذ بالثأر ولو بعد مائة عام؛ ولكن دون أن تظلم أحداً أو تجور على حق أحد...

- ياخوي مصيرك تخرج لها سالماً، فقل لها ما تريد و...

- يا نوبي الله يرضى عليك اسمعني ولا تقاطعني، يجب ألا تتكرر زيارتك لي حفاظاً على سلامة ليلى وسلامتك، فيجب أن تقوم بما سأقوله لك بالحرف الواحد حتى يبتعد سيف عنك.. وسامحني.

وفي الخارج بعد دقيقتين انتبه الحرس لحدوث جلبة بالداخل مصحوبة بأصوات صراخ، ليفاجأوا عند دخولهم بعزيز ممسكاً بتلابيب النوبي، مكيلاً له اللكمات والركلات حتى سال الدم من وجهه ومناطق أخرى بجسده، فحالوا بينهما بصعوبة ثم خضع النوبي لفحص طبي لتحديد مدى إصابته.

بعد أيام صدرَ الحكم النهائي على (عزيز) بإحالة أوراقه لفضيلة مفتي الديار المصرية، ليتصدر هذا الخبر الصفحة الأولى في أغلب الصحف اليومية الموجودة في ذلك الحين والذي كان فحواه:

«إنه في صباح أمس التاسع من مارس كانت آخر جلسة في قضية العصر؛ الجلسة التي ترأسها السيد المستشار (فلان الفلاني) بالنطق بالحكم على المتهم (عزيز عيسى) الطحان بالإعدام شنقاً بسبب قتل زوجته، ومن الواضح أن المتهم قد تجرّد تماماً ونهائياً من ضميره وإنسانيته معاً ليقوم بتلك الجريمة البشعة، فقد قام بتقييد زوجته بأحد الكراسي وقام بحزّ عنقها حتى انفصلت الرأس عن الجسد لتفارق المجني عليها الحياة. ومن الجدير بالذكر أن طفلهما الوحيدة ذات الأربعة أعوام متغيبه منذ صباح يوم الجريمة، وذلك بشهادة كل من السيد (إبراهيم سعيد الفرماوي) - جار المتهم وشريكه في تجارته - وشهرته (إبراهيم النوبي)، وزوجته؛ وقد رجّحاً بأن ذلك المخبول - المتهم - قد يكون فعل بها مكرهاً، ومن الجدير بالذكر أيضاً أن (النوبي) قد زاره في محبسه في أمس الأول وهي الزيارة التي انتهت بصفع المتهم للنوبي على وجهه، وقد كيّل له أيضاً العديد من اللكمات والركلات التي نتج عنها تمزيق جلبابه في الوقت الذي تمكن فيه رجال الأمن من الفض بينهما وإنقاذ (النوبي) وتحويله إلى مستشفى (...). لفحصه ومعرفة إذا كان ما حدث يستلزم أكثر من واحد وعشرين يوماً للعلاج أم لا..

نهاية..

يحيا العدل الذي يقضي ويعاقب هؤلاء المخابيل الذين تجردوا من إنسانيتهم...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(31)

بعد إحدى جلسات التجارب التي يجريها (مندل) والصدّيق بعنابر اليهود، رجع الأخير إلى قدس الأقداس ولم يتفاجأ مما رآه.. وجد (غلوشكو).. الفأر البائس الذي تجرأ بالتسلل إلى جنة عدن بدون استحقاق، تفاجأ بضبط الصدّيق له وهو يتصفح الكتاب ذا الغلاف الجلدي الذي يقوم الصدّيق بتدوين يومياته وأهدافه به.

يتعالى تدفق الأدرينالين من الغدتين القظريتين، مما يزيد الصدّيق قوة من خلال تشممه لرائحة الهرمون المنبعثة من فوق كُليتا غريمه المائل أمامه، وقفا متقابلين بجسديهما المتطابقين كجسدٍ وانعكاسه في مرآة، ولو تمكن فرانز غال(11) من رؤيتهما لعجز عن وجود فارق بينهما، فقط ملامح وجهيهما.

- المعرفة شيء جيد لمن يستحقها ويحسن استخدامها بالشكل الصحيح، فهي كالنار، حين يلهو بها الأطفال تحرق أياديهم، أو تحرقهم أنفسهم وكل ما حولهم، فتخرج النار عن السيطرة ويصبح احتواؤها مستحيلاً.

قالها الصدّيق بصوتٍ هادئٍ، وبنبرة ثقة زادت غريمه توتراً، ثم استطرد قائلاً:

- دائماً ما يظن اللص بأنه سينجو من العقاب حين تخطيطه لما سيقوم به، أيّاً كان مدى ذكائه ومدى إحكامه لخطة؛ من المؤكد أنه قد يخطو ولو خطوة واحدة جهة العقاب الذي ينتظره.

حينها توجه إلى أحد رفوف مكتبته وأخذ كتاباً متوسط الحجم ذا غلاف صلب أحمر اللون، طُبع عليه بحروفٍ لاتينية كلمة «Prometheus»، ثم وضعه على المنضدة على مرأى من (غلوشكو) الذي ما زال واقفاً بجسد متصلب كصنم نُجت بداخل جدار. ثم قام الصدّيق وخرج لإحضار الحارسان اللذين قاما بضربه وتقييده من دون أي مقاومة في المقابل، وكأنه مُنوم مغناطيسياً.

الحارسان يجرونه والدماء تسيل من مواضع ضربهم له، وحينها كان (مندل) قد أتى بعد انتهائه من جلسة تجريب أخرى أجراها بمفرده؛ فجلس على واحدٍ من الكرسيين اللذين وُضعا بالساحة الخارجية استعداداً لإجراء المحاكمة، حتى أتى الصدّيق ليجلس بجواره ويقص ما حدث للجميع.

حينما اقترب (برومثيوس) من نار المعرفة، عوقب بأن يأكل الرُخ كبده، ويعاود الكبد النمو في بقية اليوم ليأتي الرخ لأكله مرة أخرى، وهذا ما سيحدث مع (غلوشكو) عند دخوله حقل التجارب.. ستفتح بطنه بقدر يسمح بخروج الكبد واستئصال ما يزيد عن نصفه، مع شيء من الرحمة بأن ذلك سيتم تحت تأثير المخدر، ولكن هدف المخدر هو أن لا يشعر بالألم في الحين ذاته الذي سيظل فيه على وعي بما يحدث، يشاهد أحشاءه خارج بطنه والكبد على أهبة لفقد ما يزيد عن نصفه، سيسمع صوت المِبضع يحز الأنسجة وصوت قطرات الدماء المتساقطة على الأرض، سيرى الجزء المستئصل يُلقى في النار محولاً لون اللهب إلى الأزرق، وسيعيش لينمو كبده.. ويُستئصل مرة أخرى.. بل مراراً.. وتكراراً.

تحدثت (أباجيل) لأخيها في محاولة فاشلة في التصدي له وجعله يتراجع عن قراره، وفي اليوم التالي تم تجهيز (غلوشكو) للاختبار، الذي لم يكن كأى اختبار يخضع لتعقيم أو عزل، فقد قرّر الصديق إجراء الاختبار بداخل قدس الأقداس.

انغرست إبرة المحقن في ظهره محدثة ألم من النادر أن يشعر به أحد ويظل على قيد الحياة، وبدون أن يتأوه تبعاً لما زرعه الصديق في عقله استلقى على المحفة مستسلماً، قم قام الصديق بتقييده ومن ثم بدأ العزف.

حينما أمسك بالمشرط تمنى (غلوش) أن يغيب عن الوعي، وزاد تعلقه بهذه الأمنية حينما سمع صوت تمزيق الأنسجة ورأى الدماء تسيل. شاعرًا بالخوف من دون أي ألم كشخص مشلول كليةً، فأغمض عينيه لثوانٍ مرت عليه كسنوات، فتحها مرة أخرى ليجد أحشاءه خارجًا والصديق يستصل الجزء المطلوب، حينها فقط.. فقد وعيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كصقر طائر في الأعالي يرصد حركة فرائسه على الأرض، ويرى قطارًا بخاريًا فائق السرعة رغم أنه يبدو عتيقًا، يجتاز الطرق البرية، ويجتاز الأنهار على جسر شاهق الارتفاع كحافة الهاوية، وفي لحظة يُعم الظلام داخل القطار إثر دخوله نفق في باطن أحد الجبال، وداخل القطار على ضوء شمعة وحيدة يتراقص لهبها أفاق (غلوش) متشممًا رائحة شواء تبدو للحماً شهياً، ازادت من جوعه فازرد ريقه وتحركت أمعاؤه مطالبة بحقها في الوقود.

وتحت دائرة الضوء الضيقة تبين له وضع طبق معدني بداخله طعام ما ذا رائحة فواحة، يبدو وكأنه قطعة لحم، طازجة، شهية، وهناك يد شخص ما، إحداها ممسكة بسكينة والأخرى ممسكة بشوكة تلتقط اللحم مرسله إياه لغم صاحبها، فرح (غلوش) وطرب قلبه ظناً منه بأن الحرب انتهت وأنه في طريقه بواسطة هذا القطار إلى الأراض السوفيتية، وأن الجالس أمامه مبعوث من حماه الجنرال (ثيودور الينوف)، إن لم يكن هو بشخصه.

- لم أظن يوماً بأنك على هذا القدر من الضعف.

قالها صوت الجالس أمامه في انتظار ردٍ لم يأت، فأكمل:

- منذ ما رأيتك وأنا على علم بما تنتويه.. كان بإمكانني الوشاية بك لدى السلطات المختصة في التحقيق مع أمثالك، ولكني فضلت التكتّم من أجل الوصول إلى هدفي.. أن أصبح الحاكم في أمرك.

تراقص لهب الشمعة وكادت تتطفئ.

- فضلت التكتّم من أجل في أن تكون ثالثنا.. كما كنا ثلاثة من قبل، كنت سأستعويض بك عن من هو أفضل منك، ولكن غباءك هو ما دفعني لمعاملتك كفأر تجارب.

حينها قام صاحب الصوت بتقريب الشمعة تجاهه بعدما نحى طبق الطعام جانباً، أضاعت الشمعة وجهه ثم أضيء القطار بالكامل من بعد خروجه من النفق، ولم يكن صاحب الصوت (ثيودور) أو مبعوثه.. لم يكن صاحب الصوت سوى.. الصديق.

تبين لـ (غلوش) مظهره المختلف، فقد كان وجهه متوردًا حليقًا بعدما اعتاد أن يراه مطلقًا لحيته، ويرتدي بذلة كحلية اللون ذات خطوط متقاطعة من لونين من درجات اللون الأزرق وصديري من نفس اللون، تحتها قميصًا بنفسجي اللون داكن، ورابطة عنق سوداء، ومن الجيب العلوي للمعطف تدلى طرف منديل حريري أسود اللون مرقط باللون البنفسجي.

وتحت الأضواء النقط الصديقُ قطعةً أخرى من اللحم ووضعها في فمه، تساقط عنها قطرة من صلصة غليظة القوام بلون الدم، بل تساقط عنها قطرة دم. أمعنَ (غلوش) النظر في طبق الطعام وعلم أن ما بهه لم يكن لحمًا، بل قطعة كبدٍ نيئة، فما مصدر رائحة الشواء؟! تذكر موضع كبده الذي رآه وأحشاؤه خارجة من خلاله وتحسسه لا إرادياً؛ فأحس بببل في أنامله من سائل غليظ يسيل من وضع الجرح، ليفهم حينها تدريجياً أن السائل اللزج هو دمه.. الجرح لم تتم إخطته.. ما يأكله الصديق هو كبده.

لم يكن يعلم أنه يحلم، ولكنه عاد بوعيه واستيقظ رأى أن أحشائه ما زالت خارجة، في غير موضعها والصديق ممسك بالجزء الذي تم استئصاله من الكبد منذ ثوانٍ مرّت عليه كساعة في كابوسه، ولكن ما أدهشه تكرار حوار الصديق له بما كان يحدثه له في الحلم.

- لم أظن يوماً بأنك على هذا القدر من الضعف.

قالها الصديق والدم يتقاطر من يده الممسكة بالكبد متوجّهاً إلى المدفأة.

- منذما رأيتك وأنا على علم بما تتويه.. كان بإمكانني الوشاية بك لدى السلطات المختصة في التحقيق مع أمثالك، ولكنني فضلت التكتّم من أجل الوصول إلى هدفي.. أن أصبح الحاكم في أمرك.

يتراقص لهيب المدفأة ويخفت تحت وطأة الكبد الملقى بداخله، فيتأرجح وينمو تدريجياً ولونه يتحول من البرتقالي إلى الأزرق.

- بل فضلت التكتّم من أجل أن تكون ثالثنا، كما كنا أنا وأختي وأخي آدم.. ولكن من المؤكد أنني أخطأت في الاستعاضة عنه بك معتبراً أن تقارب الملامح يكفي.

حينها كان متوجّهاً إلى حوض المياه بعدما أرجع الأحشاء بموضعها أمراً مساعده بإخاطة الجرح وقام بغسل يديه؛ فنظر (غلوش) متحدياً غشاوة عينيه التي استكانت تدريجياً منقشعة، ليرى وجه من يقوم بإخاطة الجرح.

بدا وجهه مألوفاً وهو يبتسم ابتسامة صفراء.. ولم يكن المساعد أحدًا غير (مُردخاي).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(32)

كالحبيسة داخل سجن بلا جدران قضت الفترة المنقضية لم ترَ وجه أيِّ إنسانٍ سواه، يأتي إليها يوميًا بالطعام والمشروبات فلا تمس أيًا منهم حتى يصيبهم الفساد، عقلها أدرك مؤخرًا وتمكنت من الكلام مؤخرًا أيضًا بعدما أتمت الرابعة من عمرها، أسابيع عديدة قضتها محتضنة آخر هدية من أبيها، يوميًا يقضي معها (النوبي) وقتًا كبيرًا مقارنة بما يقضيه في منزله. في محاولاتٍ عديدة لجعلها تعاود التحدث.. الغناء.. الضحك.. أو البكاء، ومعاودة ممارستها للحياة بشكلٍ طبيعي باعت جميعها بالفشل، نحف جسدها ولولا رشفات المياه التي اعتادتها كل بضع ساعات لماتت جوعًا وعطشًا.

- كلي يا ابنتي.. أمك وأبوك في مكان أفضل من عالمنا هذا.

بداية (النوبي) في محاولته لجعلها تقوم بأي ردة فعل، رأى إدراك عقلها لما لا يستوعبه عقل طفلة في سنها... الحزن.

- يجب أن تأكلي حتى تكبري لتأخذي حَقك وحَقهما ممن فرَّق بينكم في دنيا يُظن أنها دائمة له..

ولكنها واصلت رفض تناولها للطعام، أخرجت من تحت وسادتها صورة ملونة تجمعها بوالديها في منطقة غرب سهيل، التي اعتادت خلال فترتها القصيرة من وعيها بأبويها التنزه فيها معهما.. وتذكر كلام أبيها:

- أتحبين البحر يا ليلي؟.. ما رأيك نشترى البيت الذي هناك هذا ونعيش فيه للأبد؟..

البحر.. رغم محاولات أبيها في توضيح الفارق بين النيل والبحر ظلت هي على قناعتها، فالنيل بحر والترعة بحر والبحيرة أيضًا بحر، ولكنه نجح في تعليمها استخدام الساعة والتقويم وقد استوعبت هي ذلك رغم حداثة سنها، وبينما (النوبي) جالس بجوارها قامت بحفر تاريخي موت أبويها على الحائط مستعينة بملعقة الطعام، الأربعاء الموافق الثاني عشر من يناير عام ألف وتسعمائة وأربعة وتسعون، والثلاثاء الموافق العاشر من مايو من نفس العام، وحين انتهت من الحفر أخذ (النوبي) يبسم ويسعيد بالله من الشيطان، فما رآه كفيل بقيادة أي شخص للجنون.. ليس بسبب قدرة صاحبة السنوات الأربع على حفظ هذه التواريخ وحفرها على الحائط، ولكن في كيفية فعلها لذلك من دون أن تُمسك بالملعقة... فقد كانت (ليلي) تقوم بتحريك الملعقة عن بُعد من دون أن تلمسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في موعدهما اليومي المعتاد أتى لزيارتها لتناول الغداء الصحي الذي نصح به الأطباء، قاما بتجهيزه سوياً... تتلامس خلال دقائق الأصابع في محاولة لتمهيد الطريق لجسديهما.

- سيف.. كفاك أفعال المراهقة هذه، فلم يتبق سوى شهر ونصبح سوياً.

- لا أستطيع الصبر والله، ولكني سأتحمل طالما سيضايقك.

- طبعًا يضايقني... يضايقني لأنك تظن أنني لا أنتظر مرور ما تبقى من أيام، رغم أنني أعدّها بالأيام والساعات والدقائق.

- يا حبيبتى عارف والله..

ثم انتبه لعينيهما الدامعتين فكاد أن يبكي لبكائها.

- الله.. أنتِ تبكين!!

- لأ هذا بسبب تقطيع البصل.

فضحك مصدقاً دعابتها دون أن ينتبه لعدم وجود البصل، ولم يعلم بأن بكاءها كان بسبب شعورها بالتقصير في حق والديها بعد مرور سنوات عديدة لم تتأثر خلالها.. وحينها فقط قامت بتحريك أحد السكاكين في الهواء من دون أن تلمسها موجهة إياها إلى عنق (سيف) الذي أدار ظهره إليها منهمكاً في تجهيز الطعام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(33)

ظل (غلوشكو كاسبرسكي) حبيسًا بأوشفيتز عالمًا باقتراب ساعة الصفر، لم يكف يومًا عن القيام بواجبه تجاه وطنه، رغم صعوبة ذلك تحت الضغوط الواقعة عليه وفضح الصديق - أو (أوريل)- لأمره، وكبده الذي تم استئصاله للمرة الثانية وهو الآن في طور النمو حتى يخضع للاستئصال للمرة الثالثة خلال سنواتٍ معدودة.

فصبر كثيرًا كذئبٍ في انتظار وقوع فرائسه في الفخاخ المنصوبة لها.. ثلاثة أسماء في القائمة (مُردخاي) بسبب خيانتته، (أباجيل) لجعل الصديق يفقد أعلى ما لديه، وأخيرًا الصديق.

وحين أتى السابع والعشرين من يناير.. اليوم المنتظر.. يوم سقوط أوشفيتز، لم يفضل الخروج من المعتقل والنعيم بالحرية عن الانتقام، كان قد استمد شيئًا من قوته من بعد آخر اختبار قام به الصديق عليه، وكان (مُردخاي) قد رجع في الفترة المنقضية للعمل مرة أخرى بقدر الأقداس، وكان (غلوش) على يقين بخيانة (مُردخاي) له إن لم يكن متأكدًا، بدايةً بمحاولة سكب المعدن المنصهر عليه، ثم سد فتحات التهوية بقوالب الصب، وشايبته به لدى الصديق بشأن تهديده إلى (أباجيل).

نجح في التسلل إلى قدس الأقداس بعدما علت طلقات النيران في الأرجاء، بينما الصديق و(مندل) في معسكرات الغجر، فوجد (مُردخاي) منزويًا في ركنٍ مُظلم والخوف يعلو ملامحه من صوت طلقات النيران، قام مفزوعًا حين دخل (غلوش) ظنًا أنه الصديق، وقبل أن ينتبه قبض (غلوش) على عنقه ولم يشعر الآخر بشيء سوى اختراق الصليب النحاسي المكمل لقطعة الملكة على رقعة الشطرنج لعينه اليمنى، مخترقًا إياها مفرغًا ما بداخلها من سوائل لتصبغ بقية القطع ورقعة الشطرنج بلون الدم، والصليب مكملًا طريقه مهشمًا العظم الدمعي داخل محجر العين؛ كل ذلك لم يستغرق سوى ثانييتين قبل أن يدير له (غلوش) رقبتَه ما يزيد عن التسعين درجة.. لتقارقه الحياة.

- كنت أود أن ننع بحديثنا سويًا كما الرجال، ولكن خيانتك لي هي ما قتلك.. وليس أنا.

ثم اقترب من أذنه مكملًا وهو يعلم بأنه لن يسمعه:

- أجرة الخطية الموت.. كما قال إلهك.

من ثم توجه إلى المعمل الملحق بداخل القدس، وكانت أصوات طلقات البنادق الألمانية والسوفييتية تدوي بالخارج، كان يبحث بداخل المعمل عن شيءٍ ما كما لو كان يعلم موضعه مسبقًا، وقد وجد ضالته في واحدة من أنابيب الاختبار ذات سداة فلينية تحتوي على نوع ما من السموم التي تعرف عليها في الفترة الأخيرة، والفضل يعود إلى الصديق؛ فأخرج خنجره وغمس قطعة إسفنجية بالسم السائل ومسح به خنجره، ثم انتظر حتى جف تمام وأرجعه إلى غمده، ومن ثم أخذ دفتر مذكرات الصديق، وخرج للبحث عنه و (أباجيل).

حالة استنفار عامة وطلقات البنادق تترشق في كل اتجاه ومن كل اتجاه، لم ينتبه أيٌّ من الحرس له رغم خوفه من حدوث ذلك. دخل أحد المباني في رحلة البحث، انتبه لقدم أحد الجنود الألمان فقرر الاختباء، فمرَّ بأحد الأروقة الضيقة وخلق نعليه الخشبيين وألقى بهما بعيدًا، ومن ثم تسلق الرواق عن

طريق سند كتفيه لأحد الجدران وقدميه بالجدار المقابل له حتى غاب عن نظر الآتي، شعر بألم حارق في جنبه جراء تفتح جرحه المخاط حديثاً فكاد يسقط على رأس الجندي؛ فقام بسرعة بنزع الخوذة المضادة للرصاص عنه، وخلال خمس ثوانٍ سقط الجندي بجمجمة مهشمة جراء ارتطام الخوذة بها ثلاث مرات في أماكن مختلفة.

بعد دقائق خرج (غلوش) منتكراً في زي الجندي الذي لقي حتفه للتو، حاملاً بندقيته من الطراز MG-42 المعروفة باسم منشار هتلر، ومن دون وعي أخذ يطيح بما يقابله من الجنود الألمان الذين طالما ارتعبوا من صوت المنشار.. على النقيض منه فقد كان شاعراً بأن صوته سيمفونية ألفها تشايكوفسكي يصاحبه صوت حبيبته أثناء التدريبات.

«من أقوى الأسلحة التي اخترعها الألمان هذا السلاح MG-42.. منشار هتلر، سُمي بهذا الاسم بسبب سرعته في إخراج الطلقات التي من الممكن أن تصل إلى ألف ومائتين في الدقيقة محدثاً صوت مزعج كصوت منشار السلسلة؛ ولكن من أطلق عليه هذا الاسم لم يفعل ذلك سوى بدافع الخوف من الوحش الكامن بين ذراعيه، فلو تخيل الجندي بأن الصوت الناتج عن تشغيل المدفع هو سيمفونية لتشايكوفسكي لكان أكثر شجاعة عند استخدامه».

لم يعلم يوماً بأنه سيقوم بتنفيذ ما اقترحه عليه حبيبته بحذافيره، ولكن ها هم الجنود الألمان يتساقطون بالعشرات، ولم يعطله عن إسقاطهم سوى تغيير حزام الطلقات.

بعد دقائق انتبه لخطورة موقفه وهو في زي الجندي الألماني، وإمكانية قنصه بواسطة أحد الجنود السوفييت، أو بواسطة (بروسكولياكوف). حبيبته نفسها؛ فألقى بالسلاح أرضاً بعد تأكده من خلوه موقعه من الجنود الألمان وأخذ يصيح بالروسية حتى تبينه أحد المهاجمين، والذي تأكد بأن (غلوش) لم يكن من الجنود الألمان بعدما أظهر له (غلوش) أوشام المعتقل، فتقدم به وأدخله أحد المركبات المجهزة، من أجل إسعاف جرحه النازف بشدة؛ وبينما باب المركبة ينغلق التقطت عينه الوحيدة كعين النورس شخص في ملابس المعتقلين يفر هارباً مع فتاة بملابس التابعين لهيئة الصليب الأحمر، ولم يكن يظهر على هذا الهارب علامات سوء التغذية، ومن المؤكد أنه لم يكن موشوماً كبقية المعتقلين، علم (غلوش) بشأن الوشم رغم الملابس المغطية لموضعه، علم (غلوش) بأنه لم يكن معتقلاً من الأساس علم غلوش بأنه الصديق، ورغم ذلك لم ينطق سوى بكلمة واحدة:

- سأقتلكما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نجح الصديق في الهروب بأخته بعيداً عن أراضي الحروب، وبمساعدة أحد أعوان النازية تمكن من عبور حدود بولندا إلى جمهورية التشيك تمويهاً، ومن ثم الذهاب غرباً إلى ميونخ مروراً بالنمسا.

وبعد ثلاثة أشهر من الترحال وصلاً أخيراً لبيتهما المعاد بناؤه من بعد الحريق، أخذاً يزيحان غبار السنون من فوق الأساس والأسيرة، معيدين الحياة للمنزل من بعد سنوات، ومن بعد انتهائهم وقفا ليصليا. شكرت (أباجيل) ربها على نجاتهما بينما (أوريل) يبكي متضرعاً طالباً العفو عما اقترفته يده.. نعم.. عاد أوريل يُصلي بعدما قضى ما مضى من عمره بغرض الانتقام لموت من فقدهم، غافلاً

عن وجود أخته والتي كان من الممكن أن يفقدها هي الأخرى بعدما علم بنية (غلوشكو) بأنه لن يتورع عن قتلها قبل أن يقتله.

- لماذا قمنا بصلاتنا الأولى هنا؟، أليس الأفضل أن نصلي صلاتنا الأولى بالكنيسة!

سألت (أباجيل) بعدما أنهيا الصلاة وجلسا لتناول الطعام.

- لم نصل اليوم بالكنيسة ولكننا سنصلي أسبوعياً هناك طيلة ما تبقى من عمرنا.

- أوريل.. أتذكر الأب بابلوبينو؟ من المؤكد أنه هَرِمَ، لكم افتقده.. وافتقد الجميع.

- وأنا أيضاً.. اشتقت لتعليم الأطفال والكبار.. اشتقت لتحفيظهم الآيات وتعليمهم الصلاة.. اشتقت لله.

قامت وعانقته بعدما رآته باكياً في محاولة لتهدئته.

- الرب موجود في كل حين، وما علينا سوى أن نطلبه وهو بالتأكيد لن يتركنا.. وإلا لما انتظرنا.

وفي اليوم التالي استيقظت باكراً استعداداً للذهاب إلى الكنيسة، فوجدت أخاها مستيقظ وقد ارتدى أبهى الثياب استعداداً للذهاب إلى الكنيسة كطفلٍ في ليلة عيد.

- أكنت تظن أنه باستطاعتك الذهاب من دوني باستيقاظك المبكر؟

- لم أستيقظ باكراً.. بل لم أنم في الليلة الفائتة.

- ممم.. ولم؟ أسرفت في الطعام من بعد نومي؟

فنظر إليها بوجه أوشك على البكاء قبل أن يجيب:

- خشية من الموت..

- ما هذه الغرابة في الحديث!! منذ صبانا وأنت دائماً تقول بأنه لا يتوجب على المرء أن يخاف الموت، لأنه مرحلة يجب أن يمر بها لينعم بحياة أفضل، ومن الأولى أن نخاف مما سنلقاه بعد الموت من عقاب.

- هكذا إذا.. أنسيت كم من الأمور في حياتي تستحق العقاب؟ الجحيم الأبدي ينتظرني بعد الموت، فلو تراكمت ذنوبي لفاقت الجبال علواً.

- ها أنت قد ابتعدت خطوة عن الجحيم باعترافك بأنك مخطئ، وطالما ثبتت وطلبت المغفرة فسيسامحك الله..

مسحت على وجهه بيدها الناعمة وتابعت:

- أمهلني قليلاً حتى أقوم بتغيير ملابسني ونذهب سوياً.. أحبك أوريل..

قبلته وتركته دقائق قليلة لم يبرح مكانه فيها، ثم ذهبا إلى الكنيسة وهما يترنمان بكلمات المزمور المائة والثاني وعشرون كما علمتهم تابيثا في طفولتهم.. مع أخيها آدم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



أتى اليوم الذي تنتظره أي فتاة.. فرحتها بارتداء الفستان الأبيض. شموع مضاءة وزغاريد تطلقها الألسنة من أجلها فقط، ولكن فرحة هذه العروس كانت فرحة من نوع آخر، لم تكن بسبب الفستان أو الشموع أو الزغاريد، أو ما تطلقه المغنية اللبنانية من أغاني رومانسية أضافت إلى حسابها عشرات الآلاف من الدولارات، فرحتها كانت بسبب اقترابها من هدفها التي ظلت تخطط له طيلة حياتها.. الاقتصاص من قاتل والديها.

قبل أسبوعين ظلت (ليلي) تفكر في وسيلة انتقام مناسبة. سُم.. غَرَق.. ذبح.. حرق، أحدهم أو كلهم.. يتم تنفيذ الوسيلة من دون ترك أي أدلة أو وسيلة تتبع؛ ولكنها فضلت طريقة أخرى لاقت التأييد من (رفعت) وأبيه، الذي زيف أمر موته بعدما شك (سيف) في ولاءه.

((ولكن انتبه يا سيف بك.. من يسكت عن الظلم سيطوله الظلم يوماً)).

أما فرحة (سيف) بهذا اليوم تختلف، فرحته صافية تقلب ميزان عقله وطريقة تفكيره رأساً على عقب، فقد اختلفت طريقة تفكيره عن النساء، وكان لا يعلم يوماً بأنه سيلتقي بإحداهن تستحق الحصول على مفتاح قلبه لتصبح ملكته ومالكته. وفي نفس الأثناء كان يندكر ما كان يقصه على رفعت من ذكرياته عن أمه.

«كانت تفضل النظرات عن الحديث، وكنت بالرغم من ذلك أفهم وصاياها لي لا تُصاحب.. لا تتعشم.. لا تتق.. ومع الأيام عرفت أنني بالفعل كان يتوجب عليّ ألا أثق في أحد.. كنت كل يوم يغيبه أبي أجد رجلاً غريباً ببيتنا، وكانت تدخلني حجرتي لألعب وأنا أجهل أن الباب موصل من الخارج.. أتعتقد أنني بعد أن كبرت وفهمت سأثق بأحد؟! لكن الغريب أنه حدث ووثقت في اثنين.. أنت وداليا وأصبحت لا أتخيل حياتي بدونكما.»

ولكن.. كثيراً ما يعطي الإنسان ثقته للشخص الخطأ، وإن كانت هذه الثقة سبباً في تحقيق العدالة.

وفي غرفة المكتب في عش الزوجية جلس (سيف) و(داليا) التي يعرفها، و(رفعت) وشخص آخر كشاهدين، وشخص آخر في حلة مأذون بهدف القيام بالتوقيع بعيداً عن ضوضاء الأغاني والزغاريد.

((قولي يا ابنتي زوجتك نفسي))

((زوجتك نفسي))

ثم قام (سيف) بالتوقيع ولم ينتبه إذا كانت العروس قامت بالتوقيع أم لا، قبل أن يُفتح الباب من الخارج ليدخل منه ضابطان تحدث أحدهما قائلاً:

- سيف بك.. معانا أمر ضبط وإحضار.. من فضلك تفضل معنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثلاثة أيام مرت في التحقيق مع (سيف) بخصوص قتله للمدعو (محمد أحمد عبد الفتاح) وإخفاء جثته داخل العمود الخرساني، ولم يتلق المحقق سوى المرواغة من عقل داهية. طرقت أحد الساعات الباب

ودخل وبعد السماح له.

- السيدة داليا الطحان والسيد رفعت سعيد في غرفة الزيارات.

ثم خرج ليصطحب الشخص القائم بدور المحقق (سيف) إلى غرفة الزيارات، في طريق معتم تقوح منه رائحة الرطوبة، ثم إلى غرفة أخرى تبدو أنها مجهزة حديثاً، لها بابان متقابلان ويقسمها من المنتصف حاجز زجاجي به بعض الثقوب لنقل الصوت بين الطرفين، رآه كل الزائرين مكبل اليدين والقدمين في صورة تذكر من يراها بهانيبال ليكتر. نمت لحيته وتشعث شعر رأسه فأصبح بعيداً عن أن يتم تشبيهه بجورج كولوني، ثم جلس وتدلّت رأسه على صدره في انتظار أن يتحدثا.. أو يرحلا.

- أستاذك أن تتركنا لبعض الوقت يا رفعت؟

قالتها (ليلي) ولكن (سيف) قام بالرد بدلاً من (رفعت):

- رفعت ليس بغريب يا داليا.. لقد حكيت له عن كل شيء.

- أنا بالفعل أعلم أنه ليس غريباً، ولكن يؤسفني يا سيف ما سأقوله لك.. لن يقدر أحد أن يُخرجك من هذه القضية أو غيرها.

فرفع رأسه قليلاً ليزعج ضوء المصباح المقابل، قائلاً:

- غيرها!!.. هي قضية واحدة.

فتحدث (رفعت):

- الأمر كما حكيت له لي، لقد قُمت بقتله ردًا على محاولته ابتزازك بخصوص السيدة التي قُمت بقتلها في أسوان وأصقتم التهمة بزوجها.

- وكيف لهم أن يربطوا بينهم يا رفعت.. كان من الممكن أن يحدث هذا الربط إذا اتخذت أقواله رسمياً من قبل قتلي له.

وهنا فقط نظرت (ليلي) إلى (رفعت) وابتسم كل منهما للآخر، بينما أكمل (سيف) حديثه:

- لأنه لم يكن معي أحد سواه والرجل الآخر الذي توفي قبل عشر سنوات.

- وأبي أيضاً..

- الله يرحمه..

- ويكرمه.

كانت الأخيرة من (ليلي)، ولكن (سيف) كان في حالة لا تسمح له بالانتباه لما يعني دعاءها أو أنه كان شاهداً على مقتل أمها، ثم أكملت:

- لكن بالفعل موقفك من القضية لا يبشر بالخير.. فتخيل لو كانت زيارتنا لك هذه مسجلة بالصوت والصورة سيكون هذا اعترافاً منك بقتله.. بجانب تسجيل آخر بالصوت والصورة أثناء قتلك له، وهذا

ما حدث بالفعل ولم يتم إفصاح الأمر إلا في الوقت المناسب.. الآن.. مما يجعلك في موقفٍ لا تحسد عليه..

- ارفقي بالرجل يا ليلي، فهو في وضع لا يُحسد عليه.

- ليلي!!

تعجب (سيف) حين سمع اسم (ليلي) التي طالما عرفها باسم آخر فضلت الظهور به، لترتسم على وجهها ابتسامة الظافر بالانتصار.

- نعم ليلي.. اسمي الحقيقي الذي تجهله.. ليلي.. عزيز.. عيسى.. الطحان، من اتهمته في قتل زوجته داليا.. أمي يا سيف.

فأخفضت صوتها قليلاً ثم أكملت:

- التي قمت بقتلها أنت وكلابك.

- من يسكت عن الظلم سيطوله الظلم يوماً.. كما قال لك أبي منذ سنوات.

قالها (رفعت) فتوتر (سيف) وعزم على تمسيد شعره بيديه اللتين عجزتا عن الارتفاع بسبب السلسلة الواصلة بين قيود اليدين والقدمين.

- حتى أنت!.. حتى أنت يا رفعت كنت تخدعني طوال السنوات الفائتة!! من أجل خاطر هذه؟! لقد أذهلتني..

فقام بتحريك يديه بصورة عشوائية وأكمل:

- للأسف لا أستطيع التصفيق لكما، ولكن هل تعرفين يا داليا أو أيا كان اسمك أن أب شريكك في الإيقاع بي كان على علم بما سأقوم به من رد فعل على أبيك؟ أبوك الذي ضحي به من خوف من خسارة تجارته، ولكن الميت لا تجوز عليه إلا الرحمة.

- الميت والحي وأنت الصادق..

وقبل أن يفهم المقصود من قول (ليلي)، توجه (رفعت) ليفتح الباب الذي دخل منه شخص ما على كرسي متحرك يرتدي جلباباً بنيّاً كلون بشرته، وعباءة سوداء مطرزة، ولحية نامية تُعوض صلعة رأسه اللامعة تحت المصباح، هو آخر شخص توقع (سيف) حضوره في هذا الموقف بعدما تراحمت الأفكار في رأسه كاشفة عن سداخته.. (إبراهيم النوبي).

انهار من تلك المفاجأة التي شعر بها كصاعقة تركت كل العالم وضربت رأسه، لم يكن يعلم طيلة الفترة المنقضية بأنه بينما ينعم بحياته هارباً من العقاب هناك مؤامرة تُحاك بدقة ضده؛ فقد توهم غياب العدالة وحلول القانون محلها استناداً على ما يسمى بالأدلة والبراهين.. غير عالم أيضاً بأن للعدالة وجهاً واحداً، ومن المؤكد تحقيقها عاجلاً أو آجلاً.

قص الزائرين الثلاثة بالتناوب خطتهم بعيدة المدى للإيقاع به تحت راية العدالة، بدءًا من تظاهر (النوبي) ببغض شريكه واختفاء الطفلة، مرورًا بعمل (رفعت) في الداخلية بواسطته، وقتله لشريكه ودفنه في العمود الخرساني. الأمر الذي تم تصويره مصادفة ضمن تصويره ومراقبة تحركاته ضمن سلسلة مراقبات أحداثه اليومية؛ ولكن أيًا منهم لم يصرح إلى (سيف) عن تصويرهم الآن لاعترافه بالصوت والصورة حين ارتكابه جريمة القتل الأخيرة.

- أظنين أنك ربحت؟ يهيا لك.. سأخرج ولن أطلقك.

فردت عليه بضحكة عالية الصوت ردّد الحاجز الزجاجي صداها.

- أضحكين؟!.. سترين بعينيك يا بنت الطحان.

- لا أستطيع سوى الضحك على سذاجتك.. أو لنقل على غبائك.. أنت بالفعل قوي يا سيف، ولكني أقوى منك بعاونة من حولي، وعلى مرور سنوات وأنا لا أفكر سوى في كيفية قتلك ثأرًا لأبويّ خلالها كان كلاً من رفعت وأبيه يلعب دور العقل في منعي من قتلك، ولعبت الصدفة دورها حين التحقت بالعمل في الطب الشرعي بعدما كنت أعمل بوظيفة لا تتناسب مع دراستي، ولكني تعلمت خلالها الكثير، وجنيت خلالها الكثير من الأموال أيضًا.

فاقتربت من الحاجز الزجاجي الذي كاد أن يلامس وجهها له وسألته بصوتٍ خافتٍ:

- ثم من قال لك إننا تزوجنا من الأساس؟

فزاد ارتياحه وشعوره بالضياح حين أكملت:

- من قام بدور المأذون كان عم رزق.. حارس العقار الذي يسكنه أخي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(35)

بعدما علم (أوريل) بموت (بابلوبينو) لم يحزن، وكأنه استنفد كل الحزن الكامن في قلبه على من رحلوا من قبل، ورغم ذلك أفقده صديقاً ومعلماً.

انتظم الأخوان في حضور الصلوات كما من قبل، ورجع (أوريل) معلماً ومحفظاً بالإضافة لعمله بورشة النجارة الملحقة بالكنيسة، متذكراً كل حين تعليم (بابلوبينو) له وضحكه عليه في كل مرة يطرق يده بالمطرقة بدلاً من طرق المسامير.

يوميًا في أوقات الفراغ كان يعكف على صناعة كرسي هزاز ليقضي عليه وقت القراءة في المنزل، أنهاه أخيراً وشعر بالإرهاك.. أخذته غفوة حلم خلالها بنفسه في فترة طفولته واقفاً في أرض مقفرة.. لم يكن وحيداً، فكان كل من والديه وأخويه ومربيته محيطين به على شكل دائرة وهو واقف في المنتصف كنقطة حفرة سن الفرجار، يبتسم لهم رغم ملامحهم الجامدة الخالية من أي تعبير الأقرب لملامح الموتى، الدائرة تنتسع والأرض تزداد اقفراراً ويزيد العمر به وهو عاجز عن اتخاذ أي خطوة تجاه أي من المحيطين به، أخذ يحسهم على الاقتراب دون أن يستجيبوا له كم لو أن الابتعاد بغير إرادتهم، وهاله ما رآه حين وقعت عيناه على يديه التي برزت فيها الأوردة وتجدد جلدتها كيديين شخص بلغ من العمر أرذله.

استيقظ والعرق يغمره رغم الصقيع، وقلبه يخفق بشدة؛ وبعدما استجمع تركيزه وانتبه للوقت، وجد نفسه قد تأخر عن موعد الغداء مع (أباجيل) التي وعدته بفطيرة التفاح للتحلية بعد الغداء، وفي طريقه المعتاد مرّ بسوق المؤن ليتذكر يوم مصرع مربيته وأخيه.. هنا كان الدباح واقفاً ممسكاً بالقصبة والرزاز يتطاير من فيه.. فوق تلك البقعة كان الطفل معلقاً مجهشاً بالبكاء.. وهنا كان مرتادو السوق واقفين لا حول لهم سوى الاستمتاع بمشاهدة الطفل يُعذب.

وحين اقترب من المنزل حمل الهواء الداخل لرنثيه رائحة القرفة النفاذة، ليستقبلها بقلب فرح كطفلٍ حظى بملابس جديدة للتو؛ ولكن فرحته لم تدم كثيراً.

بمجرد دخوله وجد أخته جالسة إلى المائدة في انتظاره من بعد تجهيزها للطعام في الأطباق ممركة فطيرة التفاح في المنتصف، ورأى على المائدة شيئاً دخيلاً على أن يوضع فوق مائدة الطعام، وكان هذا الشيء هو رأس (أباجيل) المقطوعة.

فارقت الحياة الإنسانية الوحيدة المتبقية التي اقتنع بأنه لم يعيش لشيء أو لأحد سواها.. زهد الحب والزواج لينعم بحياته بقربها، خوفاً من أن يفارقها ويعيش كالوحيد بدونها، ولكنها فارقت.. فارقت الحياة بأكملها.

لم يستطع القيام بأي ردة فعل سوى الجلوس على الكرسي المقابل للرأس والنظر إلى ملامح الألم على وجهها، لحظات مرت كدهور ظل خلالها عاجزاً غير عالم ماذا عليه أنه يفعله، ولكنه اتخذ قراره أخيراً بالذهاب إلى الكنيسة.. وقرع الجرس.

ولكن عند خروجه انتبه الى الكلمات المكتوبة على الباب من الداخل.. بحروف روسية.. وبدم أباجيل: «عند النهر». وفي الحال دخل مرة أخرى وأخذ بعض الأغراض التي ظن أنه بحاجة لها، أخذ العديد من إبر الحياكة، وشكل كريات من القطن غمسها بالصمغ ومرر إبرة بداخل كل قطعة قطنية، ومن الخارج قطع أحد أحبال الغسيل وأخذه مع ساق بامبو كان ملقىً بالجوار، وبالقرب من النهر سعد إلى قمة أحد المباني العالية ليتمكن من رؤية من بانتظاره، ليتأكد من ما بقلبه من شكوك منذ رأى الكتابة على الباب باللغة الروسية، من كان بانتظاره هو (غلوشكو كاسبرسكي).. برومثيروس، تعرف عليه رغم ارتدائه للقناع الجلدي الذي يغطي تشوهات وجهه ومحجر العين الفارغ، منتبهاً أيضاً لوجود غريبين كل منهما واقف في موضع بعيد نسبياً بغرض مراقبة القادم.

ذهب إلى الكنيسة ودخل إلى مخزن الحطب الذي دائماً ما كان بمثابة مستعمرة للثعابين والعقارب، فطرق على كومة من الحطب لتخرج العقارب هاربة، فاختر أكبرها واصطادها بساق معدني ومن ثم قام بكسر لحمتها وتقشيرها وكأنه يقشر الروبيان على العشاء، وغرس الإبر بالسهم وتوجه للنار من قاتل (أباجيل).

(غلوش) واقفاً منتظر أي إشارة من مرافقيه، نظر إلى ساعة جيبه وزفر بضيق وبعد دقائق نظر إلى موضع احدهم فلم يجده، وعندما نزل ببصره قليلاً لأسفل وجده على الأرض كجثة، والمرافق الآخر في نفس الوضع بعدما قام (أوريل) باصطيادهم بواسطة الإبر المسممة، وتوارى خلف إحدى الأشجار في انتظار الفرصة المناسبة لمهاجمة (غلوش) الذي انتبه فجأة لحركة خلفه، ليجد (أوريل) ممسكاً بالحبل وهو على استعداد لخنقه، فبادره بلكمة في بطنه قلصت أمعائه ولكنه لم يعر للألم أي انتباه، مسدداً ركلة ليد (غلوش) الممسكة بمسدس على وشك إطلاق رصاصة تجاهه، فوق المسدس مزيداً حالة الاستنفار بينهما.

- سأقتلك..

قالها (غلوش) ليرد (أوريل) متحدياً:

- لنرَ إذاً من سيقتل الآخر.. أما زلت تذكر قتالك مع صديقك اليهودي؟!.. هلم.

قالها ملقياً بالحبل أرضاً وقرر كلاهما إكمال القتال من دون أسلحة، ولكن (أوريل) لم يعلم بوجود خنجر مخبأ تحت جورب غريمه الذي صنعه خصيصاً من أجله.

ما يقارب النصف ساعة قضياها في تسديد اللكمات والركلات لبعضهما البعض، حتى انهكهما تعباً لا يصلح معه طلب قسط من الراحة؛ فالراحة لن تأت سوى بالانتصار.. أو الهلاك.

ونتيجة التحرك المستمر لكليهما سقط الخنجر في الماء ولم ينتبه له سوى (أوريل)، فترك (غلوش) يطرحه في الماء حتى يتمكن من التقاطه خلسة.. توالى الضربات عليه من لكمات في بطنه وظهره وأجنابه، وركلات صوّبت بعناية لعجزته وكليتيه حتى انهكه الألم، وانكفاً على وجهه في المياه ليتحسس الجسم المعدني بينما (غلوش) استدار بجسده لالتقاط مسدسه وإنهاء الجولة الأخيرة، وبينما يقوم بتجهيز المسدس لإطلاق النار صاح به (أوريل)، فالتفت له ليراه واقفاً على قدميه والخنجر في

يده ويستعد للقفز في الهواء.. حينها أطلق (غلوшко كاسبرسكي) من مسدسه الرصاصه الأولى..
والأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(36)

لكل عقل سعته وقدرته على التخزين والاستيعاب، وقدرة على استعراض مخزونه وأرشفة الجديد بداخله، ولكن البعض قدرتهم على الاستيعاب تجعلهم غير مؤهلين لتلقي العديد من المعلومات في وقت قصير، وحينما يحدث ذلك تتراكم المعلومات وتتكدس الأفكار محدثة فوضى عارمة من الصعب إحاطتها.

وهذا ما حدث معه حين انهالت المفاجآت الصاعقة على رأسه، وعقله عاجزٌ عن تخيل كل هذه التحالفات ضده تحت راية مؤامرة واحدة للنيل منه، حيث كل تلك الخيوط بها مُكونة شبكة كبيرة خلال ثلاثين عاماً أسقطته داخلها في النهاية.

- من قام بدور المأذون كان عم رزق.. حارس العقار الذي يسكنه أخي.

وبخطوات خفيفة توجهت لتفتح الباب ليدخل العم(فرج)، وأكملت:

- ولم يخلُ يوماً من المفاجآت بعد.

فنظر العم (فرج) إليه مبتسماً بشماتة، قائلاً:

- سبحان.. سبحان المعز المذل.

متذكراً كل يوم لقي فيه الإهانة وهو لا يبالي متعالياً عليه.

- لا.. فرج!!

حينها أخذت أعراض ارتفاع نسبة السكر في دمه تزداد.

- فرج.. هناك أمر تجهله، لا يجب أن تكون في صفهما.

التقت حينها إلى (رفعت) وهو الكارت الوحيد الذي يظن أنه سيربحه في هذه الجولة، وعندما فهم (رفعت) ما سيقوله (سيف) حاول مقاطعته ولكنه رفع صوته قائلاً:

- رفعت هو من قتل ابنك.. أطلق عليه الرصاص.

ليسود بعدها صمت شديد، تبادل الجميع فيها نظرات الاستنكار بينما (سيف) شاعراً ولأول مرة بالانتصار، واستمر الصمت طويلاً كصمت القبور قبل أن يقطع العم (فرج) الصمت متسائلاً:

- الله!!.. هو.. هو لا يعلم حتى الآن؟ ألم يُبلِّغه أحد!!.. ابني حي يُرزق يا سيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ساعتين قضاها الاثنان في تناول الطعام واحتساء القهوة والعصائر، قرّر (رفعت) القيام واعدًا ضيفه بالتحدث في طريقهما الذي طال وسط زحام السيارات مروراً بكورنيش النيل والمنيل في اتجاه ميدان الجيزة، فتركا السيارة بأحد الشوارع الجانبية قبل أن يصلا لكوبري عباس سيراً على الأقدام، تعباً أخيراً فقرر الاستراحة في منتصف الكوبري متأملين النيل. وحكى له بكل صراحة عن حقيقة ما

يدبر له بمعاونة أبيه لمعاونة (ليلي) للثأر لوالديها، وأن ما حدث إلى العم (فرج) في الفترة الأخيرة لم يكن سوى نتيجة المعاملة السيئة التي لقاها مرارًا وتكرارًا من (سيف) في الآونة الأخيرة.

- ستمثل أننا ما زلنا نتحدث..

قالها (رفعت) لـ (خالد) الذي يحاول جاهدًا جمع شتات أفكاره ومحاولة اتخاذ القرار، سواء قبله بمساعدتهم أو بالرفض.

- سنتشاجر بالصوت ثم تلكمني وتقفز في المياه.

- ههههه.. ألكمك وأقفز في المياه.. الصلاة ع النبي، وهل ستسكت؟

- لا بالطبع فأنت تضرب ضابط شرطة.. سأطلق عليك الرصاص.

فضحك مرة أخرى وأخذ يتألفت يمينًا ويسارًا.

- علام تتألفت؟!!

- الكاميرا.. ألسنا في فقرة للكاميرا الخفية وحضرتك الأستاذ إبراهيم نصر؟

- كفاك تهريجًا فقد طفح بي الكيل من أبيك حتى يقتنع.

- حسنًا، ولكنني لو قفزت في الماء لن أطفو، فأنا لا أعرف السباحة، ثم المياه مقرفة وهناك صبي يتبول هناك.. انظر.. إنه يتبرز أيضًا.

- يا ابني ارحمني، قلت لك ستجد من ينتظرك بالقارب الأخضر تحت الكوبري مباشرة.. لقد وصلنا.. لهذا لم أخف عليك أي تفصيلة.

فتردد لحظات قبل أن يجيب مازحًا خوفًا من أن يرد عليه (رفعت) بصفعة على وجهه هذه المرة، فقال:

- رفعت بك.. على عيني ورأسي كل كلامك، وأنا لن أنسى معاملتك الطيبة لأبي وأنتك الوحيد الذي رددت له جزءًا من اعتباره بمجيبك إليه...

- فلتخرجه من معادلتنا يا خالد، فهو بك أو بدونك معي.. المهم أنت.

- كل الأمر أن ما تريده غير منطقي، فمن المفترض أنك رجل قانون...

فقاطعه مرة أخرى وهو على غير علم بأن (خالد) قد بدأ دوره في المسرحية:

- قانون؟! دعك من هذه الشعارات.

قال جملته الأخيرة ضاغطًا فكليه محاولًا خفض صوته بعد التفات أحد المارة إليهما.

- اسمعني.. أنت لن تخسر شيئًا، بالعكس.. سوف تربح الكثير بمعاونتك ووقوفك معي.. مع الحق، بخلاف المبلغ المالي المتفق عليه.

ففكر لبرهة من الوقت في المزيد من التساؤلات التي توقع إجاباتها من (رفعت)، وأخيراً أجاب:

- أنا مع عقلي..

- يعني إيه؟... آآآآه.

خرجت منه آهة جراء قبضة (خالد) التي ضربت وجنته وكادت أن تغوص بين فكيه قبل أن تدفعه بعيداً، ليقفز (خالد) في النيل هرباً، ولكن طلقات مسدس (رفعت) كانت تلاحقه؛ بينما يوجد من ينتظره بأحد القوارب في النيل بعيداً عن أعين المارة.. ملقياً له طوق نجاة موصولاً بالقارب بواسطة حبل.

- خير؟!!

- خير إن شاء الله..

- يا سيدي أنا أسألك عن اسمك.. اسمك خير؟

- نعم أنا..

- إذًا فلترم لي الحبل وشدني.. المياه باردة.

- قل كلمة السر أولاً.

فأجاب (خالد) بنفاد صبرٍ متضايقاً من قذارة المياه التي ألصقت ملابسه بجسده:

- غريب..

ومن هنا دخل (خالد) دائرة ضوء جديدة صبغته بلونها، فأصبح منذ هذا الحين وحتى الانتهاء من مهمته يحمل اسمَ (غريب).. أعطاه (خير) بطاقة رقم قومي بصورته واسمه الجديد، قام (رفعت) بتجهيزها له بسهولة في وقتٍ سابق.

كان من الصعب عليه أن يُفوت فرصته في إثبات تفوقه الدراسي، من بعد أن تخرج من معهد للحاسب الآلي لينتهي بالعمل في أحد المحال لبيع الملابس الداخلية، كان طموحه أن يصبح بارعاً في الاختراق كمن يشاهدهم فاغراً فاه في الأفلام والحلقات الأمريكية.

- الشجرة التي هي.. الشجرة!!

- هي بعينها..

- ماذا بها؟

- سندفع قرد ليتسلقها.. أو بمعنى أصح سننبت له فرعاً بعينه ليتسلقه.

- يا صلاة النبي... مش لاعب يا باشا.. هذه عقوبتها السجن المؤبد أو الإعدام.. سأصبح في عين الجميع إرهابي.. اسم الله على مقامك..

- قلت لك هذا سرنا ولن يعرفه أحد.. حتى ليلي التي هي صاحبة الشأن.

- يبدو أن الأمر جاد وأنا ليست الكاميرا الخفية ولا شيء. أنصت يا رفعت بك أنا وافقتك، ولا أخفيك سرًا أنني بعدما عرفت خطورة ما أنا مقبل على فعله قلقت، ولكن يجب عليّ أن أغلب قلقي بالأفعال أي شيء يتسبب في الإيقاع بنا، لأنه حينها من الممكن أن أموت بطريقة أشجع من ميتة سليمان الحلبي، الله يرحمة بقى و (بيشبش) الخازوق الذي ف...-

- خالد.. أقسم بالله لو لم تعتدل وتكتفي من التهريج هذا لأبلغتُ عنك بنفسى.

- اتفقنا.. ما المطلوب إيه يا باشا؟

- هذا المظروف فيه أوراق وصور، كل ما عليك إدخالهم على الشجرة بتاريخ قديم، وكل ورقة أو صورة عليها تاريخ الإدخال، وبعدها ننتهي سأعلمك عن طريق خير لترجع البيانات لأصلها وتمحو أي أثر لدخولك إلى الشجرة.. فاهمني؟؟

ثم أعطى له بعد التعليمات الأخرى، نهايتها حرق كل شيء من الممكن أن يصبح دليلاً على أي شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حينها شعر (سيف) بذات الأعراض التي اعتاد عليها.. ارتفاع درجة حرارة جسده مع الشعور بالوهن الذي لم يستمر طويلاً قبل أن يغيب عن وعيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(37)

عند دخوله إلى الأراضي السوفييتية لم يكن بانتظاره سوى (إيليا) الـثـرثار الذي أعطاه القناع الجلدي من قبل ليصبحا بعدها صديقين رغم قصر فترة معرفتهما ببعض، وقام بمساعدته للوصول إلى مقر جهاز الاستخبارات الروسية للقاء الجنرال (ثيودور أليينوف) وابنته التي فور ما رأته انخرطت في نوبة بكاء على ما آل إليه حال حبيبها الذي أصبح جسده كالمسلول، ووجهه ذو التقاسيم القوية مخبأ تحت قناع جلدي، وصوته الرنان خَفَّتْ وضعف.

- غلوشكو يا بني..

قالها الجنرال (ثيودور) فاتحاً ذراعيه ترحاباً بزوج ابنته العائد من الموت، والدموع تصارع لتترك عينيه.

- أشكرك على ما فعلت من أجل وطنك.. أشكرك على عودتك من أجل ابنتي، وآسف لما أصابك.

لم يكن هذا هو الجنرال (ثيودور) الذي تحدّث إلى (غلوش) منذ سنواتٍ بكل تعالٍ وغطرسة كونه أحد أهم الجنرالات السوفييت؛ بينما هو مجرد قاتل مأجور نكرة.

لم تجعله (بروسكوليا) منذ نعومة أظافرها في حاجة لإنجاب ابن ذكر، ولكن الآن.. والآن فقط تمنى لو كان (غلوشكو كاسبرسكي) ابناً له بسبب ما بذله في سبيل وطنه من تضحيات معنوية أو جسدية.

أقام الجنرال حفلاً ضخماً دعا إليه أكبر رجال الاتحاد السوفييتي مقاماً ترحيباً بـ (غلوشكو كاسبرسكي) المناضل.. زوج ابنته، وما لم يكن متوقفاً في هذا الحفل هو حضور (جوزيف سنالين) شخصياً، وأهدى العديد من النياشين والأوسمة لمن أقيم الحفل من أجله، وإعطائه الحرية في اختيار مكافأته وإجراء ما يلزم من عمليات جراحية لتجميل تشوهات وجهه، ومن ثم يكون الحارس الخاص للقيصر الأحمر.

رفض إجراء أي جراحة تجميلية له، معرباً بأنه سيقوم بنفسه بإرجاع ملامحه لما كانت عليه.. تعجب الجميع معتبرين ما سمعوه هذياناً؛ بينما يقوم هو يومياً بالنزول وحده إلى قبو المنزل ليستطلع الكثير من الكتب بلغات مختلفة في جراحات التجميل، بدءاً من الأساسيات وحتى المراحل المتقدمة، كترقيع الجروح والحروق وتغيير لون أنسجة البشرة، كلها أمور من شأنها بناء وجه جديد له بأي ملامح يختارها؛ ولكنه اختار الوجه المراد.. وجه (غلوشكو كاسبرسكي).

وبعد ما يزيد عن المائة يوم من القراءة والتدريبات، كانت (بروسكولياكوفا) جالسة تقرأ رواية الجريمة والعقاب وقد قاربت على إنهاؤها.. سمعت صوت أقدام صاعدة من قبو المنزل، فلم تشك لحظة في أن يكون الشخص الصاعد هو (غلوش)، ولكنها رغماً عن ذلك صرخت حين رأته قد استغنى عن القناع الجلدي الذي كان يحجب ملامحه عدا عينه الوحيدة وفتحتي الأنف والفم وقد نجح في إرجاع ملامحه ومداراة التشوهات.. بكت وهي تقترب منه مهرولة إلى أن ألقت بجسدها إليه في معانقة قوية، قائلة:

- أشكرك.. أشكرك على عودتك سالمًا كما عاهدتني.

- أنا من يجب عليه أن يشكرك على وجودك، فلولاك لما أتيت إلى هنا.

- ما زالت نبرة صوتك مختلفة، ولكن لا يهم فالمهم أن أراك سالمًا، سأستمتع بالنظر إلى عينيك كما من قبل.

وفي لحظات بلغ الحب زروته فاستلقيا أرضًا على البساط الإيراني هدية صديقهم (إيليا).. مارسا الحب لأول مرة كتجربة أولى بين اثنين مراهقين من شأنها أن تزيد قريهما لبعض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في العام 1935م تم عرض مسرحية ليدي ماكبث على مسرح البولشوي بعدما قام (ديمتري شوستاكوفيتش) بتأليف الموسيقى الأوبرالية لها بعنوان (ليدي ماكبث من ناحية مينتسينسك) لتلاقي نجاحًا وترحيبًا من الجماهير رغم حالة الحرب التي تمرُّ بها البلاد، وفي العام 1936م حينما حضر العرض الزعيم (جوزيف ستالين) لأول مرة، تفاجأ الجميع من ردة فعله في وصف العرض بأنه (بورنوفوني) والخروج قبل انتهائه، ثم نُشر في اليوم التالي في جريدة (البرافدا) مقالٌ بدون توقيع بعنوان (فوضى وليس موسيقى)، ومن المرجح أن يكون كاتب المقال هو ستالين نفسه، ومن ثم بدأت موجة الانتقادات على (شوستاكوفيتش) من جميع الأطياف، مؤلفين موسيقيين أو مترجمين أو حتى من لم يشاهدوا العرض، واصفين إياه بالحادثة غير المجدية. إلى أن تم إيقاف عرض الأوبرا ثم فرض الحظر على مؤلفات (شوستاكوفيتش) كلها، ولم يتم تقديمها مرة أخرى إلا بعد موت ستالين بسنوات.

وفي العام 1946م تمت إعادة العرض بعد تعديل ما ضايق الجنرال ستالين بناءً على تعليماته، وبالطبع في هذه المرة كان بصحبة حارسه الشخصي..

وكان يوم حضور العرض هو أول أيام عمل غلوشكو كحارس خاص لزعيم الروس، والذي تأكد فيما بعد خلال عمله معه وملازمته له كظله بأن رد فعله حينما رأى العرض لم يكن سوى تحسس منه لجرح رأسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (كارول) قد أحضرت كتاب مذكرات (غلوش) معها، وجلست لتقرأ بينما قام أحد العاملين بالكنيسة بالتطوع لإدخال الكهل للاعتراف؛ وتساءلت: لماذا يحتفظ (غلوش) بمذكرات ألد أعدائه؟.. ثم تابعت القراءة بحثًا عن تفسير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يتوجب على الحارس الخاص لأي زعيم ملازمته لأي مكان يذهب إليه، وفدائه بروحه إن لزم الأمر. وكما روى الفريق (نيكييتا خروتشوف) عن الأيام الأخيرة في حياة ستالين، يقول:

أنه خلال شهر فبراير اعتاد الزعيم أن يعمل طويلًا في مكتبه بالكرملين لما بعد منتصف الليل، وعلى عادته شاهد فيلمًا برفقته مع كل من الجنرال (لافرينتي بيريا) رئيس الأمن و(بيكولاي اليكسندروفيتش) وزير الدفاع.

ومن بعدها ذهبنا جميعاً لتناول الحساء في بيت (ستالين) في كونتسيو، انتهى العشاء قرابة الخامسة أو السادسة صباحاً، وكان ستالين في حالة مزاجية يُحسد عليها، ثم عاد كل منا إلى منزله وقضيت اليوم التالي في منزلي وكان يوم العطلة الأسبوعي، وفي الليل بعد انتهاء اليوم استيقظت من نومي على رنين الهاتف ليخبرني الحارس الخاص أن الزعيم حالته سيئة وخطيرة وأنه قد أجرى اتصالات هاتفية بالأطباء.

اجتمع كلُّ المقربين من ستالين ليشاهدوه وهو يحتضر، ومعنا ابنته سفيتلانا لترى أباهما بوجهه الذي ازداد اصفراراً وشحوباً، وهو غير قادر على تحريك جسده حتى فتح عينيه فجأة في لحظة ما قبل النهاية، لترى ابنته نظرتة الأخيرة التي بدأ فيها وكأنه يشعر بحزن عميق، ثم رفع يده اليسرى وكأنه يملي على الجميع أمراً ما، وكأنه يريد الإشارة لأحدهم، لكن يده سقطت.. وصعدت روحه مفارقة جسده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(38)

وقف (شاهر) بحلته الأنيقة وبجواره العديد من رجال الشرطة بملابسهم الرسمية ملتفين حول سرير (سيف)، وقام أحدهم بإيقاظه ليتعجب من وجوده في منزله.. على سرير هـ.

- سيف باشا، معنا أمرٌ ضبط وإحضار.. من فضلك تفضل معنا.

- لكم مرة سيتم القبض عليّ؟ لقد مللت..

ظن (سيف) لوهلة بأنه ما زال نائمًا، وكل ما مرَّ به لم يكن سوى أحلام متتابعة وسيمر الوقت ويستيقظ، لم يعبأ أو يلتفت للضباط وهم يقتادونه كأبي مجرم لنوال عقابه، أخذ يضع أولويات ما سيفعله بعد الاستيقاظ.. ممارسة التمارين الرياضية.. حلق أحيته.. الاستحمام.. اختيار حلة أنيقة والذهاب إلى العمل، ومن ثم استعراض بيانات (داليا) - كما يظن- عن طريق الدخول إلى الشجرة المعلوماتية للتأكد من هويتها.

الوهلة طالت والحلم استطل بدخوله مكتب وكيل النائب العام الذي أمر بحبسه خمسة عشر يومًا قابلة للتجديد، بعدها تم تحديد موعد جلسة الحكم النهائي.

حكمت المحكمة حضورياً على المتهم سيف محمود الزيني فيما يخص القضايا التالية: قتل السيدة ليلي أحمد حمدي بمعاونة كل من سيد محمود إبراهيم الشهير بسيد بلاميطة، وإبراهيم السيد حجاب، بجانب قتله للمدعو إبراهيم السيد حجاب شريكه في الجريمة الأولى؛ فقد حكمت المحكمة بإحالة أوراق المتهم إلى فضيلة المفتي.

كما حكمت المحكمة حضورياً على المتهم إبراهيم سعيد الفرماوي في أمر تزيف موته بالسجن ثلاث سنوات مع إيقاف التنفيذ.. رُفِعَت الجلسة.

وما بين أشخاص حزاني على المحكوم عليه بالإعدام وآخرين فرحين به، كان (سيف) هو الوحيد الغير عابئ بأيّ الأمرين، منتظر الحلم أن ينتهي سريعاً وأن لا يتحول إلى كابوس، وأما (ليلى) فقد ارتضت أخيراً عن حياتها بعدما اقتضت ليرقد والداها في سلام، بعدما كانت تفكر بالثأر من قاتلهم، عرفت عن ذلك في الأسابيع الأخيرة، ولكنها لم تتسأن تقوم بذلك تحت راية القانون وليس العدالة.. القانون البيروقراطي المعتمد على الأدلة ولا يلتفت إلى البراهين أو المسببات، اقتطعت جزءاً كبيراً من أموالها لشراء «النانو روبوتس» التي لم تكن سوى وسيلة للإيقاع بالشخص المقصود من دون إلحاق الضرر بأي بريء؛ وأما (رفعت) فكانت الدموع تتهمر من عينيه فرحاً رغم قراره بالاستقالة والتفرغ للسفر بصحبة زوجته لأشهر أطباء أوروبا في محاولة، أو محاولات تمكنهم من الإنجاب، وذلك بعدما أعطى من الأموال إلى (خالد) أكثر مما وعده به اللازمة لفتح مقهى في منطقة حيوية يديره والده الذي سافر لأداء فريضة الحج داعياً إلى الله أن يرزق (رفعت) وزوجته بالذرية الصالحة إن شاء الله ذلك، وأما (رزق) ونجله (خير) فقد استخدم ما حصل عليه من مكافأة في فتح محل لبيع الخضروات والفاكهة، أما أبوه - النوبي- فقد ارتسمت على وجهه لحظة النطق بالحكم ابتسامة فرح يرجوع الحق لمستحقه، ونوال الأثم عقابه العادل، فطالما دعا ربه بأن يمد عمره بضعة أيام لازمة حتى ينعم بهذه اللحظة ليفرح بالتزامه بالعهد الذي عاهد صديقه به.

بعد نطق القاضي بالحكم النهائي اقتيد إلى السجن في انتظار التنفيذ. استعاض بالملابس الحمراء بدلاً من البيضاء، وارتسمت على وجهه ابتسامة مصحوبة بلمسة جنون، وجاء يوم التنفيذ.

وبحضور كل من ممثل النيابة العامة، ومأمور السجن، والطبيب الشرعي. تلي مأمور السجن عليه أمر الإحالة إلى المحكمة ونطق الحكم الصادر تذكيراً له وللحضور، ثم لقن الشهادة وتم التنفيذ.

قام ممثل النيابة العامة بتحرير محضر أثبت فيه شهادة الطبيب الشرعي بتاريخ ووقت الوفاة، ثم دفنته إدارة السجن لعدم وجود أقارب للمُعدّم يقومون بهذا.

وفي اليوم التالي لتنفيذ الحكم توجه (رفعت) لزيارة العم (فرج) مرة أخرى، ولكنه لم يزره وحيداً.

- استرد أمانتك يا عم فرج.. بدون زيادة أو نقصان.

تعانق كلٌّ من العم (فرج) وابنه بعد غياب الأخير، بينما رفعت يبكي لبكائهما أثناء العناق الذي استمر كثيراً، ثم دخل (خالد) لتحضير شيءٍ يشربونه وبدأ العم (فرج) حديثه مع ضيفه.

- لا تؤاخذني يا بُني.. الأمانة.. الأمانة بالفعل بدون زيادة ولكنها ناقصة..

لم يفهم (رفعت) ما يرمي إليه، ولكنه أكمل:

- الولد وزنه ناقصاً عما غادر.. فلو بالإمكان.. ولا تؤاخذني.. أن تُرجعه وتأتي لي بجاموسٍ بدلاً منه..

فانفجرا بالضحك بينما المُقايض به يهتف من الداخل:

- جاموساً!! أهذه آخرتها يا حاج فرج..

- ليكن عَجلاً..

- فلتجعل العجل يجهز ما نشربه طالما الأمر كذلك..

قضوا بضع ساعات ضاحكين كما لم يضحكوا من قبل، ثم غادر رفعت بعد إصرار العم (فرج) والعجل على أن يتناولوا الغداء سوياً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد الجميع إلى أسوان بعد خمسة أشهر قامت (ليلي) خلالها بالتبرع بكامل أموال (سيف) التي وقّع بالتنازل عنها لصالحها ظناً منه بأنه يوقع على عقد زواجهما إلى العديد من الجمعيات والمشافى الخيرية، رجعت إلى بيت أبيها الذي لم يسكنه أحد إلاها، علقت على أحد الجدران صورتين لأبويها وفي منتصفهما صورة تجمعها بهما. تقف أمامها صباح كل يوم وتقرأ سورة الفاتحة، ثم تجلس لقضاء بضع ساعات في القراءة وتصفح «الإنترنت».

أتى لزيارتها كل من (رفعت) وزوجته وأبيه، وهو اليوم الذي انتظرتة طويلاً بعدما بدأوا جميعهم سلسلة من الرحلات إلى الأطباء حول العالم وعودتهم أخيراً، جلسوا جميعاً ثم قامت بتقديم المشروبات الساخنة والحلوى، وما إن انتهوا منها ليخرجوا إلى الباحة الخلفية المطلة على نهر النيل والفندق الشهير لإقامة حفل الشواء المُعد لها مسبقاً.

وبعدها فوجئ الجميع بأجمل خبر رجوه من قلوبهم في الفترة الأخيرة، عندما سألت (ليلي):

- خير يا هبة؟!.. كنت تقولين إن هناك أمرًا ما ستحكين عنه..

لم تتطرق بأي كلمة.. فقط أمسكت بيد زوجها الجالس معها على الأرجوحة ووضعتها برفق على بطنها، وفي ذات اللحظة اتسعت ابتسامتها والدموع في عينيها، و(رفعت) غير قادر على استيعاب ما تشير زوجته إليه؛ بينما (ليلي) عانقتها كأختها الكبرى أو أمها و(النوبي) يجاهد في الوصول إليهم بكرسيه المتحرك، وما زال رفعت كالأبله لم يفهم شيئًا.

- ما الأمر يا بشر؟.. ليتعب أحدكم ويفهمني..

- ستصبح أبا يا أبا ضعيف الفهم..

- وحياتك أمك يا أبي!! أقصد ورحمة.. آآ... الأمر بجد أم تمزحون؟

فضج المنزل بالضحك والفرح وعانق الجميع بعضهم بعضًا، وواصلوا الحكي والسرور في ليلة جميلة يغلفها الحب والود قبل أن يذهبوا إلى النوم في الغرفة التي أعدتها ليلي لهم خصيصًا.

وحتى الثانية بعد منتصف الليل كانت (ليلي) الوحيدة التي لم تستسلم للنوم، جالسة تتصفح اليوم صور طفولتها مع والديها، وبعدها انتهت أحضرت قلمًا مع بضع أوراق وأخذت تكتب:

لم يُستخدم مصطلح «الهولوكوست» - القربان المقدس- بألف لام التعريفية في الإشارة لعمليات الطرد المختلفة التي تعرضت لها الجماعات اليهودية من بلدان أوروبية، سواء من بريطانيا عام 1290، أو من فرنسا عام 1340، أو من إسبانيا عام 1492. فكان الطرد مجرد كارثة من كوارث الاضطهاد التي كان من الممكن تجنبها من خلال اعتناق الدين المسيحي، وفي خمسينيات القرن العشرين، ظهر مصطلح «الهولوكوست» بألف لام التعريف في الخطاب الغربي إلى إبادة اليهود إبان الحقبة النازية، ومنذ الستينيات من القرن العشرين ساد استخدام المصطلح وحل محل مصطلحات أخرى مثل (الكارثة) «Catastrophe» و(الإبادة) «Genocide»، وربما تأثر مصطلح «الهولوكوست» بالكلمة العبرية (شواه) Shoah وتعني (الكارثة- الدمار) التي استخدمت منذ الأربعينيات، وربما كان لاستخدام هذه المصطلحات الدينية أثره في شرعنة الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين.

فقبل ظهور النازية بقرن كامل تقريبًا، قدّم الأنجلوساكسون أنفسهم للعالم على أنهم (العرق السيد)، ونظرت إنجلترا إلى نفسها باعتبارها الأرض الموعودة وإسرائيل الجديدة، ونظر الإنجليز إلى أنفسهم باعتبارهم شعب الله المختار، وهي الرؤية التي تتكرر بوضوح في أدبيات الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية، وضع الأنجلوساكسون حينها جدولاً رأسياً لتقسيم الأجناس البشرية.

انتهت النازية التي مثلت لحظة نماذجية نادرة لتحقيق الرؤية الغربية في تنظيم العالم، لكن المذابح التي تسببت فيها نفس الرؤية لم تنته؛ فقبيل إسقاط النازية، قصفت اليابان بقنبلتين ذريتين لأول مرة في التاريخ رغم تأكيد هزيمتها واستسلامها، وبعد سقوط النازية بسنوات معدودة ارتكب الصهاينة جرائم

أبشع ضد العرب في فلسطين، ثم ارتكبت الإمبريالية الأمريكية جرائم عديدة أثناء غزو فييتنام، وأثناء الغزو الإسرائيلي للبنان، والغزو الأمريكي للعراق وأفغانستان.

ينبتق فيما بعد عن المتضررين جماعات هدفها الثأر.. جماعات تدعي تطبيق شرائع هم أكثر الجاهلين بها، يذبحون ويحرقون كذبًا باسم الدين مدخلين البشرية جميعًا في هولوكوست لا منتهي.

فلقد خُلِقَ الإنسان ليعيش مع أخيه في سلام وانسجام، ولكن بسبب حقد أحدهم على الآخر وقتله أتى الأبناء إلى هذا العالم والحقد والغضب داخلهم طالبين الثأر من قاتل أبيهم.. انقسم الإخوة إلى قبائل وكل قبيلة انقسمت على ذاتها، ليعتبر كل شخص نفسه الأوحد وكل آخر متخلفًا عنه وعدوًا له ويجب الانتقام منه؛ فأصبح الانتقام هو المُولد الأساسي للمذابح والحروب على مر التاريخ.. حريان عالميتان والثالثة تفرع طبولها.. اغتصاب.. اضطهاد.. قتل.. وأراضٍ موحلة بالدماء تفوح منها رائحة الموت والفناء.. تتاسى الإنسان الهدف الأسمى من تمييزه عن الحيوان بالعقل بهدف إعمار الأرض، فرفقًا أيها الإنسان.. رفقًا بأبنائك وبنفسك.. رفقًا بشعلة الفرحة التي قاربت على الانطفاء.. رفقًا بالسلام يا من خلقتكم لتكونوا صانعي سلام؛ فكفاكم حروب.. كفاكم انتقامًا.. كفاكم سفك دماء.. كفاكم غباءً يا أصحاب العقول.

بعدما انتهت من التأمل وتدوين ما بخاطرها كانت أشعة الشمس تمهد لشروقها؛ فذهبت للوضوء وعادت لأداء صلاة الفجر من بعد قراءة سورة الفاتحة لوالديها، ثم قامت بفتح الخزانة بأرقامها السرية التي تجمع تاريخ وفاة كل منهما لتضع بداخلها ألبوم الصور والأوراق التي انتهت من كتابتها، بجوار شيء ثالث.. كتاب بحجم كف اليد ذي غلاف جلدي.. لم تتم دباغته بشكل سليم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(39)

ما زالت (كارول) جالسة بفناء الكنيسة تقرأ ما مر بـ (غلوش) من أهوال وما قام به من فظائع، مستظلة تحت شجرة مورقة وقد كف الجليد عن التساقط وأشرقت الشمس وأصبح الهواء دافئاً لطيفاً، ولكن ما برأسها كان مزيجاً من زوابع وأعاصير لشبه استحالة ما تقرأه؛ ولكن ما بداخل الكنيسة كان مختلفاً كلياً، فالكهل الذي تعدى عمره المائة عام لأول مرة يبكي نادماً على آثامه التي اقترفها منذ شبابه من قتل الكثيرين كزوجته والزعيم الذي كان يقوم بحمايته، وكل أصدقائه الروس والصرب واليهود وكذبه عن كشف هويته حتى الآن..

سأله القسيس:

- ما اسمك؟

- أتفرق التسميات يا أبت أم أن اعترافي وتوبتي كفيلاان بجعل الله يرحمني؟

- الله ينتظرك كما ينتظر الأب ابنه الضال، فحالما يرى الأب ابنه وقد عاد أخيراً سيهرع لاحتضانه صافحاً عنه، ولن يفرق اسمك أو أي شيء آخر؛ فهو يعلمك جيداً لأنه من أنشأك حياً.. منتظراً إياك كل سنوات حياتك.. الله رحيم ورؤوف.

- بينما الأسماء لن تُشكّل فارقاً، أود أن أنطق اسمي منذ عشرات السنوات.

- حسناً.. ما اسمك؟

فساد الصمت لدقيقتين قبل أن يجيب الكهل أخيراً:

- اسمي أوريل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما في الخارج ما زالت جليسته تُكمل قرعتها:

وانكفاً على وجهه في المياه ليتحسس الجسم المعدني بينما (غلوش) استدار بجسده لالتقاط مسدسه وإنهاء الجولة الأخيرة، وبينما يقوم بتجهيز المسدس لإطلاق النار صاح به (أوريل)، فالتقت له ليراه واقفاً على قدميه والخنجر في يده ويستعد للقفز في الهواء.. حينها أطلق (غلوشكو كاسبرسكي) من مسدسه الرصاصة الأولى.. والأخيرة. والتي أصابت الهدف بجرح سطحي.

ثم غاب النور ليحل محله ظلاماً أبدياً باستقرار الخنجر المسموم في عينه الوحيدة التي يرى بها، معملاً شراً في جمجمته من الداخل من شأنه الضغط على الأعصاب ليصرخ رغماً عنه كطفلٍ وليم، اختلت وظائف العصب الحسي في جسده بالكامل، لتصبح لكمات وركلات (أوريل) له صعقات كهربية تصعق خلايا جسده وأعضائه الداخلية فيستسلم انتظاراً للموت، خلع (أوريل) عنه قناعه الجلدي معطياً إياه فرصة أخيرة يسترجع فيها ذكرياته وخاصة الأعوام الأخيرة في الاتحاد السوفييتي، وتدريبه على يد محبوبته.

استعرض تفاصيل حياته كاملة بينما (أوريل) قابضًا على رأسه، يمتص ذكرياته كبقة تمتص الدم.. ثلاث دقائق رأى فيها ملامح حبيبته وأبيها وصديق (إيليا)، وأدق التفاصيل التي لا يعرفها أحد سواه تمكنه ليعيش للأبد كـ (غلوش)، فقط لو كان له نفس وجهه.

- قتلت آخر آمالي في الحياة بقتلك لأباجيل.. والآن حانت ساعتك.

في لمح البصر قام بلف عنقه محدثًا طرقات متتابعة ناتجة عن انبعاج فقراتها العظمية التي لم تصمد أمام قوة يديه.

- لم تنته حياتك يا غلوشكو.. ها هي بدأت للتو.

ثم قام بحز عنقه وفصل رأسه عن جسده ممسكًا إياها، ناظرًا لعينيه الحجريتين متحدثًا:

- أشكرك على تعريفي بحبيبتيك.. أشكرك على وجهك الذي سيصبح لي..

ومن ثم أخذ الرأس إلى منزله ووضعها على المنضدة المستقرة فوقها رأس أخته، وأخذ يرسم الرأس ذات العين الواحدة من زوايا عديدة.

ثم بواسطه ذات الخنجر قام بسلخ رأسه والقاء الجمجمة الدامية في النهر ودفن الجلد حتى لا يتعرف أحد على صاحب الرأس المقلوعة. مقررًا إنهاء حياة (أوريل) والعيش ما تبقى له من عمر بوجه (غلوشكو كاسبرسكي).

ذهب إلى بيته بعد إلقاء الجثث الثلاث في النهر.. قام بغسل جسد أخته وإخاطة رأسها إلى جسدها، ألبسها أحلى رداء تمتلكه ومن ثم قام بدفنها، وأخذ الكتاب الذي اعتاد أن يُدوّن به أحداث يومه معه ورحل باكياً..

أوريل يبكي.. أوريل يصرخ.. أوريل ينهي حياته.. غلوشكو يعود للأراضي السوفييتية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما أنهى الكهل أعرافه شعر براحة لم يشعر بها من قبل، كان يتمنى في سنواته الأخيرة أن يحظى بصديق يشاركه أسراره ويخف النثرل من على كتفيه المنهكين، وها قد حدث أخيرًا بقصّ حياته كاملة لذلك القسيس، وترك جليسته تقرأ مذكراته.

- الآن أنت تعلمين بكل شيء.. أمستعدة لكتابة النهاية؟

- لا أعرف ما يناسب سؤالك من ردّ.. أحقًا أنت فعلت كل ذلك؟!

- نعم.. وصدقيني لولا ندمي لما طلبت منك أن تضعي النهاية لكل ذلك.

اتخذًا طريق العودة إلى المنزل وهما يتحدثان.. شرح لها الكثير عن قدرته في قراءة الأفكار ما جعلها غير مصدقة حتى قصّ عليها قصة تركها لوطنها والمجيء إلى روسيا، فكرت كثيرًا في فرق العمر بينه وبين (غلوشكو كاسبرسكي)، دار في بالها منذ قراءتها للمذكرات بأنه إن كان بالفعل من مواليد العام 1885م من البديهي أن يصبح عمره 129 عامًا وليس 107.. والآن فهمت.

- لماذا أنا؟!!

- لأنك تشبهيني.. دعيني أقص عليك قصة ما، وهي التي آمل أن تضعي لها النهاية المناسبة.

وأخذ يقص على مسامعها قصة أسرة مكوّنة من ثلاثة أفراد: أم، وأب، وابنة.. وكانت ظروف عمل الأب الذي يعمل في التجارة وترويح بضائعه بين البلدان تجعله مطمع لشخص فاسد، شخص لم يرضَ برفض الأب بأن ينغمس بالفساد، فقام بقتل زوجته وإصاق التهمة به، وجعل ابنته تعيش يتيمة ما بقي لها من عمر قضته بجنسية واسم غريبين، في بلد غريبة صُغت من خارجها بألوانه؛ ولكنها لم تتغير من الداخل، لتعود بعد ما يقارب الثلاثين عامًا من أجل الانتقام أو الثأر.

فغرت فاها عازمة على طرح العديد من التساؤلات ولكن لسانها لم ينطق حرفاً.. لم يستطع ترجمة هذه التساؤلات:

- من أين لك بمعرفة هذا؟! وأنت من المفترض بأنك لم تتقابل مع هذه الابنة من قبل؟!!

وكان سبب سكون لسانها هو قدرته على قراءة الأفكار وكأنها كُتبت بالخط العريض على غلاف جريدة.

ولكنه أكمل اعترافه بواسطتها، مُعلماً إياها من أين له بمعرفة كل هذه التفاصيل، وبعد يومين انتهت رحلته على الأرض ليلقى أحباءه أو يصبح في مكان بعيد عنهم، هذا ما لا يعلمه أحد. قبلها كان قد أوصى بكل أمواله وممتلكاته لجليسته التي قررت بعدها العودة إلى وطنها متذكّرة آخر ما اتفقا عليه سويًا.

- أمستعدة لكتابة النهاية؟

- نعم.

- النهاية-

- أمستعدة لكتابة النهاية؟

- نعم.

بعد مماته قررت عدم عودتها للعمل كجليسة مرة أخرى ليقينها بافتقاد الونس الذي أعطاها إياه (أوريل) من تحت وجه (غلوшко كاسبرسكي)، فبدأت العمل كطبيبة بناءً على ما درسته.

سنوات قضتها في العمل والتخطيط لعودتها إلى وطنها والعيش بجوار مُحبيها الذين تركتهم حفاظاً على سلامتها وسلامتهم.

بعد عودتها لوطنها أكملت عملها كطبيبة. أثبتت تفوقها وذكاءها وارتقت في وظيفتها لمراتب عالية أثبتت جدارتها بها يوماً بعد يوم؛ إلى أن أصبحت رئيسة مكتب الطب الشرعي وقابلت الشخص المُنتظر والذي أعلن لها عن حبه ورغبته للاقتران بها، فوافقت بالرغم من أنه لو كان آخر الرجال في العالم لن تقترن به لكونه سبباً يُتَمها.

فكانت طريقته غير المتوقعة في الثأر لو ديهها قد أتت ثمارها، وتم الحكم على (سيف الزيني) بالموت بعدما تناسى أن «من قتل يُقتل ولو بعد حين».

بعدها خلعت قناع (كارول) ورجعت لأصلها.

ليلي عزيز عيسى الطحان.

فليس كل ما يراه المرء بعينه حقيقة مُسلَّم بها؛ فالصورة في بعض الأحيان تكون معكوسة من داخل مرآة، والكثير من المرايا تعكس الصورة مُضيفة لها الكثير من التشوهات، لتصبح الصورة مجرد إسقاط لما يود المرء أن يراه ويصدق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



متميزون للكتب النصية



لينك الانضمام الى الجروب - Group Link

لينك القتاة - Link

Notes

[←1]

(1) النمسا وإيطاليا وبعض من الدول الأوروبية كانت تحت راية الأمبراطورية النمساوية المجرية حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى.

[←2]

(2) السلاف او الصقالبة مجموعة عرقية تتحدث اللغة السلافية ومجموعة السلاف الجنوبيين تضم السلوفينيين والكروات والصرب والمقدونيين والبوسنيين والبلغار.

[←3]

(3) الداية.

[←4]

(4) أكبر الأسواق شعبية في ميونخ.

[←5]

(5) مرض يشار إليه أحياناً باسم قارحة الفم، أو الغرغرينا المغزلية، أو التهاب الفم الغرغريني. مرض سريع التطور، وينتج عنه تقرحات وتحلل سريع غير مؤلم للأنسجة، يصل إلى تحلل عظام الوجه.

[←6]

(6) الجراية هي حصة الطعام اليومية.

[←7]

(7) المقولة لكارل يونج.. عالم نفس سويسري ومؤسس علم النفس التحليلي، أدت أعماله إلى تقاربه مع (سيجموند فرويد) حيث توثقت أواصر الصداقة بينهما لسنوات طوال، ولكن آراء (يونيغ) أدت إلى القطيعة بينهم؛ وذلك لوجود اختلافات في نظرية التحليل النفسي لكل منهما.

[←8]

(8) درجة الحرارة المطلوبة لصهر معدن النحاس هي 1085 مئوية ودرجة غليانه 2562 مئوية، بينما معدن البلاتين ينصهر عند 1769 مئوية ويغلي عند 3825 مئوية.

[←9]

(9) الْحَكَمَ فِي مَصَارِعَةِ السُّومُو.

[←10]

(10) فيلم المصارع من بطولة راسل كرو.

[←11]

(11) فرانس جوزيف غال (1758- 1828) طبيب ألماني اهتم بعلم قديم كان يدعى علم قراءة الجماجم، وكانت نظريته في هذا العلم: أن العقل يتكون من ملكات منفصلة، لكلٍ منها مركز في لحاء المخ، ويمكن تشخيص مدى نمو كل ملكة بفحص شكل الجمجمة، وتنقسم هذه الملكات إلى ملكات وجدانية -دوافع وعواطف- وملكات عقلية -ادراكية وذهنية-. حتى جاء بعد وفاة غال بخمسين عامًا عالم فرنسي يدعى فلورنس، ضاربًا بنظرية غال عرض الحائط ليصبح علم قراءة الجماجم غير معترف به علميًا حتى يومنا هذا.

Table of Contents

إهداء
توطئة

- (1)
- (2)
- (3)
- (4)
- (5)
- (6)
- (7)
- (8)
- (9)
- (10)
- (11)
- (12)
- (13)
- (14)
- (15)
- (16)
- (17)
- (18)
- (19)
- (20)
- (21)
- (22)
- (23)
- (24)
- (25)
- (26)
- (27)
- (28)
- (29)
- (30)
- (31)
- (32)

(33)
(34)
(35)
(36)
(37)
(38)
(39)